

362, 54
د
←

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف	962 - 54
رقم التسجيل	١٣٩٣٤٩

صالح علي عيسى السوداني

الاستدراك السياسي

لأبطال الثورة المصرية
واراء الدكتور محبوب ثابت

تاريخ . سياسة . أدب . وطنية . صراخ . كرامة



شبكة توثيق التراث الحضاري
Digitization of the Alexandria Library (GOAL)
مكتبة الإسكندرية
مكتبة الإسكندرية
مكتبة الإسكندرية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

لله

إلى الأجنّة في بطون الأمهات . . .

إلى الأجيال المقبلة . . .

إلى أرواح الضحايا والشهداء الأبرار الذين سبقونا إلى ضيافة الرحمن
في عليين .

إلى الضحايا والشهداء (الأحياء) من جنود الوطن المنسيين المنكورين .
إلى الأعفّاء ، الذين كانوا — وما فتئوا — وقود الحركة الوطنية ،
وأنوارها ، ونيرانها .

إلى إخوان محبوب في الوطنية ، في ربوع النوبة والسودان .
إلى أبناء محبوب من شباب الجامعة وأبناء الأمة .
إلى أصدقاء محبوب وإخوانه في البلاد العربية : في الأقطار
الحجازية المقدسة ، في دمشق الفيحاء ، وحلب الشهباء ، وأعلام لبنان
الغراء ، وبلاد الرافدين ، وفلسطين الجريحة المجاهدة .

إلى كل من طارده الغبن ونكر جميله .
إلى كل وطني عيوف ، أنوف ، أبي ، غيور ، يدعو إلى المثل العليا .
إلى أرواح عبد الرحمن فهمي وأمين الرافعي وغيرهما من المجاهدين .

إلى هؤلاء جميعاً أهدي كتابي هذا .

المؤلف



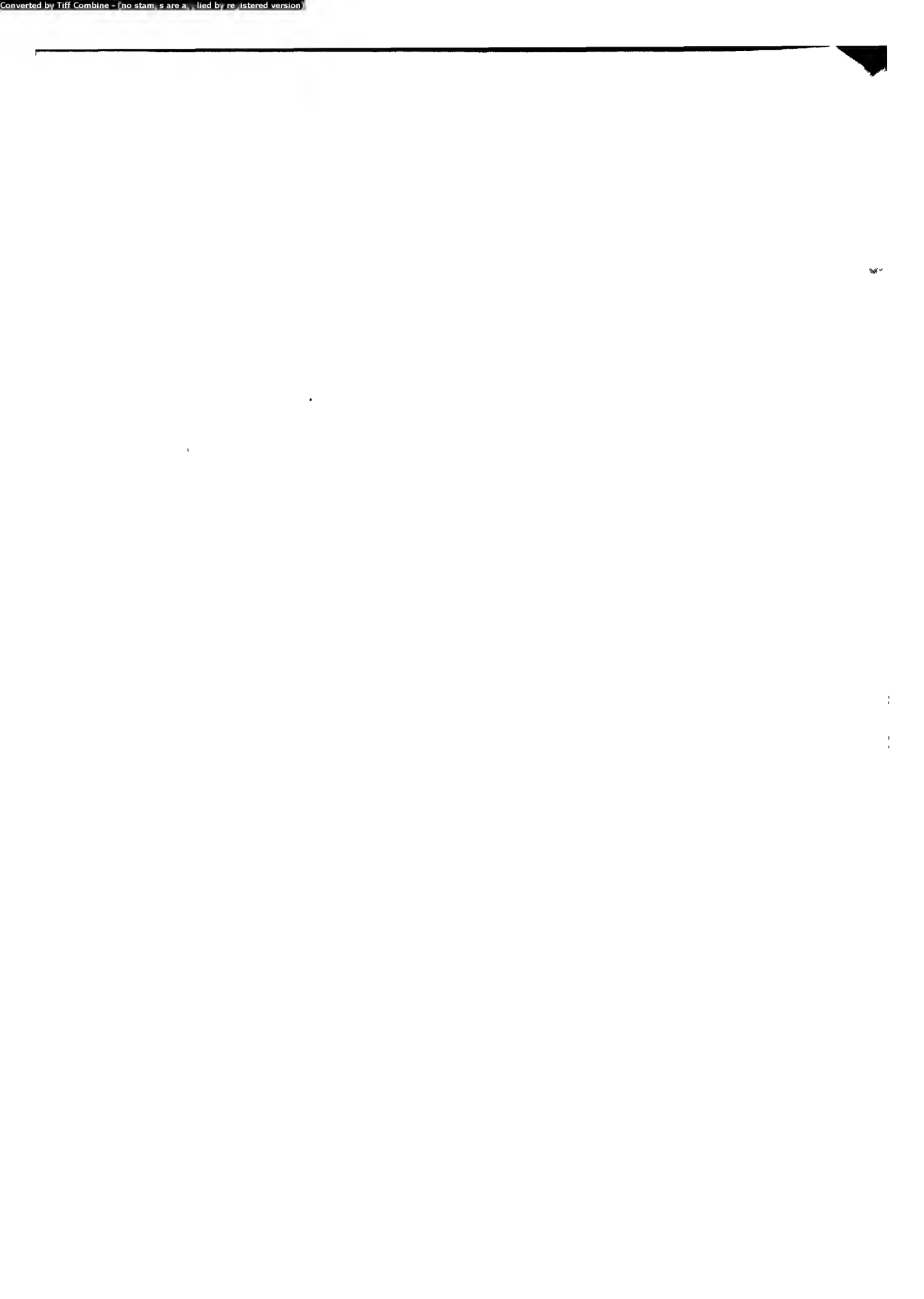
مضرة صاحب الجلالة مولانا الملك العظيم «فاروق الأول»

كاهدوا فـ لم تقلل مضاربه
وجه بهي وقلب غير وجاب
وكان المرش هامة كل قوم
وإن كانوا أجل الناس هاما
هو العلم الذي نمدية مصر
ونحن الجند في العلم انتظاما



مضرة صاحب الجلالة المغفور له الملك «فؤاد الاول»

فَكُمُّ شَرٌّ حَسَمَتْ وَكُم بِلَاءٍ وَكُنَّا لَا نَرَى لَهُمَا انْحِسَامَا
(انظر ص ٢٥١)



ورفعنا في الضحايا ذكره وأذعنا يومه في الآخرين



الركنور محبوب ثابت

هذه صورة ناطقة ، كما رأيتته وسمعتته متحدثاً ، متحمساً ،
غاضباً ، منتقداً ، مثلاً ، مفكراً ، ثائراً ، كاتباً ، خطيباً .

المؤلف

« تصوير ستوديو فيكتور سليمان »

Page 43



المؤلف

الجزء الأول

كلمة صديق :

تقديم

للمستاذ العلامة محمد كرد علي بك^(١)

رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق

ووزير معارف سوريا الأسبق

وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية



كان الدكتور « محبوب ثابت » صورة فريدة من صور الرجال بعلمه وبيانه وعمله ووطنيته ، فطر على صفات نادرة سيرته في مراحل عمره سيراً حفل معه بالطيبات ، واتجهت قواه منذ صباه للخدمة المصالحة العامة ، وعمل على هيبته في تواضع خال من التجدد والتبجح . وما طلب

(١) عاش الأستاذ العلامة « محمد كرد علي بك » في مصر أعواماً طويلاً بعد أن تعرضت حياته للخطر في سوريا لحرية رأيه ومقاومته ظلم الأتراك ، ومحاربتهم للغة العربية بواسطة الجهلاء من الحكام ، فوفد إلى مصر ، ومارس فيها الصحافة ، فسكتب في المؤيد ، وفي الظاهر ، وفي المقطم ، داعياً إلى الوطنية والكرامة .

ولما زال الحكم المطلق عن سوريا واعلن الدستور العثماني عاد إليها وخدمها أجل الخدمات علياً وأديباً وقد عرف له هذا المغفور له الملك « فؤاد الأول » ، فأمر وزير المعارف العلامة محمد حلي عيسى باشا بأن يضمه إلى أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية وقال الملك فؤاد له : « إني أعتبرك سورى المولد ، مصرى الوطنية ، أكثر الله من أمثالك » . المؤلف

العوض والمكافأة عما أجهد نفسه فيه ، ذلك أنه كان متشبعا بروح
 النهوض ، يعرف كيف يرضى ضميره بأداء فرض لا بد من قضائه .
 كان مثال العامل الصالح في شيخوخته على نحو ما كان زمان كهولته
 وفتوته . وهذا مما يندر في رجالنا ، ومن قانونهم أن ينتج أحدهم ما دام
 في حاجة إلى الإنتاج ، ويخفت صوته ، وتبطل حركته ، بعد سن
 الخمسين ، إذا فاز بنصيب من العلم أو المال ، أو أحرز جاهاً وحظوة
 وشهرة . فهم يبقون على الأغلب حيث يترأى لهم أن يبقوا ، لحيث
 يجب عليهم أن ينتهوا ، وبخاصة إذا وهموا أن حياتهم آمنة من العوز
 في الوظائف والاستخدام .

قل أن رأيت من أهل صناعة هذا الفقيد العظيم من هضم عليه
 مثله ، أو جمع إلى عليه معارف تمثلها ، وهي ليست بحسب الظاهر من
 اختصاصه ، أو شارك في مسائل كثيرة مشاركة المستقصى الحصيف
 لا مشاركة النشقة . ولو قد كتب له أن يعنى بالتدوين لكانت مدوناته
 من أجل الكتب العلمية ، يتعلم منها من يجب أن يتعلم ، ويتفكك بها من
 ينزع إلى أن يتفكك^(١) .

كنت تراه إذا جد الجد نسي كل مصلحة خاصة ، فتمثل لك
 شخصاً لا يحسن غير فنه ، وإذا هزل ظننته رجلاً شغل حياته في
 الضحك والإضحاك ، لا يحفل مصطلحات الناس واعتباراتهم ، ولا
 يبالي بالوقت يصرفه في غير فائدة .

(١) لو جمع أحمد ما دبحه يراع الدكتور محبوب في الوطنية لكان
 مجلداً ضخماً . المؤلف

كان على حظ عظيم من عزة النفس ، وعلى جانب من جمال العهد ، وفيأ إلى أقصى حدود الوفاء . وفيأ لوطنه يسهل عليه بذل كل نفيس ليحقق له بعض سعادته ، وفيأ لعلمه ، يزيد أبدأ في معلوماته وتجاربه ، ظل على ذلك إلى آخر أيامه . وفيأ لمرضاه يُعنى بصحتهم وتخفيف آلامهم عنايته بكل مطلب من مطالب أمته . وفيأ لأصحابه لا يدخر جهداً في مرضاتهم ، وإدخال السرور على قلوبهم ، ولو قدر له أن يبذل في خصوصياته بعض ما بذل في خدمة الجماعة لَعُدَّ في الموسرين ، ولو كان يُسَف إلى استثمار كل شيء لحسابه لكان من السمو والبسوق في الذروة العليا بين رجال الدولة . ولكنه ما خلق إلا ليقدم المجموع على ما توحى إليه به قريحته ، ولم يخلق ليقدم مصلحته ويتفانى في جلب المنافع لها . فهو رجل القوم لا رجل في القوم . هو لقومه حساً ومعنى .

يُرد تاريخ صلتى به إلى أزيد من عشرين سنة . وكانت علاقتنا في غضوننا أوثق من علاقة صديق بصديقه ، تمازجت روحانا ، وقضينا في القاهرة أياماً وليالى كانت حلوة لذينة ، زانها ثلة من الأصحاب هم حلية الزمان ، وبلابل مجالس الإخوان . ثم فرق الدهر بيننا وبين بعضهم ، ومنهم الأحمدان العظيمان : أحمد زكى باشا ، وأحمد شوقي بك ، عليهما الرحمة .

وصرفت مع صديقى فى دمشق أشهراً أيضاً وكان قد اعتصم بها فى محنة سياسية ^(١) وقع فيها ، فشاهدته واحداً فى نعمته وفى محنته ، يتجلد

(١) كان الدكتور محبوب قد ضاق ذرعاً من تفكك الكلمة بعد التضامن ، ومن العيون المبثوثة حوله فرحل إلى الشام فى أواخر سنة ١٩٢٤ . المؤلف

ولا يتضعضع ، قوى الثقة بالله ، لا يشك بحسن عاقبة المخلص الصادق .
وكان من الرعيل الذى لا يتكل على غير نفسه ، ولا يطلب
معونة حتى من يوالونه ويعجبون به ، يستعذب كل عناء إذا عاد ولو
بفائدة ضئيلة على بلده ومواطنيه .

دعا إلى السودان ، وحبيه إلى كل مصرى ، وعرف أهل القاصية
والدانية مكانة السودان من وادى النيل ، حتى لقد كان يظن من
لا يعرف ترجمته أنه كان من صميم السودانيين ، مأخوذاً بسودانيته ،
متيماً بحب أرضها وساكنها .

والجميل فى حياته أنه كان بعيداً عن التصنع ، يرسل النفس على سجيتها .
وقد رزق بديهة مؤاتية ، ولساناً مطواعاً ، وما أحياناً إذا خطب باللغتين ،
وما أطرب حديثه ، راضياً كان أو غاضباً .

رأيتته مع ناخبيه من عامة « مينا البصل » يعلمهم كما يعلم الأب
أولاده ، ويرشدهم إلى معان جميلة فى الحياة لو هُدى إلى تحقيقها لارتفع
مستواهم . وشاهدته مع النوبيين يدرّبهم ويلقّنهم ما يفيدهم فى بيئتهم .
وحضرته فى مجالس العطاء والأدباء يفيض من حكمته ويلعب بالعقول
فى محاوراته ومسامراته .

وكان عقله أوسع من أن يحصره فى حدود مصر ، فقام فى ذهنه
أن من المرومة أن يصرف جانباً من جهوده فى أهل الإسلام
والعرب والترك منهم خاصة . ويقول أبدأ : « من لا يهتم بأمور المسلمين
فليس منهم » .

كان أديباً بكل معانى الأدب من منازع شريفة ، ما سمعته يطعن

على أحد وقد آذوه غير قلائل . أما هو فقد علمه نبل شيمته أن
يصفح الصفح الجميل ، ويقيم من نفسه الأعذار لأرباب الشذوذ
والنشوز ، لا يبادر إلى تخطئة المخطئ إلا إذا نفذ صبره ورآه قد
عبث بمصلحة عامة . وكل ذلك من دون إقذاع وتحامل . يُقدر الجرم
بقدره ، فهو طيب شرعي حقاً وصدقاً .

وكان إلى التفاؤل أميل منه إلى التشاؤم ، يرى الدنيا بعين المعتبط
المحبور ، ويصمد للحوادث في أخرج ساعاته . لا يتأفف ولا يسخط
مهما ألحت عليه الأوجاع . ويحمد الله على ما ابتلاه وأنقذه مما نُجّه
الطبيعة من آلام هي أشد مما وقع فيه .

وكان نفسه كانت مؤلفة من عدة شخصيات ، ومن كثير من
الاختصاصات . تفوق في صناعته إلى أسمى درجة . وطبه طب العالم
لا طب المتطب . وكذلك هو في الأدب ، وكذلك هو في الخطابة
والسياسة . وما أحصى عليه أنه اتجر بشيء مما علم وفهم . وما اتخذ من
علمه سلباً إلى الظهور . وما جود في طبه وغير طبه إلا لأن طبيعته
تحب التوسع في بحث الأشياء والوصول إلى غوامض ما عالجها كثير
مثله . وهو إلى ذلك يعلو عن المادة خلافاً لأكثر معاصريه .

وعطفه على الفقير ، وعطفه على الأَعْلَى وأصحاب العاهات ، وعطفه على
الناشئة وعنايته بمستقبلهم واستقلالهم ، وعطفه على وطنه وتصديه لتهيئته له
بعض ما يحفظ عليه صحته ، كل أولئك كان فيه لا يجارى ولا يمارى .
نعم هو مثال نابغة ، لا يلهيه عن تحقيق أمانيه عائق ، ولا يدهشه تعقد
المشاكل ، ولا يهنأ العيش إلا إذا تم له الممكن لإنجاز ما شغل قلبه .

سار في ناحية عيّن لها لنفسه، ولم يجر في خططها على مثال سابق ، فامتاز بلون خاص من ألوان الحكمة والأدب وحب الخير . وكان رضى النفس قوى الإيمان . وإذا لم يوافق بعضهم على حركته ففي العادة ألا يُعرف الحق عن المصلحين إلا يوم رحيلهم من هذه الفانية إلى غير رجعة . ولو جاء أخى محبوب في أمة تقدر الرجال أكثر بما تقدروهم لكان له فينا شأن غير شأنه ، ولا تنفع ببعض ما أسداه من جميل إلى أمته ، ولعظمت الفائدة العامة منه إلى أقصى حدود الارتفاع . رحمه الله .

هذا ما عرفته من سيرة الحبيب محبوب ثابت . وقد اغتبطت أن رأيت صديقه وصديق الوفى الأستاذ « صالح على عيسى السودانى » يتصدى للترجمة له ، فيأتى بمعلومات طريفة عنه . وفي إيراد مثل هذه الأخبار عن رجل كبير أداء واجب لا يُحسن القيام به إلا من اختلطوا بالراحل الغالى الكريم عن كسب ، وعرفوه معرفة ثاقبة . أفرغ سيرته في قالب قصة أبدع حبكها ، وما فاتته الدلالة على مواضع العبرة فيها . وهل الحياة إلا قصة عجيبه فيها ضحك وبكاء وسعادة وشقاء ؟ توسع في تحليل روح صاحبه توسعاً جميلاً ، قاصداً ألا يغفل عن تدوين ما يفيد في تاريخ الحركة الوطنية . فجلي حقيقته للأعين بما أفاض في الذى أهمه من صفاته .

جرت عادة المتأخرين أن يكتفوا - إذا حاولوا الترجمة - بالمشهورين بذكر حسناتهم ، أما المؤلف فقد دوّن من ترجمة صاحبه ما لمس منه

مواضع العجب ، واستطرد لأمور ذكرها عن قصد ، وكان أميناً فيما ذكره عنه على إجلاله له وجهه . وعسى أن يكون مما كتب درس مفيد لناشتنا ولكل من يهيمه الاطلاع على سياسة هذه الحقبة القصيرة في مصر .

ليست عظمة الرجال بما يخلفون من مال وبنين ، بل هي تتوقف على أمور أخرى ، كان قسط محبوب المحبوب جزيلاً منها ، ومن أهمها خلقه الطيب ، وتفانيه في تحقيق أمانى قومه .
لا جرم أن مصر فقدت فيه ابناً باراً ، وخادماً أميناً ، وعلماً من أعلام الوطنية ، وعالمًا من النمط العالى ؟

محمد كرد علي

« غوطة دمشق — جبرين »



مؤرخ الثورة ومغامرها وقاموسها

يغلم المسمى المعروف
الأستاذ نبيل النجار

... ولعلى — فى حيرة كحيرتك أيها القارئ الكريم فلست أدرى أيهما أحق بهذا اللقب ، أهو محبوب ثابت ، الصارخ فى قلوب الشباب ، الضارب على أوتار الحس ... أم هو صالح السوداني ، المشتعل بالثورة ، المؤجج لنيرانها ، المؤرخ لرجالها ... غير أن فيهما وحدة جمعتما رداً من الزمن وما كان لهذا أن يفصل بين روحيين تماثلتا لولا الردى مفرق الأحياء ... ويلوح لى أن تلك الوحدة هى الرجولة الجارحة لمسناها فى فقيد الوطن الدكتور محبوب ثابت ، يوم كنا طلاباً فى الجامعة ، وكان يزورنا هذا الشيخ الوقور فيتناسى وقاره وينزل إلى شبابنا الغض ليقوده سريعاً إلى مراتب الرجولة ... ولكم أحبيناه إذ ذاك ، وتمثلناه بعد ذاك . أما صالح السوداني ذلك الصديق العزيز ، فقد عرفناه فى ظروف تدعو إلى التشاحن والبغضاء ... ولكننا تحايينا وخرجنا بصدقة تسمو على الزمن وتعلو على الحزبية وتتمشى مع الوطنية الحقيقية لا الوطنية المزيفة المتاجرة ! . . .

كان ذلك في عام ١٩٤٢ في دار بغيسة ذات سور وقضبان، وحراس بالحديد والنار... بقعة سوداء أريد لها أن تكون سجنًا للأحرار فإذا بها معمل لتفريخ الرجولة وبوتقة لصهر أرواح الأبطال... كان هذا في معتقل الزيتون...

الوقت مساء... وقد سرى خبر عجيب أن صحفياً كبيراً سينزل ضيفاً علينا.. وبدأنا نستعد فان أى نزيل جديد يزيد شعورنا أن البطولة لم تمت في الخارج بعد. فقد جاء يدلف إلى معتقلنا زميل أحمد ماهر والنقراشي وإبراهيم عبد الهادي في سجن مصر - ونزيل التخشبية ومحال البوليس في فجر الحركة الوطنية.

دخل صالح السوداني مريضاً ومخطأ... وقبل أن يستقر استطاع أن يلبس مخاز، كان الكل يغض الطرف عنها... كانت أدوية المعتقل يستولى عليها نفر محظوظ من نازليه، ثم يبيعونها بالثمن لباقي النزلاء، وفي الخارج... ولم يكن أحد يستطيع أن يقف في وجه السارقين الغاصبين فقد كانوا كثرة جمعة.. وكانوا سفلة من القوم أتت بهم أيدي الظالمين ليكونوا جواسيس حتى في داخل أسوارنا علينا...

وكان بعض الشباب منا يشورون ولكن سرعان ما تخمد العسكر ثورتنا إطاعة لأوامر عصابة اللصوص... وأخيراً، وما كان أشد عجبنا حين بدأ الأستاذ صالح السوداني ثورته العنيفة ضدهم...

كانت مخاطرة كبرى منه، فقد أضحت حياته معرضة للخطر. ولن ننسى هذا المنظر ماحيننا حين خرج لهم يوماً بسكين تحت إبطه وحين صرخ في وجه مفتش المعتقلات قائلاً: «إذا كنت لا تستطيع أو

لا تريد أن تمنع المجرمين عن إجرامهم ، فسأعرف أنا كيف أمنعهم ..
كانت رجولة جاححة ، لم نستطع حياها أن نمنع أنفسنا عن الإعجاب به
والانضمام إليه . مما حمل كثيراً من الشباب المعتقلين على السير خلفه كما
يسير الجند خلف القائد المقدم والربان الماهر القاهر ..

وسار النضال مسراه .. شخصان أو ثلاثة قبالة ثلاثة وعشرين بلطجياً
ومن ورائهم عشرون من انصاف الرجال يتبعونهم عن خوف وتملق ..
كان العالم في الخارج في حرب ، ونحن أيضاً في حرب .. ولكن العجب
العجاب أن تنتهى حربنا باندحار خصومنا ، وينتصر صالح السوداني
انتصاراً ساحقاً ماحقاً ..

وهكذا انتصرت رجولة صالح في أول معركة من معاركه
الكثيرة ، وضد من ؟ ضد من اعتقلوا بيد الظلم اعتقالاً سورياً . ليكون
رھط منهم أداة لإذلال النبلاء ، وشرذمة منهم لكتابة التقارير السرية .
فاذا بصالحنا يكشفهم ، ثم يفضحهم ، وإذا به يقف أمامهم
كالطود الشاخر .

وهكذا كان أول انعكاس لانتصار صالح بل لمجيئه أننا بدأنا نحترم
أنفسنا فقد كنا بدأنا نحس بتفاهتنا حين رأينا سفلة القوم الذين دسوا
بيننا ، فلما جاء صالح آمنّا أن المعتقل رغم ما فيه ، هو سجن الرجولة الحقّة ..
ولا أخفى أننا كنا بدأنا نرضى بظلمة السجن ، فقد كان صالح قبساً من النور
جاء يضيء جنباته الموحشة .

ثم تأتى المعركة الثانية والأهم حين يستطيع صالح أن يحمل الابن
على الثورة على أبيه إذا أجرم ...

كان كالأديب العبقري حين تقرأ له فتحس دافعاً يدفعك أن
تنشئ أدباً ...

كان جل رجال حزب ناشئ سجناء المعتقل إذ ذاك ، وكنت
أحدهم ... كنت قد دخلته مختاراً لإيماني الجارف بما كان يدعو
إليه رئيسه العظيم من مبادئ النزاهة والشرف ، فكان لا بد من أن يكون
ذلك شعارنا في داخل المعتقل ...

وكان هنالك شخص من بيننا ، كان إذ ذاك عضو مجلس نواب
مشاوح ، كنا ننظر إليه على أنه يمثل لزعيمنا العظيم وكنا نفتضيه التمثل
بمبادئه ... ولسكنا عجبنا إذ رأينا العجب .. كان هذا الشخص وهو
في التاسعة والعشرين من عمره لا تزال فيه طبيعة الطفل .. بل طبيعة
العانس في هذا السن الذي تريد فيه أن تتبرج لتجذب رجلاً ...
ينزل إلينا في سروال قصير أقصر القصر ، وقيص نصف كم ، ويمشي
يختال في ميوعة مرذولة يلقى البسمات في حركات عجزية ... ولكن
كل هذا كان يجوز أن يمر لولا تصرفاته المشينة ... كان حزب
الصوص يتابع لصوصيته التي بلغت إلى حد فتح حقائبنا وسرقة
ما فيها فإذا ما ضبطنا أحدهم أنكر السرقة وادعى أنه كان يبحث عن
مستندات تؤيد أو تنفي إخلاصنا لزعامتهم الفتية . فكنا ننتظر من هذا
الشاب الذي أرادت له الظروف أن يمثل رجلاً مجاهداً يحترمه الجميع
ويتمثله الجميع ، كنا ننتظر منه أن يساعد المعتقلين للاتصار لأنهم
ضد اللصوص ... ولكنه بالعكس كان يتملقهم ثم يناصرهم ..
يريد أن ينزل في وسطهم يحفون به كالغادة تسير وسط صف من

مريديها فاذا به يشجعهم ويأمرنا أن نناصرهم أو نسكت ...
ولهذا حوادث كثيرة لاداعي لذكرها. وإنما تكفي هذه الحادثة حين
أردنا أن نحتفل بعيد جلوس جلالة الملك ودفعنا تكاليف الاحتفال من
جيوبنا الشبه خاوية، ولكن رئيس العصاة يرفع عليها فوق الاحتفال ..
وثرث وقلت أنه لا بد من رفع علم الدولة فوق رؤوسنا .. وهنا
وباللعجب ! انتصر ذلك المائع لعلم اللصوص على علم الدولة .. إذا بصالح
المريض يحمي ثأراً يحرضنا على الثورة ناسياً مرضه .. ناسياً آلامه من
أجل كرامة مصريته ..

وهكذا كان لا بد أن أخرج على إرشادات هذا الشخص بتشجيع
صالح .. وقلت : إنه إذا كان زعيمه يناصره على ، فليذهب هو وزعيمه ،
ولتبق مبادئ ..

وفعلا حاربته مع صالح ، وانتصرنا عليه ، وحين ضيقوا الخناق
لم أجد مناصاً من التضحية بحزبي بل بتضحيتي ، فقدمت استقالتي
وفضلت الخروج إلى الحياة رجلاً حراً لا أحمل أوزار غيره ..
وأعترف أن كل هذا كان انعكاساً مباشراً من مواقف صالح
وهو انعكاس إن أفقدني كل المغام فقد أكسبني كل المفاخر وأكسبني
شعوري برجولتي وحب إخواني لي وهذا غاية ما يطمع فيه الرجل
السكريم. لقد كان صالح داخلا المعتقل داعية الحق والخلق ، كما قيل إنه
نودي بهذا اللقب يوماً على لسان المجاهد الكبير مكرم عبيد باشا .

* * *

ولكن كل ما مضى لا شيء إلا ما سيأتي .

صالح السوداني ووحدة الأمة... « الدين لله ، والوطن للجميع »...
 الأقباط لا يقولون وطنية عن المسلمين إذا كنا نرجع في الأصل إلى
 العرب ، فالأقباط إخوان لنا ، وإن افتخرنا بانتسابنا إلى الفراعنة
 فهم أبناء الفراعنة ، تلك كانت صرخات صالح السوداني ودعوته ،
 بهذا كان يحبه صالح السوداني أفراد العصابة حين نزلت لمهاجمة
 الأقباط في المعتقل... كانت تتمشدد بالدين بينما الخنور الغالية
 يشربونها كالماء في معسكرهم

وكان هذا أسمى مواقف صالح السوداني بلا شك ، فليس ثمة شيء
 أحقر من أن نحكم على قيمة شخص من خلال دين آبائه... وليس
 ثمة شيء أدى إلى تأخر الشرق من انسياقه وراء المهرجين باسم الدين .

كانت تلك حياة صالح معنا في أيام الاعتقال ، بطولة منقطعة النظير .
 فلا غرو إذا ما حيا الأبطال بعد مماتهم ، والدكتور محجوب في مقدمتهم .
 وبعد ، فلست أدري عما في الكتاب ، وإنما قرأت منه فصولاً
 غير أني قلت لنفسي أن لصالح ديناً كبيراً في أعناقنا نحن عشاق الحرية...
 فقد كان بطلها بيننا ، والمدافع عن المضطهدين وهو معتقل . أما بعد
 خروجه من المعتقل فقد أخرج الحكومة في سبيل الدفاع عنا وقد انتصر .
 ولعلني قد نقلت إلى القاريء بعض ما لمست ورأيت ، إنما قيمة صالح
 لن يعرفها غير من عاشه كما عاشناه ، لأنه سيحسها في دماائه وتصرفاته
 حياته . . رجولة توحى بالرجولة ٧

نبيل النجار
 المحامي

مَحْجُوبٌ ثَابِت

بقلم الاستاذ صالح البهنساري

ظل هذا الاسم طيلة الثلاثين سنة الأخيرة يملأ الصحف ويملأ المجالس ، وقبل ذلك كان يعمل الجهاد ، فالتحق بخدمة الهلال الأحمر في حرب البلقان وعمل كأستاذ مساعد في جامعة بروكسل ، وكان وطنياً مخلصاً ومجاهداً في الصفوف الأولى بخطبه ومقالاته ، فشرّد ونفى من قصر النيل إلى المحاريق .

كان الكل يسعى إلى مجلسه ويبحثون عن مكانه ، لأنه كان دائب المرح ، حلو الحديث ، فياضاً في معلوماته . كان أول من نادى بوحدة وادى النيل . اصطفاه سعد زغلول وقربه إليه ، وكان محبباً عنده لأنه أخلص في العمل معه .

ثم أراد أن يخدم بلده عن طريق نيابته عن الأمة في البرلمان ولم يكتف بخدمته لها بطبه وعلمه فكان مبرزاً بين نواب الأمة . ثم فكر أخيراً في التدريب العسكري للطلبة فنجح في بث الروح العسكرية بينهم .

ولكن صحته لم تعد تحتمل ، فأصيب بمرض ، وكان يعود صديقه الدكتور سليمان عزمى باشا ، وفي اليوم الذي لفظ فيه النفس الأخير كان يناقشه ، ولكن عزمى باشا قال له : « يا محجوب أنت الآن مريضاً ولست طبيباً » .

وقال قبل وفاته بساعتين : « أعتقد أنى سأنتهى ، فانتهى ، لأنه كان مؤمناً بالله إيماناً شديداً .

شيعناه إلى مقره الأخير وكان حوله أوفياؤه وخلصاؤه وعلى رأسهم محمود فهمى النقراشى باشا الذى عمل كثيراً لتكريم محبوب فى مماته كما كرمه فى حياته بأن وافق على أن تقرره مكافأة عدا المعاش تبليغان مائة جنيه ولم يقبض هذا المرتب الجديد لأن أجله قد جاء . ثم يوفد النقراشى باشا أحمد النشوقانى بك والأستاذ محمد عبد الرحمن الجدبلى إلى دار الفقيد لإبلاغ شقيقته العجوز أن تعتبر أن محبوباً لم يمت وأن النقراشى حل محله ويبنى بذلك أن يجعل دار محبوب مفتوحة لا محجوبة .

ثم يصدر النقراشى أمراً بالمحافظة على مكتبته التى حوت نفائس التأليف وقرائح المؤلفين من أجنب ومصريين لكنى ينتفع بها تلاميذه من بعده . إن فى مصر أوفياء . وها هو النقراشى باشا يضرب المثل الأعلى فى الوفاء لصديقه الحبيب محبوب الذى عرفه منذ أربعين سنة وأخلص كلاهما لصديقه .

رحم الله محبوباً وأعز مصر بأبنائها الأوفياء .

فإلى صديق الأستاذ صالح السودانى تهنتى الخالصة ، وتقديرى للمجهوده على وضعه هذا الكتاب .

صالح البرنسارى

مقدمة المؤلف

إن كتاب «الأسرار السياسية لأبطال الثورة المصرية» ، وآراء الدكتور محبوب ثابت ، هو في الحقيقة تاريخ حافل لثورة سنة ١٩١٩ ، وجهاد محبوب دروساً وطنية . وإنه في الواقع قليل من كثير ، وقطرات من بحر خضم ، من سيرة ومبادئ وجهاد ذلك الرجل العظيم الذي ملأ مساحة الجهاد الوطني دويلاً لا يزال صدها يطن في الأذان ، بل هو سجل لمفاخر أبطال الحركة الوطنية . أردته إنصافاً لمن ساهم معهم محبوب وساهموا معه ، جاءت لكل منهم ذكراه وأعماله في مناسباته الزمنية تمشياً مع سياق الحديث والحوادث .

ولما كان محبوب متعدد النواحي ، متنوع الشخصيات ، كنت أراه النطاسي الطيب ، والكاتب الأديب ، والخطيب الأريب ، والسياسي البعيد النظر ، الثاقب الفكر ، والعالم العبقرى . فقد حرصت على أن أدون كل ما سمعت منه عن أمم ، وكل ما شاهدت عن كُتب . وإنه لعصارة الذهب . ثم إنه الوفاء ، وضعت له كتاباً مسطوراً وحديثاً منشوراً وقُدوة ونبراساً .

وإني إذ أذكر بعض ما أعرفه من جهاد « محبوب والأسرار السياسية » أجدني مغشىً البصر ، موجع القلب ، منفطر الفؤاد ، محزون النفس . . ومع أنني كنت بين عزة النفس والترفع بها عن ذل

الحاجة ، فى أثناء وضع هذا الكتاب كنت مستريح الضمير ومن ثم ألفيتنى أحس كأنى قد فصدت عرق الوتين ، واتخذت من دمه مداداً لليراع .

ولانى لموقن بأنى قد صورت محجوباً المحبوب ، المجاهد ، المصلح ، تصويراً واضحاً صادقاً ؛ ثم حلت شخصيته تحليلاً قد جاء موثقاً . ولقد جعلت جلال التاريخ فيه رائدى ، وجمال الحق مرشدى ، ونور الإنصاف خطى وقائدى ، ووضعت روعة الصدق نصب عيني . . على أنى قد جافيت كل دعاية نُسبت إلى محجوب ظلماً واختلاقاً ، وجانبت كل نادرة أو تندرأ لصقت به إفكاً وزوراً .

وكتاب « الاسرار السياسية لأبطال الثورة المصرية » ، وإراء الدكتور محجوب ثابت ، هو تاريخ رجل جاهد فى سبيل أمته ، وفادى من أجلها فى جميع مراحل حياته ، فى شبابه ، وزمن فتوته ، وإبان رجولته ، وفى عهد كهولته . وظل يجاهد فى الداخل وفى الخارج ، حتى فى شيخوخته . وظلم فى حياته ، فكان شهيداً يمشى على قدميه قبل وفاته ، فأسمى شهيداً من الشهداء الأبرار بعد مماته .

فمحجوب ثابت قمين بأن يكون تاريخه للبصرى قدوة به يقتدى ، وسيرته جذيرة بها أن يهتدى ، وجهاده الطويل حري بأن يُنسج على منواله ، ثم هو تاريخ حقبة مرت على مصر . على أنى غير مبالغ إذا قلت : لانى أرخت الدكتور محجوب ثابت

مبيناً مزاياه ، موضحاً إياه . وكذلك أبطال الثورة المصرية . وفي الكتاب تصوير للوعى القومى وإلى اليقظة الوطنية ، وإرهاق الشعور ، ونكران الذات فى سبيل المصلحة العامة ، وتغليب كل ذلك على الغرض الشخصى ، والهوى النفسى ، كما كان يرى محبوب والبطل عبد الرحمن فهمى والمجاهد أمين الرافعى وبقية الأبطال .

ولقد دونت ما أعتقد أننى أزلت به الغبار عن ذكرى محبوب ، وتاريخه ، وتاريخ الجهاد الوطنى الذى رافق حياته وأيامه معا .

اللهم قد بلغت . . .

اللهم قد أدبت الأمانة . . .

اللهم فاشهد . . .

صالح على عيسى السردانى



جاءنا من بعض أصدقائنا الأوفياء كلمات خاصة تقريظاً لهذا الكتاب ، بعد ما انتهينا من طبع الفهرس الخاص به ، فشرنا منها القدر الضئيل . لذلك نلت نظر حضرات القراء المؤلف

الدكتور محبوب ثابت
المجاهد الوطني

مبيناً مزاياءه ، موضحاً إياه . وكذلك أبطال الثورة المصرية . وفي الكتاب تصوير للوعى القومى وإلى اليقظة الوطنية ، وإرهاف الشعور ، ونكران الذات فى سبيل المصلحة العامة ، وتغليب كل ذلك على الغرض الشخصى ، والهوى النفسى ، كما كان يرى محبوب والبطل عبد الرحمن فهمى والمجاهد أمين الرافعى وبقية الأبطال .

ولقد دونت ما أعتقد أننى أزلت به الغبار عن ذكرى محبوب ، وتاريخه ، وتاريخ الجهاد الوطنى الذى رافق حياته وأيامه معا .

اللهم قد بلغت . . .

اللهم قد أدبت الأمانة . . .

اللهم فاشهد . . .

صالح على عيسى السردانى



جاءنا من بعض أصدقائنا الأوفياء كلمات خاصة تقر يظاً لهذا الكتاب ، بعد ما انتهينا من طبع الفهرس الخاص به ، فنشرنا منها القدر الضئيل . لذلك نلفت نظر حضرات القراء المؤلف

الدكتور محبوب ثابت
المجاهد الوطني

تمهيد

محجوب ثابت المجاهد الوطني

كان العلامة الدكتور « محجوب ثابت » فقيد الوطن والعلم ، كوكباً في سماء الوطنية ثم هوى ، ونجماً أضاء في الوجود ثم خبا ، وشمساً أشرقت في آفاق النيل ثم غربت .

كان في عالم الطب نطاسياً ، بل بجرأ خضياً . وفي علم النفس قطباً . وفي السياسة من أساطينها . وفي علم التاريخ جبراً وعميداً . ويمتاز فوق هذا كله ، بأنه في تاريخ مصر وسودانها كان عالماً ومرجعاً ، ثم كان حجة في اللغة والأدب العربي .

ولقد كان الأستاذ الدكتور « محجوب » الفيلسوف في الأطباء ، والعالم في الأدباء ، والمدرّس في الخطباء ، المالك لقياد الكلام ، والحافظ الباقعة بين الحفاظ .

وكان البعيد النظر ، الثاقب الفكر ، الحكيم الرأي ، الواسع الدراية ، الوافر الرواية في كل فنٍّ وعلم ، وفي كل ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية .

على أن اشتغاله بالسياسة لم يكن إلا لوجه الله والوطن لم يبع من وراء ذلك جزاء من منصب أو جاه . ولا مغنماً من مال أو ثراء . عفة كان محسوداً عليها محسوبة له في الفضائل عند المنصفين . ولطالما كان يتمثل بقول المتنبي :

ماذا لقيت من الدنيا، وأعجبه إلى بما أنا شاك منه محسود
كان الدكتور «محبوب»، سلطان المجالس في مجال السمر. كان
سمره علماً وتوجيهاً، وتندرته تعليماً وتنبيهاً، وأحاديثه محاضرات ومعلومات
قيمة، وكلامه فقهياً، ومنطقه سليماً قوياً، وبيانه سحرًا حلالاً...
كان «نسيج وحده».

ولا جدال في أن «محبوباً» كان من الشخصيات البارزة الواضحة،
مستقيم الضمير، عف اليد، سليم النية، جميل الطوية، شريف القصد،
بأجلى وأجمل ما في هذه السجاياء والشمائيل من معان ومدلولات.

كان له طابعه الخاص. وكان فريد مصره، ووحيد جيله وعصره.
فهو شخصية فذة قد لا تتكرر، وقد لا تعوض. وقد يضمن الزمن بمثله.



الدكتور محبوب ثابت

صور من أخلاقه

كان يجمع بين سعة الصدر وسرعة الغضب. يغضب إذا مست كرامته. ولكنه كان سريع الرضى فيما عدا الكرامة، وأقل اعتذار ممن أساءوا إليه يرضيه ويزيل ما كدر نفسه وأثار غضبته. كان فريداً في تسامحه وتناسيه للإساءة، بل في التماس شتى الاعتذار لمسيئيه — ولا سيما الكتّاب وأصحاب الصحف والمجلات، الذين كانوا يحملون عليه بإيحاء من بعض رجال السياسة — فقد كان من هذه الناحية في القليل نارا، أما إذا تبادى الكتّاب في الحملة عليه متجنين، فسرعان ما كان يستحيل إلى عاصفة هوجاء. فاذا ما اعتذروا إليه « بأنهم إذا لم يتناولوه في صحفهم فإن الزعماء يقطعون معاوتهم المادية عنهم، وهذا يؤثر في دخلهم، وأنهم يحملون عليه بحكم الاضطراب، يقدمون على المسكروه منهم والاسف يحز في نفوسهم، وأنهم يعلبون مدى وطنيته الصادقة ومبلغ إخلاصه وتضحياته وغيرته التي لا يرقى الشك إليها^(١)، غفر وصفح.

(١) أوحى أحد الساسة — من قبيل الدعابة — إلى محرر مجلة « الاثنين » برواية مختلقة ملخصها أن الدكتور محبوب ثابت — على إثر مقتل السردار سنة ١٩٢٤ — في نوفمبر — خاف القبض عليه، فسارع بالهرب إلى الشام « لينفذ بجلده » وأنه لم يرجع إلى مصر إلا بعد أن انتهت القضية واطمأن على نفسه... فلنشرت مجلة « الاثنين » هذه الرواية. وما أن اطلع عليها الدكتور

كان محبوب الرجل في هذه الناحية من أخلاقه في الغالب الأعم نوراً ، وفي الكثير ابتسامة مضيئة على ثغر مصر . وظل كذلك حتى آن يوم رحيله إلى لقاء زبه راضياً مرضياً عنه . كانت تغلب على شخصية الدكتور محبوب أخلاق الصوفيين آناً ، وتتجلى فيه نفسية الزهاد آنات ، وكذلك كان يجمع بين العلم والحلم والتواضع : تواضع العلماء ، وحلم الفلاسفة .

محبوب حتى ثارت ثأرته لما احتوت من كذب واختلاق وتحريف للوقائع والحقائق . وفي الحال كتب إلى الأستاذ « شكري زيدان » أحد صاحبي الاثنين بما يرد به على هذا الاختلاق ... لأنه عندما وقعت حادثة السردار في نوفمبر سنة ١٩٢٤ كان الدكتور محبوب من قبلها ببضعة أشهر متغيباً في الشام غيبة طبيعية ، ولم تكن الحادثة قد وقعت . فيكون ادعاء سفره بعد مقتل السردار إنما هو محض افتراء وقع فيه كاتب المقال ونشرته « الاثنين » تحت مسئولية ذلك المحرر الدخيل على الصحافة .

فلما تلقى الأستاذ شكري زيدان رد الدكتور محبوب كان عليه أن ينشره بنصه الكامل . وكان ردّاً شديداً مفحماً . ولكن الأستاذ شكري وقف محرر المقال موقفاً حرجاً إذ خيره بين أمرين : إما نشر « مقال الرد كاملاً » ويقابله فصل المحرر من العمل ، وإما الحصول على عفو الدكتور وصفحه عنه . وحينئذ يكتفي بنشر تصحيح الوقائع .

وما كان أكرم نفس الدكتور محبوب حين لجأ إليه ذلك المحرر مستعطفاً ، مستشفعاً بصديق أوضح للدكتور محبوب كيف أصبح عمل هذا الشاب وعيشه معلقين رهن صفح الدكتور وتسامحه . فنزل الدكتور محبوب عند رجاء الصديق وصفح وهو يقول : « إننا نصفح لنبقى لهم على القوت ، ولكننا نحتقر هذا الأسلوب من الانحطاط الخلقي » .

صورة من تسامحه

كان رحمه الله . إذا ضاق صدره بتجنى الأصدقاء وأخرج « بمقابل »
 الأحياء ، من أمثال المغفور لهم : أحمد شوقي ، وعبد العزيز البشري ،
 وعبد الحميد البنان ، ومحمد إبراهيم هلال ، ويوسف المويلحي ، وحببيه
 وصديقه داود بركات ، ومحمد محمود ، وجورج طنوس الصحفي الخفيف
 الروح ، وحافظ إبراهيم (شاعر النيل) : من الراحلين . ومن الأحياء :
 أحمد النشوقاتي ، والسيد علي راتب ، وإبراهيم الطاهري ، ومحمود
 فهمي النقراشي . . فكنت ترى الدكتور محبوب إذا عيل صبره
 ونفذ تحمله ، يحنج إلى الانقباض عنهم إلى حين . فإذا اتصل به
 أحدهم أو جميعهم ، وطالبوه بترك العزلة والعدول عن الانقباض
 عنهم ، ورجوه أن يستأنف الاتصال بهم وقضاء السهرة معهم ، قال
 لهم بأسلوب الراجي المتساح المتغاضي المتغابي : « صومعة الرجل داره ،
 وسميره كتابه » . . .

فإذا ألحوا عليه بالاعتذار إليه عما بدر منهم نحوه بحسن نية ،
 وبقصد الدعابة ، سرعان ما كان يرضى ويتلاشى كل ما كان قد علق
 بنفسه ، ويعود إليهم راضياً متناسياً ، مترنماً بقول معن بن أوس :
 وحقك لا أدري - ولاني لأوجل -

على أينما تعدو المنية أول

وان سؤتي يوماً صفحت إلى غد

ليعقب يوماً منك آخر مقبل

الدكتور محبوب ثابت صورة من جهاده

عقب تشكيل الوفد المصرى سنة ١٩١٩ ، للسفر إلى مؤتمر الصلح في « فرساي » (١) ، كان بطبيعة الحال في حاجة إلى المال للإنفاق منه على نشر الدعاية لمصر ومقاومة الدعاية الإنجليزية ضد المصريين ، تلك الدعاية التي جعلت الصحف الأمريكيات وبعض الصحفيين يفغرون أفواههم دهشة وتعجبا حينما رأوا المصريين يرتدون الملابس كما يرتدون هم ، ويأكلون كما يأكلون ، ويمشون على أرجلهم كما يمشون .

ذلك لأن الدعاية الإنجليزية القوية ، كانت قد أثرت فيهم إلى حد الاعتقاد بأن المصريين يمشون على أرجلهم وأيديهم . وأن المصرى يقتنى في كوخه عشرات النساء ، وأن المصريين يأكلون لحوم الأدميين والهام . وأنهم لا يستسيغون لحم الحيوان ولا خبز الحبوب ، وأن هذا كان قبل الاحتلال الإنجليزي كما كانوا يدعون .

(١) بعد فك اعتقال سعد وصحبه من « مالطة » والسماح لهم بالسفر إلى أوروبا ، استطاع الانجليز حمل أعضاء مؤتمر فرساي ، على إيراد أبواب المؤتمر في وجوههم .

قال شوقي - رحمه الله - في هذه المناسبة :

ولو كنا نجر هناك سيفاً وجدنا عندهم عطفاً ولينا
سيقضى دكرزون ، بالامر عنا وحاجات الكنانة ما قضينا

والعجيب المولم أن «السواح» الأمريكيين الذين يجيئون إلى مصر - وهم من الأغنياء المثقفين - لم يكتبوا في صحفهم ما يدفع عنا هذا الكذب. وهذه الدعاية الظالمة ، بعد أن رأوا بأعينهم شعب مصر الحديثة . كما رأوا أو شاهدوا آثار مصر القديمة وما تنطق به من عظمة وحضارة ، يوم لم تكن في الدنيا حضارة . وما كان عند المصريين القدماء من ديانات حين لم يكن في الدنيا دين ...

والأعجب من ذلك . أن ماسح الأحذية المصرى والحوذى المصرى وقائد السيارة المصرى - بمن لا يقرأون ولا يكتبون - كانوا وقتئذ يعرفون عن كل بلد أروبي أو أمريكى جانباً كبيراً من حقائق تلك البلاد . ومع ذلك فإن صحافيات أمريكا وصحافيتها صدقوا ما نقل إليهم بالباطل عن المصريين من أنهم لا يأكلون ولا يلبسون كما يأكل أهل أوربا وأمريكا ويلبسون . وصدقوا ما أذاعته الدعاية الأجنبية في صور فوتوغرافية لجماعات النسوة اللواتي يركبن العربات «الكارو» خلف جنازات الموتى ، وكانت الدعاية الأجنبية تقول لهن نسوة سائق العربى وزوجاته ، ولو بلغن العشرين ، وقالت إن سائق العربى - وهو الزوج في زعمهم - هو مثال لأعيان مصر وأغنيائها الذين يطالبون بالاستقلال^(١).

(١) مصدر هذه الرواية هو المرحوم حمد الباسل باشا - وقد اهتمت الصحف المصرية في ذلك الحين بالتعليق على هذه المزاعم وتلك المقترعات . فكان لها أثرها في نفوس المصريين من دعاية الانجليز ضدهم في البلاد الأمريكية وحدث في جو هذه الموجة - وكان مؤلف هذا الكتاب من الثائرين لكرامة قومه وبلاده على إثر ما نشر عنها - أن شاهد أحد الأجانب في شقة فندق

كان الوفد إذن في حاجة إلى المال ينفقه في الدعاية للقضية المصرية وفي نفس الوقت للدفاع عن سمعة المصريين بمقاومة مزاعم الانجليز، وهدم دعايتهم الكاذبة .

ونودى في مصر بما يرمى به المصريون في الخارج ، وما تتطلبه قضية الوطن من بذل وتضحيات . وسرت هذه الدعوة في البلاد مسرى السكرباء ، وانسابت انسياب النار في الهشيم .

كانت هذه دعاية « عبد الرحمن فهمى بك » ، وكانت هذه هي رسالته . وقد كان سكرتير لجنة الوفد المركزية في القاهرة ، وكان مصدر الوحي بل الوعي أو الانتباه القومى ، ومبعث الوجدان الوطنى والشعور الفدائى فى سبيل الوطن ، والمحرك لخاصة المصريين وعامتهم ... عبد الرحمن فهمى الذى عاش بين الأحياء شهيداً مظلوماً . عبد الرحمن فهمى المجاهد المنكور فى الوطنيين . عبد الرحمن فهمى الذى جوزى آخر التضحية السخية جزاء سنمار^(١).

« السكتنتال » يصوب عدسة آلة التصوير إلى عربة تحمل جماعة من النسوة خلف إحدى الجنازات . فهجم المؤلف على ذلك الأجنبي وحطم آله ، وانهى بهما الأمر إلى بوليس « عابدين » ، لأن هذا المصور كان يصوب عدسة آله إلى العربية التى تحمل نساء العامة التى لا تخلو من أمثالهن أمه ، بينما تغاضى عن أخذ صورة مظاهرة رائعة قوامها طلبة مدرسة الحقوق يومئذ .

(١) أرانى أسرفت فى الاستطراد . ولكننا وجيعا الذكرى والآسى لنكران تضحيات المجاهدين الأبطال ... وأرجو أن أجعل لهذا الوطنى المنكور « عبد الرحمن فهمى بك » ، فصلاً خاصاً فياً بالملومات والحقائق فى كتابى الذى أشتغل بوضعه عن « أحداث مصر السياسية » .

وفى سبيل الحصول على المال . كان الوفد فى حاجة إلى من يضطلع بهذا الواجب المحفوف بالمتاعب . من الأمانه الأعفاه ... فإذا بالدكتور محجوب ثابت ينصرف عن عيادته - مصدر رزقه ومورد عيشه - ليجوب البلاد من أجل جمع الاكتسابات لتمويل الوفد المصرى ... وكان فى هذا الميدان من أوائل البارزين ، يدعو بصوته المدوّى الذى كان ينفذ إلى قلوب أبناء الوطن يحفزهم ويستثيرهم إلى بذل المال للإنفاق منه فى الدعاية من أجل القضية الوطنية وفى سبيل استقلال وادى النيل ...

أخذ الدكتور محجوب ثابت يحوس خلال الديار داعيا : الشباب ، والكهول ، والشيوخ ، والنساء ، إلى التبرع لتزويد الوفد بالمال . وبطريقته الخطائية التى كان يتأثر بها المتعلم وغير المتعلم ، جمع للوفد أموالا طائلة بلغت الألوف ، سلّحها إلى لجنة الوفد سليمة سالمة .

وقد كنت تراه - وهو مأخوذ بروعة الثوران الوطنى - يحجوب المدائن والدساكر والقرى لجمع الاكتسابات ، بعد أن آلى على نفسه أن تكون نفقات رحلاته على حسابه الخاص ومن خالص ماله المدخر^(١) . على حين كان غيره من مرافقيه فى تطوافه قد أثرى ، يستقطع نفقات الرحلات بما كان يجمع . ومنهم من كان يثرى من هذا العمل الوطنى ! ويحمل بى أن أذكر فى هذه المناسبة أن القرويات الفقيرات كن

(١) كان رصيد الدكتور محجوب فى البنك الشرقى الألمانى « بنك حسن سعيد باشا الأول » ستة آلاف من الجنيهات أفناها جميعاً فى سبيل الحركة الوطنية .

يتبرعن بجلبين عن طيب خاطر ، وكن يزغردن وهن يحدن بهذا العطاء . وهى صورة من الفوران الوطنى الذى غمر جميع طبقات الأمة فى مستهل الحركة الوطنية ، حركة سنة ١٩١٩ ،^(١).

وكم كان شوقى - رحمه الله - بارعاً فى تصويره هذا الشعور فى قصيدته الخالدة ، عقب عودته من المنفى - فى سياق تعريضه بدعاة الشقاق بين المصريين الذين كانوا كتلة واحدة وحزباً واحداً - يقول :

شيتم بينكم فى القطر ناراً على محتله^(٢) كانت سلاما
إذا ما راضها بالعقل قوم أجدت لها هوى قوم ضراما
إذا كان الرماة رماة سوء أحلوا غير مرماها السهاما
أبعد العروة الوثقى^(٣) وصف كأياب الغضنفر لن يراما

(١) كان المرحوم أمين الرافعى بك قد غضب مما كانت تردده الجرائد وما كان يجرى على السنة الخطاب من اعتبار حركة سنة ١٩١٩ هى فجر الحركة الوطنية فى مصر . فأرسل إلى المغفور له سعد زغلول باشا يلفت نظره إلى ذلك طالباً منه تعديل هذا رأى وذلك التعبير ، قائلاً له : « إن هذا غمط للسابقين فى الجهاد الوطنى وإن أرواحهم لتحلق فوق رؤوسنا محتجة آسفة . لذلك أرجو بما آمله فيك من جنوح إلى الحق أن تنصف السابقين فى الجهاد ، وقد كان . إذ جاءت ذكرى يوم ١٣ نوفمبر . وخطب سعد بصوته المتهدج فقال : « لست خالق هذه النهضة كما قال خطباؤكم وشعراؤكم . إنما نهضتكم قديمة تبتدىء من عهد محمد على مؤسس الأسرة المالكة ، وللاستاذ جمال الدين الأفغانى فضل عظيم فيها ، وللرحوم مصطفى كامل باشا فضل عزيز فيها ، وللرحوم محمد فريد بك أيضاً . ونحن لا ننكر لذى الفضل فضله . »

(٢) محتله هم الانجليز .

(٣) يصور حالة التضامن بين أبناء الأمة حيث لا أحزاب ولاحزبية . كانت الحركة فى مصر بقيادة عبدالرحمن فهمى بك والمرحوم محمود سليمان باشا . المؤلف

تباغيتم كأنكم خلایا من السرطان لا تجدد الضیاما
أرى طیارهم (١) أوفى علينا وحلق فوق أرؤسنا وحاما
وانظر جيشهم من نصف قرن على أبصارنا ضرب الخیاما
فلا أمناؤنا نقصوه ربحاً ولا خواننا زادوا حساما
لقد كانت الحركة الوطنية في بداية سنواتها قوية حارة ، وكان
الشعور الوطنى مرهفاً ، والغيرة القومية في أشد مظاهرها . وكنت ترى
كل مصرى ومصرية - لا فرق بين غنى وفقير ، أو متعلم وجاهل -
يعتبر نفسه الحارس على الاستقلال ، المتحفز للمفاداة في سبيل هذا
الاستقلال بالنفيسين : النفس ، والمال .

الدكتور محجوب رسول السلام

لم ينحصر عمل الدكتور في جمع الاكتتابات والتبشير الوطنى ، وإلقاء
الخطب الحماسية ، بل كان ينتهز الفرصة ويجعل من نفسه رسول سلام ووسيط
صلح بين العائلات المتخاصمة ، والقضاء على أسباب التنافر ، يخاطبهم باسم
الوطنية ، ويؤثر في نفوسهم بحمیل حديثه وظيف أسلوبه وطريف أمثاله .
قوى هموا قتلوا أميم أخى فإذا رميت أصابنى سهمى
لما وصل الدكتور محجوب في طوافه إلى مديرية جرجا - وقبيل
وصوله إلى مديرية قنا - سمع القوم يتحدثون بحدة الخصومة الناشبة
بين عائلتين كريمتين هما « الأشراف والحيدات » فقال للمتحدثين :
« أنا قين بإزالة هذا الخلاف وقلب هذا الحقد إلى حب وصفاء .

(١) طیارهم ، أى طائرات الانجليز .

ولا شك أن الأشراف سيتأثرون بي وأنا الشريف الحسنى .
وأقسم الدكتور محبوب أنه لن يغادر مدينة قنا - بعد وصوله
إليها - إلا إذا أصلح بين العائلتين . فلما قيل له : « أنت يادكتور
ستحاول رابع المستحيلات ، أجاهم : » سترن الآن قبل أن تقوموا
من مجلسكم هذا ، كيف أنى بعون الله سأرفع كلمة المستحيل من
القاموس . »

وكان الدكتور محبوب على موعد مع شيخ العرب « ابراهيم
أبو رحاب باشا ، عميد آل أبي رحاب ، فلما أقبل الرجل ابتدره
الدكتور محبوب : « يا أبا رحاب .. إني أقسمت لهؤلاء القوم بالله
وبالوطنية وبمجد الآباء والأجداد ، وشهامة العرب ، بأنى لن أتقاضى
منك قرشاً ولا دانقاً ، قبل قيامك معى إلى قنا لنصلح بين الحميدات
والأشراف ، فإذا لم تقم معى الآن . لتجدنى الطاعن فى نفوذك
ومروءتك ، المجرح لشهامتك ، الممتنع عن قبول أريحيتك وتبرعك
أنت وعائلتك . »

وكان التسابق فى التبرع على أشده بين العائلات الكبيرة ، وبين
المصريين جميعاً . وفى الحال أخذت « أبو رحاب باشا ، النخوة
العربية ، فنهض لمرافقة الدكتور محبوب إلى « قنا . » وهناك ، جمع
زعماء العائلتين . وروى « أبو رحاب باشا ، لهم كلام الدكتور
محبوب . وأقسم أنه سيكون الخصم الأول لمن يتخلف عن الصلح ..
وعندئذ تصالحت العائلتان . وأزيل ما كان بينهما من لدد مستحكم
وعدا قديم .

هذا هو الرجل العظيم الذي كان في حياته حركة دائمة العمل دائمة
الإنتاج ، لم يضيع من وقته فرصة دون أن يؤدي فيها أعمل الأداء . وهكذا
كان محبوب مجاهداً ، وطنياً ، أميناً ، ورسول سلام بين الناس ،
مخلصاً لوجه الله والوطن . التماساً لإشاعة روح الوفاق والفضائل
الكريمة بين مواطنيه من جميع العناصر والطبقات .



الدكتور محبوب ثابت
ولجنة ميلان

البطل عبد الرحمن فهمى بك، وأمين الرافعى بك والدكتور محجوب ثابت، ولجنة ملنر

فى إبان الحركة الوطنية، وفى ذروة قوتها، واشتعال نارها واخلوها من الشوائب. فى ذلك الوقت الجميل، والشعور الحى القوى المطرب. يوم كان الغرض الشخصى لا يجد سبيلا إلى القلب المصرى، وهوى النفس لا يجد منفذاً إلى ضمير الوطنى.. فى ذلك الوقت الذى كان الوزير يتملق فيه الوطنيين، ويعمل جهده على إبعاد كل شبهة توجه إليه (آه، آه..). ما أروع هذه الذكريات الحلوة (١١١).

فى إبان تلك الحركة الرائعة كان الوزراء يخشون عدم الظهور بمظهر الوطنية، كانوا يخافون ويحذرون المصرى الثائر المطالب بالاستقلال التام.. المصرى الذى قالوا عنه إنه لن يشور، ولن ينتبه، ولن يستيقظ، ولن يعى، وزعموا أن أصحاب الجلايب الزرقاء (الفلاحين) قد تأدبوا بعد جريمة «كرومر»، الوحشية فى (دنشواى).

وبعد أن كانوا يقولون إن هذه الأمة التى تحملت السكوارث ولم تغضب لن تثور، وإذا ثارت فتورتها ثورة صغار التلاميذ ١١١ إذا بهذا التصريح يزيد الحركة الوطنية شدة على شدتها. وإذا بالحكومة البريطانية، بعد أن رأت الثورة المصرية ثورة جادة، تقرر إرسال لجنة برئاسة «اللورد ملنر» أحد دهاتها لاجراء التحقيق فى أسباب الثورة. وإذا بالمصريين يعتبرون إيفاد هذه اللجنة إهانة لهم، فيجمعون على مقاطعتها،

ويجهرون في صراحة بأن كل من يتصل بها خائن يرتكب جريمة الخيانة الوطنية . ثم أخذوا ينادون بسقوطها ، ويعلنون أن مجيء اللجنة الملترية مقصود به تجاهل الوفد المصرى الموكل من قبل الأمة ، وكان الوفد يمثل المصريين أجمعين وفي الوقت نفسه هو سعى ما كرسىء بين الموكل والوكيل . وهنا تطل علينا ذكرى الموقف الباسل الذى وقفه «أمين الرافعى بك» صاحب جريدة «الأخبار» فى استقبال لجنة ملتر ، فقد حمل على مناورتها ، وكافها كافحا شديداً ، وحارب مشروعها فيما بعد ، حين رأى فيه انتقاصاً لحق مصر الكامل الذى نادى به فى برنامجها الوطنى «تعديل الأساس» . وكان فيما كتب من مقالات نظيفة بريئة ، البعيد النظر ، الثاقب الفكر (١) .

وهنا نستعيد ذكرى الموقف الوطنى البارز الذى وقفه «عبد الرحمن فهمى بك» حيال لجنة ملتر ، فقد كان يرسل رسله من الشباب إلى القرى والديساكر ليطلبوا جميع المصريين بمقاطعة لجنة ملتر ، ويناشدوهم باسم الوطنية ألا يكلفوا أنفسهم مؤونة الرد على أعضاء اللجنة ، وأن يشيروا عليهم - إذا ألح أحد أعضائها بالسؤال عما يزرعون - بأن يجيبوه بالقول : «اسألوا سعداً فى باريس وهو يجيبكم» .

وهنا كنت ترى الدكتور محبوب ثابت قد تفرغ للدعاية فى جميع الأوساط ، وكانت مهمته الأساسية هى الاتصال بالوزراء ومن إليهم

(١) حققت الأيام نظرية أمين الرافعى بك ، وجمامت الحوادث تنطق بصواب رأيه وصحة تفكيره الوطنى .

والمؤلف يعتقد أن أمين الرافعى هو سيد من حمل اليراع وامتشقته من خيت النزاهة وأداء أمانة الواجب الوطنى والصحنى .

محذراً إياهم من عاقبة إبداء آرائهم للجنة ملنر .

وإذا بالوزراء - خوفاً من الوطنيين - يصارحون ملنر وزملاءه بأن وزارتهم « وزارة إدارية » لاشأن لها بالسياسة ، وأن عليهم - أى أعضاء اللجنة - أن يكونوا آراءهم من تلقاء أنفسهم ، وأن يجمعوا معلوماتهم حسب اجتهادهم .

ومعنى هذا أن الوزراء خافوا مغبة إبداء الرأى خشية بأس الوطنيين . وتقرير ملنر أكبر شاهد على ما كان يقول به الدكتور محبوب ، ذلك التقرير الذى مليء مغالطة . وقد كانت الأمة على حق ، وكانت مرهفة الحس حينما يثبت أمرها على مقاطعة لجنة ملنر ، من قبل أن تظاً أرض مصر أقدام أعضائها .

* * *

وما يجدر بنا أن نتحدث عنه أنه لما تشرف أعضاء لجنة ملنر بمقابلة عظمة السلطان (جلالة الملك فؤاد الأول) نصح عظمته للجنة « بالتأنى فى استنتاج النتائج والاحتراس من الفضوليين » ، ولم يشر برأى ، ولم يعط نصيحة .

ومعنى هذا أن عظمة السلطان (الملك فؤاد) أشعر لجنة ملنر بأنه متضامن مع أمته . وهذا ما كان يعبر عنه الدكتور محبوب فى تصويره لموقف عظمة السلطان وقتئذ بأنه من المواقف الوطنية التاريخية الرائعة المجيدة .

نعم إن للتاريخ حقيقته وجلاله ، وللصدق روعته ، ولذكرى الوطنية الحارة حرمتها . فقد استقال محمد سعيد باشا احتجاجاً على إيفاد لجنة ملنر إلى مصر ، وتجاهل وكلاء الأمة . وكان هذا العمل الوطنى من

محمد سعيد باشا بتأثير كل من عبد الرحمن فهمى بك والدكتور محبوب ثابت وغيرهما من الوطنيين .

وكذلك فعلت الوزارة التى جاءت بعد وزارة محمد سعيد باشا ، فقد أعلنت أنها وزارة إدارية ، خوفاً من الوطنيين ، وخشية تيار الحركة الوطنية أن يحرقهم ويغرقهم ، ورهبة حيتان الوعي القومى أن تبتلعهم ونيران الإخلاص الوطنى أن تحرقهم ، وأنوار الشعور الوطنى الساطعة أن تغشى أبصارهم .

قال لى الدكتور محبوب ذات مرة :

— لا تنس يا بنى أن صاحب النصيب الأكبر فى إدارة الحركة الوطنية ، وتنظيمها تنظيمًا معدوم النظر ، مصحوباً بالحزم والعزم ، مقروناً باليقظة والحذر ، هو « عبد الرحمن فهمى بك » ، فقد كان يتصل بكل إقليم من أقاليم القطر ، وبكل قرية وعزبة ودسكرة ومحلة ^(١) مهما كانت نائية . كان له فى كل جهة من جهات القطر عيون مشوثة ، وفى كل ناحية رجال يبلغونه كل ما حدث وكل ما يحدث ، ويُفضون إليه بكل ما يجب أن يقع ويشيرون بكل ما يصح أن يُمتنع عنه ويحتاط له ... عبد الرحمن فهمى ، رجل الوطنية ، والكرامة القومية ، والصرامة . . . عبد الرحمن فهمى المحبوب ، المرهوب . .

— وما كان دورك يا دكتور ؟

ابتسم ، وعبث بلحيته ، وهز رأسه ، واستغرق فى وجيعة الذكرى

(١) كان المؤلف من جنود عبد الرحمن فهمى بك . وكان لم يزل صديقاً يافعاً وقد بعثه فى مهمة خطيرة إلى مديرية سوهاج ، وظل بها مدة طويلة .

الحلوة المرة^(١). ثم أخذ يذرع حجرة مكتبه جيئة وذهوباً، ثم جلس وهو مأخوذ بروعة الماضي، وأغمض عينيه وفتحهما، ثم نادى الخادم قائلاً: «شاي أخضر...» ولما هو يشرب الشاي قلت له:

— يا دكتور، إنى أعرف تواضعك فلا تتحرج من أن تذكر لى حصتك ودورك^(٢) تجاه لجنة ملنر. إنى إذ أسألك إنما أرجو أن تذكر جهادك والمنسى من أعمالك.

وهنا دخل أمير الشعراء المغفور له شوقى بك. فذكرت له ما كان من حديثى مع الدكتور محبوب، وكان شوقى قريب عهد بالعودة من منفاه، ولم يحضر لجنة ملنر، فانضم إلىّ وأبدى رغبته فى معرفة دور الدكتور محبوب.

وقلت: «إذا كتبت لى الحياة بعدك يا دكتور، فعلى عهد أن أخرج مفاخر ككتاباً مسطوراً وحديثاً منشوراً».

واستصوب أمير الشعراء ماعوت إليه الدكتور محبوب، فرضى. قال، وكأنا يقرأ فى كتاب مسطور، وهأنذا قد فعلت ووفيت: كان عبد الرحمن فهمى بك هو الحركة الدائمة المنظمة، المهمة المجاهدة. كان يتلقى التقارير من أنحاء القطر شفاهاً وكتابةً، ويدرسها، ثم يبت فيها دون أن يترك شيئاً منها إلى الغد. وكنت تراه كقائد الجيش يقظة وحذراً، فبينما هو يضع خطة جديدة تبلى فى الحال

(١) أقصد بها الألم الذى انتاب كل وطنى بسبب تفرق الكلمة

(٢) كان المؤلف يعرف دور الدكتور حق المعرفة ولكنه أراد أن يستوثق، وأن يأخذ التاريخ من فم صاحبه.

إلى الذين نيط بهم تنفيذها. إذا به يهذب الثورة ليجعلها جادة ،
لا وسيلة للعيش ، ولا طريقة للتكسب والكسب . وإذا به يكلف
من يثق بهم مراقبة من يشتبه في أمرهم ، فيرسل الطلاب
والشباب في كل مكان يُظن أن أحد أعضاء لجنة ملنر سيتصل بأحد
فيه ، ويحذر هؤلاء من نتيجة اتصالحهم بهذه اللجنة ... ثم لا يكتفى
بالتحذير ، بل يصدر الأمر إليهم بأن يقولوا لكل من يشك في
موقفه إنه مأمور إذا سئل من أحد أعضاء لجنة ملنر أن يكون
جوابه : « اذهبوا إلى باريس واسألوا سعداً » . وإلا ... أما أنا
يا بني فإن حصتي التي كنت أتطوع لأدائها كدين في ذمتي للوطن ،
كانت هي الاتصال بالوزراء وحملهم على ألا يبدوا رأيهم ،
وأن يعتبروا أنفسهم وزراء إدارة لا شأن لهم بالسياسة ، وأن
يقولوا للجنة : « إن الجهة السياسية في باريس . اذهبوا إلى باريس
واسألوا سعداً وزملاءه » .. وكان عليّ أن أحمل محمد سعيد باشا على
الاستقالة قبل وصول ملنر ولجنته ، وألا يخرج وزير على إرادة
الامة ... هذه كانت مهمتي الأولى ...

وهنا اغرورقت عينا شوقي بالدموع ونظر إلى ، واستنشدني
قصيدته الخالدة التي قالها عقب العودة إلى وطنه ، والتي يقول في مطلعها :
أنادى الرسم لو ملك الجوابا وأجزيه بدمعي لو أنا با
فلما وصلت إلى قوله :
ويا وطني لقيتك بعد يأس كأنني قد لقيت بك الشبابا

ولو أنى دعيت لكنت ديني عليه أقابل الحتم المجابا
اهتزا معاً وطربا. وأخذت منهما الحماسة مأخذاً شديداً ...

* * *

بينما كان الدكتور محبوب في ابتهاج بذكريات الماضى القوى
المجيد، كانت تطحن على مشاعره آلام مرة مؤلمة، من المقارنة بين الزعماء
في ذلك الوقت وبين موقف رؤساء الأحزاب سنة ١٩٣٥، ونقول مستطردين إن
الدكتور كان يتألم من المقارنة بين وطنية سنة ١٩١٩ وبين وطنية سنة ١٩٣٥
حينما أوفدت إنجلترا موظفاً إسرائيلياً بوزارة الخارجية البريطانية، اسمه
مستر «بترسون» كنائب لمندوبها السامى فى مصر «السير برسى لورين» الذى كان
قد اختلف مع حكومته فى تنفيذ تعليمات صدرت إليه . جاء مستر بترسون
- بعد تكليف برسى لورين بالقيام بإجازة - وتدخل فى شؤون مصر
الداخلية البحتة بموجب تبليغ شفوى يقضى بوجوب إقالة عبد الفتاح
يحيى باشا الذى خلف صدق باشا فى رئاسة الوزارة ورئاسة حزب
الشعب . وقد استقال عبد الفتاح يحيى باشا فعلا، ولكن استقالة مشرفة
تشبه استقالة شريف باشا المعروفة، فقد أثبت فى وثيقة استقالته أن سبها
هو تدخل الإنجليز فى شؤوننا الداخلية البحتة . وكذلك فعل على ماهر
باشا فيما بعد ، فكانت الثالثة (١) .

ومعروف أن الحكومة البريطانية كانت قد رأت فى تكليف جلاله

(١) نذكر هذا للحقيقة والتاريخ . ومعلوم أنه فى الوقت الذى حدثت
فيه مأساة بترسون، كان جلاله الملك قواد منحرف الصحة ، ومع ذلك لم
يتورع مستر بترسون الاسرائيلى عن الإصرار على طلبه .

ملك النيل إسماعيل صدق باشا بتأليف وزارته فى يونية سنة ١٩٣٠ - بعد إقالة وزارة النحاس باشا ، دون استشارة المندوب السامى البريطانى وهى إقالة انفرد بها جلالة الملك - خطراً على نفوذها فى مصر ، ولا سيما بعد أن أخذت الحكومة الإنجليزية من رد إسماعيل باشا على التبليغ وكان ردّاً مفجعاً .

وقد سكت رؤساء الأحزاب على هذا التدخل الذى يتعارض مع تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ الذى ينص على أن مصر حرة فى أمورها الداخلية ، ولا سيما من حيث تأليف الوزارات وإسقاطها . قال الدكتور محبوب : « إن رؤساء الأحزاب الذين أضلوا فريقاً من أبناء الأمة ، وضلّوا فريقاً آخر ، إنما سكتوا على التدخل الأجنبى فى شؤوننا الداخلية البحتة ، لأن كلا منهم كان يخشى - إذا هو احتج على هذا التدخل - أن تفلت منه أمانى الحكم فى المستقبل . وكان كل من رؤساء الأحزاب - عدا الحزب الوطنى ورئيسه - يظن أنه قد يكلف بتأليف الوزارة . إذن فالاحتجاج والاعتراض سيحولان بين « الغادة اللعوب » والمنصة الطروب : كرسى الحكم » . انظر يابنى إلى أى حد خمدت الحرارة الوطنية بفعل الزعماء . قارن بينهم وبين الذين كنا نسميهم - تهكماً - بوزراء الحماية يوم جاءت لجنة ملنر إلى مصر . . . ومع ذلك فأنا لست من اليائسين . . . سأغذى طلاب الجامعة بالدروس الوطنية . فإن كتبت لك الحياة بعدى ، فلا تنس يابنى أن محجوباً هو مدرس الحركة الوطنية . آه يابنى من الذكريات الحلوة المرة ، البهيجة المؤلمة ، المطربة المحزنة . . . ولكنى

لست يائساً... لا بد من أن تستعيد الأمة يقظتها في يوم آت قريب .
 ستعود إلى النفوس الفاترة في الأمة نظرية الحزب الوطني ومبادئه ...
 إنى أشعر بذلك ييقين المؤمن « ولتعلن نبأه بعد حين » .
 وأخرج محبوب من درج مكتبته تقرير لجنة ملنر ، وأخذ يطالعه ..
 ثم قال : « اكتب ما أملى عليك ، وافهم ما أقول » ...
 وأغض عينيه ، واستغرق في خيال الذكريات المشجية الباكية ،
 ذكريات الروح الوطنية ، عند استقبال الأمة للجنة ملنر ، ذلك الاستقبال
 الذى أفرغ الإنجليز وروعهم ، وأقص مضاجعهم ، وغصت به حلوهم ،
 واضطربت له نفوسهم ... ثم قال :

— بعد أن حاولت لجنة ملنر في تقريرها التقليل من شأن ما حدث
 من إجماع الأمة على مقاطعتها ، وتذكر أنها حركة صغار التلاميذ ، مدللة
 بتكسير مركبات التزام ، أخذت تقول (١) : (لم يقع ضرر يذكر فيما
 سوى ذلك . على أنه وقع بعض التعدى على جنود من البريطانيين .
 وحاول المعتدون اغتيال بعض الوزراء ثلاث مرات متوالية) .
 وما يدل على مغالطة اللجنة بله حنقها أنها كانت تريد أن
 يعمل الأمراء ما ينافى مصلحة وطنهم . فهل كانت هذه اللجنة يابنى
 تريد أن يكون الأمراء - وهم تيجان على رؤوس الأمة - أقل وطنية
 من صغار التلاميذ ، كما ادعت في تقريرها ١٤ .

هذه اللجنة التى أرادت التقليل من مكانة الحركة الوطنية ، ووصفتها بأنها
 « حركة صغار التلاميذ » كما وصفها « برونات » ، بإعاز اللورد « كرزون » (٢) ،

(١) العبارات الواردة بين الأقواس هى من نصوص تقرير لجنة ملنر .

(٢) سيجىء تفصيل ذلك في فصل « مواقف وطنية - إضراب الموظفين »

- هذه اللجنة يابنى حاولت التقرب من رأى العام المصرى بمشور أذاعته فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩١٩ تدعو فيه المصريين إلى الاتصال بها ، فلم يستمع المصريون إلى هذا الإغراء الماكر - وباءت هذه المحاولة بالفشل . إذ تراءى للشعب أن هذا لم يكن سوى « فخ » نصب لإحداث الشقاق بين الأمة وطبقاتها من جهة ، وبين الوفد الموكل عنها من جهة أخرى . وهو الوفد الذى ضم كل عناصر رجال السياسة ، وفيهم رجال الحزب الوطنى الذى أناب عنه كلا من الدكتور حافظ عفيفى ، ومحمد على علوبة ، ومصطفى النحاس . وذلك بناء على رغبة الأمير عمر طوسون الذى أقنع الحزب الوطنى بأن ينتدب من هم موضع اختياره وثقته ليكونوا حراساً على الوفد ، وحتى لا يتوجه المصريون إلى مؤتمر الصلح منقسمين . وكان تدخل الأمير عمر طوسون بناء على رجاء تقدم به إليه الدكتور محبوب والمرحوم داود بركات .

ولأنك لترى لجنة ملنر فى تقريرها - وهى تحاول التقليل من أهمية الحركة الوطنية - تقول عن هذه الحركة فى موضع آخر : (إنها بلغت حداً تخشى عواقبه!) وتقول : (وكانت حركة وطنية تؤيدها ميول جميع الطبقات والمذاهب فى الأمة المصرية . وظهرت بين أشد عناصرها تعصباً بمظهر تخريب الأملاك والمواصلات ، تخريباً منظماً ، والاستهانة بالنفوس . ولا ريب أن الوفد هو المسئول (١)) .

ولما قرأ الدكتور محبوب رأى الحكومة البريطانية فى مسألة السودان فى تقرير لجنة ملنر وفى محتويات الخطاب الموجه إلى عدلى

(١) تقصد اللجنة عبد الرحمن فهمى بك .

باشا^(١) صاح قائلاً : « محال أن نوافق على هذا وفي المصرى عرق ينبض
وللسودان وطنية وشرف وإباء وكرامة » .

وحين قرأ فى التقرير العبارة التى تقول : « يجب تعيين حاكم عام ملكى
عند سنوح أول فرصة^(٢) » ثم حين قرأ عبارة (يجب أن يكون إخلاء جانب
مصر من كل مسئولية مالية فى السودان ، وتقرير العلاقات بين البلدين فى
المستقبل) صاح مرة أخرى غاضباً وهو يقول : « محال أن يقبل
أحد ، سواء فى الخرطوم أو فى الإسكندرية أو القاهرة ، هذا الوضع
وهذا المنطق الإجرامى » . . . ثم أخذ يترنم فى حماسة قائلاً :

فلا نيل ما لم تحمه مصر حرة وتحقق رايات لها وبندود^(٣)
ثم استطرد فى حماسة فياضة : « وتالله لأنادين بخيانة كل من لا يشور فى
مصر حينما يقرأ هذا . . أريدها ثورة الإباء والشمم ، لا تلك الثورة المخربة .
أقصد يا بنى ثورة « لا ، ونعم » هذا : لا ، فلا أقبله . وهذا : نعم ، أوافق عليه .
إن مصر لا تطلب ضمان الماء ، إنما تريد أن تعود الروح إلى الجسد ، وأن يظل
الرأس فى الجسم لا ينفصل » .

ثم يقول : « ومع أنى كنت أحد رجال الوفد ، فإننى لا أتقاضى عن
المفاخرة بالحزب الوطنى ، وإلا كنت مجرمًا فى حق بلادى . . . إليك يا بنى
قيمة الحزب الوطنى فى نظر الإنجليز : إنهم يتظاهرون بنصيحة الوفد

(١) صفحة ٦٠١ من تقرير الحزب الوطنى المصادر .

(٢) صفحة ١١٢ من تقرير لجنة ملتر نشرة الحزب الوطنى .

(٣) هذا البيت من قصيدة للدكتور محبوب وقد نشر بيت هذه القصيدة
ضمن مقال ضاف بجريدة الأهرام ، ولعل القليلين من أصحاب الفقيه قد عرفوا
عنه أنه يقول الشعر ، ولكنه عزيز نادر .

- الذى كان يمثل الأمة بحق فى تلك الأيام - بطريقة لثيمة يراد بها
القضاء على الحزب الوطنى ، والقضاء عليه بمثابة القضاء على الأمة المصرية ،
والسكرامة القومية ، والروح الوطنية الصحيحة . انظر ما جاء فى تقرير
ملنر : (. . . وبما يماثل ذلك فى الأهمية ، أن تنتج مساعدكم فى مصر نتيجة . .
ونحن نعترف لكم شكراً عظيم ما فعلتموه من هذا القبيل) . . قالوا بطريقة
لوليبة مقنعة . ثم رفعوا جانباً من هذا القناع حين استرسلوا فى القول :
(ولكن من البين أنه لا يزال هناك معارضة يجب التغلب عليها ، وأن فى
مصر أناسا (يقصد الحزب الوطنى الذى يحمل لواء الجهاد الوطنى ، والداعى
دائماً إلى الحذر من الإنجليز^(١)) كثيرين لم يتشربوا روح الاتفاق ، بل
لا يزالون معادين لحسن التفاهم بين بريطانيا العظمى ومصر لسبب من
الأسباب ، فهم يرتابون فى نيات هذه البلاد (يقصد إنجلترا) أو يدعون
ذلك ، غير مدركين مقدار السخاء الذى تقابل به بريطانيا العظمى أمانى
الشعب المصرى ، وإنكم تهديدكم سوء التفاهم ، وغرسكم حسن الظن
فى النفوس . . .) . وهنا صاح الدكتور محبوب قائلاً : « كذبوا ، فهم
يدعوننا إلى الانتحار^(٢) » . . . وكان سعد فى رده على هذا قوياً ، .
ومضى الدكتور محبوب فى حديثه يقول : « بمجرد أن قرأت
نص التفويض الملقى - الذى أحطنا به علماً بطريقة سرية قبل مجئ
اللجنة - قررنا مقاطعتها بكل قوة ، مع استنكار نص التفويض . فقد
جاء هذا النص واضح الإذلال للسكرامة المصرية ، والسخرية من
عواطف المصريين ، واستنكار حقهم فى المطالبة بالاستقلال التام .

(١) ص ١١٩ من التقرير .

(٢) راجع هذا التقرير بإمعان أيها المصرى .

فهو يقول بالنص إنها جاءت لـ (تحقيق أسباب الاضطرابات التي حدثت أخيراً في القطر المصري ، وتقديم تقرير عن الحالة الحاضرة في تلك البلاد) (أى مصر) ، وعن شكل القانون النظامى الذى يعد تحت الحماية خير دستور لترقية أسباب السلام واليسر والرخاء ، ولتوسيع نطاق الحكم الذاتى فيها توسيعاً دائماً للتقدم والترقى ، ولحماية المصالح الأجنبية ..)

ولنعطى فكرة صحيحة ، لابد لنا من أن نلخص هذا التقرير الطويل الملىء بالمغالطات الإنجليزية . هذا التقرير الذى يجب على كل مصرى يجرى في عروقه الدم المصرى الشريف أن يطلع عليه ويتمعن فيه ، ويتدبر معانيه ، ومرامييه ، والذى يجب على كل وطنى أن يشكر من أعماق قلبه الحزب الوطنى الذى نشره ، وأن يعترف له بالفضل والجليل الكريم (١) .

موجز عمل لجنة ملنر في مصر

ومختصر لتقريرها

استهلت اللجنة تقريرها بقولها : (كانت حكومة جلالة الملك تفكر في إرسال لجنة خصوصية إلى مصر منذ شهر أبريل سنة ١٩١٩ لما تفاقم الخطر في تلك البلاد وحتى ظهر بمظهر العنف والتعدى والإخلال

(١) ظهر هذا التقرير في يوم الأحد ٢٠ فبراير سنة ١٩٢١ وقد نشره الحزب الوطنى — مترجماً إلى العربية — على نفقته الخاصة ، ووزع في القطر المصرى ليحذر الأمة . وقد صودر وانتزع من أيدي الذين يحملونه . - وأخذ المؤلف النسخة الوحيدة من الدكتور محجوب ثابت بعد إلحاح شديد ، لأمر ما كان يعلمه غير الله ...

بالنظام في شهر مايو التالي ، أعلن أن لجنة كهذه ستسافر إلى بر مصر
برئاسة اللورد ملنز في فصل الخريف ، فجاهر المصريون الوطنيون
بعزمهم على مايلزم لمقاطعة تلك اللجنة . واشتد عزمهم كثيراً باحتجاج
محمد سعيد باشا رئيس الوزراء حينئذ على مجيء اللجنة) .

وبعد أن تكلمت اللجنة عن الوزراء الذين كانوا مهددين في
حياتهم ... وأنهم اتخذوا الاحتياطات الشديدة للمحافظة على حياة
أعضاء اللجنة - أيضاً - نظراً إلى روح العداء وبعد أن تكلمت
اللجنة عن مقابلتها لعظمة السلطان ، ثم عن المكافحة العدائية التي قوبلت
بها ، وعن شدة الحركة الوطنية ، وبعد أن حاولت في سياق حديثها ،
أن تقلل من أهمية الثورة المصرية بزعج كلمات « صنية المدارس » و « الرعاع » ،
راحت تعترف مرغمة بأنها (تلقت تلغرافات الاحتجاج من الموظفين
وأعضاء الهيئات النيابية ، والمظاهرات التي قوبلت بها ، والتي اشترك
فيها السيدات اللاتي برزن من أخيهن ، والعداء الشديد الذي كان
يقابل به كل عضو منها) وبعد أن تخطت في التدليل واستنتاج
« أسباب القلق والاضطراب » ، ثم بعد أن غالطت كثيراً في عبارات
لوائية ، اعترفت (بقوة الحركة الوطنية وسيلها الجارف) . ثم إذا بها
تحاول الانتقاص من أهميتها بذكر « الرعاع » و « صغار التلاميذ » ، وإذا بها
تعترف مرغمة بـ (ضروب العدوان التي قوبلت بها ، وأنواع المقاومات
للغاية التي جاءت من أجلها اللجنة) وإذا بها تعترف بجدية الحركة
الوطنية ، فتقول : (ففي الأسبوع التالي من وصولنا ، أرسل علماء الجامع

الأزهر ، الذى هو معهد التعليم للدين الإسلامى ، منشوراً إلى المعتمد السامى البريطانى ، أبانوا فيه حقوق مصر فى طلب استقلالها ، وطلبوا خروج البريطانيين من البلاد) .

قال الدكتور : « أرادت لجنة ملز - متخبطة فى مزاعمها ومضللة - أن تدخل فى روع حكومتها ، بعد أن خدعت نفسها « أن العلماء الذين وقعوا على المنشور ، لم يكونوا يهونون ركوب ذلك المركب السياسى ، إنما ركبوه إذعاناً لضغط الأساتذة والتلاميذ » .

وكانت الثورة فى نظر لجنة ملز هى ثورة صغار التلاميذ . لم تتورع اللجنة فى إعطاء الثورة هذا الوصف فى عديد الصفحات . فلما قام العلماء بواجبهم الوطنى راحت تزعم أنهم وقعوا تحت تأثير ضغط الأساتذة والتلاميذ ، ولم تبين لنا الفرق بين الأساتذة والعلماء ! والمعروف البديهي أن الأساتذة هم العلماء .

قال : « ولما فوجئت لجنة ملز ببيانات أمراء البيت المالك سلالة محمد على الكبير ، مجدد مصر وقائد نهضتها الحديثة ، ورأت منهم احتجاجهم الوطنى الحماسى ، أخذت تغمز وطنيتهم ، حاملة عليهم مدعية أنه « لا يبعد أن يكون الأمراء قد فعلوا ذلك لأسباب مختلفة (كذا) ولكن لاريب فى أن السبب الأكبر منها هو رغبة الأمراء فى اكتساب حب الجماهير لهم ، بانحيازهم إلى حركة طغت على البلاد حيثئذ كالسيل الجارف »

اعترفت لجنة ملز رغم أنفها بقوة الحركة الوطنية فيما تقدم من النصوص ، وأخذت تجرح العلماء والأمراء ، ثم راحت تتخبط فى

مزاعمها . فهل كانت تريد أن يمالئ الأُمراء والعلماء والموظفون المجترأ ؟ إن كل من يراجع تقرير لجنة ملنز ، يرى أن هذه اللجنة قد ملأت تقريرها بالمغالطات والمتناقضات ، فبينما تعترف بقوة الحركة الوطنية في سطر ، وأن مركز اللجنة كان دائماً تحت مراقبة حراس خفيين من المعارضين - تقصد الوطنيين ، أى الأُمة كلها - فلم يك مصرى ذو شأن يزورها حتى يُسلِّغ خبره إلى الصحف حالا ، فتحمل عليه بالإنداز ، وترسل إليه بالوعيد كأنه ارتكب جريمة . ثم يقصد ذلك المجرم جماعة من التلامذة إلى منزله يستفسرون عن سلوكه هذا ، فينتهى الأمر غالباً بأن يطنب في صحبة تمسكه بالعقيدة الوطنية وتبرئته من الخروج بكلمة عن حدود هذه العقيدة في حديثه مع اللجنة) .

وإلى هنا تنحطت اللجنة مغيظة محنقة ، فزعمت أنه (لم يشذ عن ذلك إلا واحد أو اثنان من ذوى الشجاعة الأدبية الذين أفهموا أولئك الفضوليين ألا يتعرضوا لشؤونهم ، ولا يسألوهم عما لا يعنهم^(١)) .

ها هى ذى لجنة ملنز بينا تصف قوة الوطنية المصرية واستحالة اتصالها بالرأى العام ، تنعت جنود الوطن بالفضوليين^{١١} .

استمع أيها المصرى لقول اللجنة (فى صفحة ١٠ نفسها من التقرير)

(١) المؤلف : أؤكد تأكيذاً قاطعاً أن لجنة ملنز لم تكن صادقة فى هذا الادعاء . ذلك أنه لم يكن أحد ليستطيع أن يواجه جنود عبد الرحمن فهمي بمثل ما زعمته اللجنة . وإنى أعلم أن كل من كان موضع الشبهة وعمل أقل رتبة كان يؤمر بعدم مغادرة منزله ، وتلك كانت خطة منفذة مدة وجود أعضاء اللجنة فى القطر المصرى . فما كان أروع ذكرى هذه الوطنية .

تقول: (كانوا يستقصون حركات أعضاء اللجنة بمزيد الحرص والدقة ، ولا سيما متى سافر واحد منا إلى الأرياف ، فيرسلون الرسل حالا من مصر ليقتفوا خطواتنا ، ويسعوا في منعنا من الوصول إلى الأهالي) .
أبعد هذا دليل على قوة الروح الوطني ؟
هنا يقول الدكتور محجوب متغنياً بالذكرى :
— إن ما قالته لجنة ملنر في هذا التلخيص الذي ألخصه لك ، كان هو دعايتنا ، وقد نجحنا ... وتلك كانت وطنيتنا ، وهذه هي نهايتنا ...
وستكون هي الابتداء !!! ولعل بعض الناشئين ، بل أكثرهم لا يعرفون ما هي لجنة ملنر ، وهوية ملنر نفسه (١) .

(١) قال الدكتور وكان شوق بك لم يزل حاضرا يستمع إلى إفاضته ويخزن في جعبته : د عقب صدور لجنة تقرير ملنر بادرت بكتابة احتجاج شديد اللهجة ، وأرسلته إلى رئيس اللجنة وإلى وزارة خارجية إنجلترا . ثم أخذت أخطب في المنتديات مفنداً ما جاء في التقرير كما قلته لك ،

مواقف وطنية

مواقف وطنية

الدكتور محجوب وإضراب الموظفين

إنها لذكريات مرة باكية . ثم هي بهيجة ضاحكة ، تطل علينا أطيافها من الماضي البعيد ، فنقرأ فيها صفحة مجيدة من الوطنية الحارة ، والثوران الفدائي الملهب ، يوم كانت الأمة المصرية تواجه خصماً واحداً « هو الإنجليز » ، وتهتف وتترنم بمطلب واحد « هو الاستقلال » ، وتمشى إلى ساحة الجهاد صفّاً واحداً ، ينشد الحرية ، ويبذل فيها غاليات الأرواح ، وكرائم النفوس ، ومدخرات الأموال ، وفلذات الأكل .

إنها كانت أعنف سنى الحركة الوطنية ، وأروع وقت تجلّى فيه الوعي القومى ، وأجند موقف مشرف اجتمعت فيه جميع طبقات الأمة كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، لا فرق بين كبير وصغير ، وغنى وفقير ، وأمير وخفير ، ومسلم ومسيحى .

فى ذلك الوقت الذى كان فيه كل مصرى - وكل مصرية - قد آلى على نفسه لينال الاستقلال .. بل ليأخذنه أخذاً قوياً ، تهون فيه الدماء ، ويرخص الفداء ، وتبذل فيه النفوس الأبيات ، والأرواح الغاليات . . .

فى ذلك الوقت الذى بهر المصريون فيه عيون العالم كله ، وقام أبناء النيل على بكرة أبيهم قومة الرجل الواحد . . .

في ذلك الوقت الذي أخذت فيه الأمم الشرقية ، وبعض الأمم العربية ، من مصر قدوة صالحة في الجهاد ، وعلى دربها شدت رحالها إلى طريق الحرية والكرامة .

في ذلك الوقت الذي فزع فيه الإنجليز من الثورة المصرية . .
في ذلك الوقت أراد فيه اللورد كرزون^(١) ، أن يقلل من مكانة ثورتنا أمام العالم الأوربي عامة ، كما حاول العبث بهذه الثورة لدى

(١) في قصيدة أمير الشعراء شوقي بك عن توت عنخ أمون التي يفاخر فيها بما لمصر من مجد تليد ، وليقت أنظار المؤتمرين إلى عظمة مصر أم المدينيات ، وهي التي تعاني قسوة الاحتلال البريطاني ، وجه عتاباً مرأى إلى الأمم الأوربية التي أشاح مندوبوها بوجوههم عن وفد مصر ... والتي يقول فيها مخاطباً توت عنخ أمون المبعوث من قبره :

خرجت من القبور خروج عيسى عليك جلالة في العالمينا
يحوب البرق باسمك كل سهل ويخترق البخار به الحزونا
وأقسم كنت في لوزان شغلا وكنت عجيبه المتفاوضينا
أعلم أنهم صلفوا وتاهوا وصدوا الباب عنا موصدنا ؟
ولو كنا نجرّ هناك سيفاً وجدنا عندهم عطقاً وليناً

في هذه القصيدة يندد شوقي بموقف كرزون فيقول :

سيقضى كرزن بالأمر عنا وحاجات الكنانة ما قضينا

وبما يحسن ذكره في هذه المناسبة عن توت عنخ أمون قول أمير الشعراء في أرجوزة كبيرة :

لحدك ودته النجوم لحدّها أرئنا الدنيا به وجدّها
سلطانها وعزّها ورغدّها وكيف يعطى المتقنون خلدّها
مصر الفتاة بلغت أشدّها وأثبت الدم الركيّ رشدّها

الرأى العام البريطانى خاصة . ثم جاهد فى فرساي ولوزان حتى حمل أعضاء مؤتمر الصلح على إىصاد أبوابه فى وجه الوفد المصرى الموكل من قبل الأمة لعرض القضية فى مؤتمر طُنَّ أنه عقد لتنفيذ حرية الشعوب وفقاً لمبادئ ولسون التى طالما تغنوا بها إبان الحرب . وقد نجح كرزون فى حمل المؤتمرين على عدم الموافقة على دخول وفد مصر فيه . ولكن نجاح كرزون فى هذا لم يدخل اليأس فى قلوب المصريين ، ولم يفتَّ فى عضدهم . بل اشتدت الحركة الوطنية قوة ، وزادت الثورة اشتعالا ، واستمات الشعب فى الجهاد العنيف ، وبذل الأرواح قرباناً للوطن .

سقط فى يد كروزن أمام هذا التيار الجارف والثورة الجالحة . ولكنه عاند الحق وكابر ، وصرح فى صلف بأن « الثورة المصرية

وفى مثل هذه المفاخر يترنم شوقى بقوله :

جدت حوى ما ضاق غمدان به من هالة الملك الجسيم وغابه
بنيان عمران وصرح حضارة فى القبر يلتقيان فى أطنا به
قترى الزمان هناك قبل مشيبه مثل الزمان اليوم بعد شبابه
ونُحسَّ ثمَّ العلم عند عبابه تحت الثرى والفن عند عجا به
ثم انتقل إلى مخاطبة كارنارفون :

نوهت فى الدنيا به ورفعته فوق الأديم بطاحه وهضابه
أخرجت من قبر كتاب حضارة الفن والإعجاز من أبوابه
فصلته فالبرق فى إيجازه يبنى البريد عليه فى إطنابه
طلعا على (لوزان) والدنيا بها وعلى (المحيط) وما وراء عبابه
جئت الشعوب المحسنين بشافع من مثل متقن فهم ولبابه
فرفعت ركننا للقضية لم يكن (سحبان) يرفعه بسحر خطابه

ما هي إلا حركة صغار التلاميذ ، وهي شعلة سأطفئها ببصقة ، ولا تنس أن برونيات هو الذي قال هذه الألفاظ النابية لرشدى باشا الذى ألقى عليه درساً قاسياً فى اللياقة وأدب الخطاب . ثم زعم أن الحركة الاستقلالية ثورة غير جادة ، لأن الموظفين - وهم أرشد عنصر فى مصر - لم يساهموا فيها ، ولم يستجيبوا للدعاة الإضراب ، وادّأن الأقباط لم يشتركوا فيها ، افكان رد الأقباط رائعاً وحاسماً ، ذلك أنهم أمعنوا فى البذل للوطن ، وخرج القسس والرهبان ينافسون المشايخ والعلماء فى الخطابة فى المساجد والكنائس (١) والمجتمعات والمنتديات العامة ، يحرضون على الثورة ، وينادون بالاستقلال التام لمصر والسودان ، وأن الوطن للجميع والدين للديان - والله أكبر - المسيحيّ مسيحيّ فى كنيسته ، والمسلم مسلم فى مسجده ، وكلهم بعد ذلك أبناء لوطن واحد . . .

تلك صورة موجزة . .

وهنا يحىء دور الدكتور محبوب ووثبته القوية ، وحركته الدائمة وجهاده المستمر المتصل الحلقات ، واشتراكه البارز فى حركة إضراب الموظفين ، وهو الذنب الذى لم يغتفر له ، وحوسب عليه - فيما بعد - فى رزقه ومستقبله ، جناه ثمناً مرأاً من الإنجليز المحليين ، على أنه لم يندم ولم يسخط ، بل كان يذكر جهاده مستريح الضمير ، لأنه لم ين همة ، ولم يأل جهداً فى الجهاد . لقد كان محبوب من أصحاب الدور الأول فى الدعوة إلى الجهاد ، وفى الرد على مزاعم اللورد كرزون ، رداً عملياً ناجزاً . هو أن يتخذ

(١) قال المرحوم الشيخ إبراهيم سليمان فى قصيدة له :

الشيخ والقسيس قسيسان وإن تشأ فقل هما شيخان

الموظفون يوماً يحددونه للإضراب العام الشامل عن العمل في جميع أنحاء القطر . على أن تتناول حركة الإضراب جميع المصالح الحكومية ، لا يشذ عنها مستشار أو وزير أو قاض أو مهندس أو طبيب أو مدرس .

* * *

أقام محبوب نفسه محور ارتكاز ، ونقطة اتصال بين بعض كبار الموظفين في القاهرة ، وبين موظفي الأقاليم ، وكان له عيونه ورسله . وقد رأيت أنه وهو يغادر عيادته في حي السيدة زينب ويحجب أنحاء العاصمة ، ويتصل بالموظفين على اختلاف مراكزهم ، في منازلهم ، داعياً إلى الإضراب في اليوم المحدد ، دائب الاتصال بسكرتير لجنة الوفد المركزية ، سيد الشهداء المجاهدين « عبد الرحمن فهمي بك » ، وخير من حمل القلم وأدى الأمانة الشهيد « أمين الرافعي بك » ، ومحمود سليمان باشا شيخ الحركة الوقور . وقد كان يعاونه في هذه الاتصالات الوطني « عبد الله سليمان أباطه بك » ، العامل الصامت الذي لم يعلن عن جهاده ، فلم يستزع الأنظار .

وكان أهم عمل قام به عبد الله بك هو الاتصال بموظفي الأقاليم ، غير أن العيون المبسوطة على المجاهدين لم تنتبه إليه .

* * *

كانت حركة محبوب كفيلة بالنجاح ، وإصابة الهدف في صميم الدعاية المصرية المضادة للدعاية الإنجليزية ، في الخارج والداخل ، وكان يراقب الحركة التي يبتثها عن كذب ، فيعمل على تنفيذها ، ويوجهها عن أمم ، ويتطلع إلى انسياب تيارها ، قوى الثقة في مدى تغلغلها

في أوساط الموظفين ...

وهنا لابد لنا من ذكر بعض الأحوال التي لا بدت دعاية محبوب ، واقتربت بها - تثبتها للحقيقة والتاريخ - حتى لا ينكر فضل أحد من المجاهدين غير محبوب ، فنقول منصفين : إنه لما ترامت أنباء حركة الإضراب إلى المغفور له حسين رشدي باشا ، ناظر النظار ، (أى رئيس الحكومة وقتئذ) أوفد رسولا إلى الدكتور محبوب ينصحه بالتزام الهدوء والعدول عن الدعوة إلى الإضراب ، لأن هذه الحركة ضارة ، وستعرقل أعمال الحكومة وتعوقها عن السعى في سبيل الاستقلال ، فلم يقبل محبوب النصيحة ولم يُجِدْ معه المحاولة ، بل ظل على نشاطه ، متصلاً ببعض زعماء الحركة لتدعيم الإضراب .

ولما عاد إليه رسول رشدي باشا (١) مرة أخرى انتهره قائلاً : « عد إلى سيدك وقل له افعل ما تشاء ، . . ودأب على الاتصال بزعماء

(١) قال لي الدكتور فيما بعد : إن حسين رشدي باشا لم يكن جاداً في محاولة حمل الموظفين على عدم الإضراب ، إنما كانت أوامره صورية ذراً للرماد في العيون المبثوثة في مختلف المصالح من أمثال عبد الله صفيح بك (باشا) وغيره من بعض المتمصرين . وكان من المعلوم أن العميد البريطاني قدم تبليغاً إلى الحكومة المصرية يطالب فيه بوجود وقف لإضراب الموظفين . لذلك كان رشدي يصدر أوامر علنية ، ويوفد رسلاً إلى كبار الموظفين يطالبهم بعدم السير في طريق الإضراب ، ويحذرهم من عاقبة النتائج التي سترتب على الإضراب ، ولكنه كان يغذي حركة الإضراب سراً .

ولاتنس يابني أن رشدي باشا انتهر المستر برونيات حينما أراد أن يقلل من مكانة الثورة المصرية فيصفها بإيحاء كرزون بأنها « حركة صغار

الحركة لتدعيم نظام الإضراب العام الشامل .

وقد كانت أمكنة الاتصال والاجتماع « في الخفاء » ، موزعة بين طائفة من البيوتات السكرية لتضليل الرقباء ، وكانت أهم معاقل هذه الاجتماعات السرية منازل كل من الأستاذ إبراهيم دسوقي أباطه (باشا) (١) ومنزل عبد الهادي الجندى بك (باشا) (٢) ومنزل مراد الشريعى بك .

التلاميذ الخ ، ... ثم طرده من مكتبه (وكذلك روى لى محمد إبراهيم هلال بك) أن رشدى باشا كان يصدر الأوامر العلنية ، ويوفد رسله إلى كبار الموظفين من أناس ثانويين ليقلل من أهمية الأوامر التي كانت تصدر منه علناً ، ليسمعها الذين كانوا يسمعون كل ما يقال ويعدون أنفاس المصريين في المصالح الحكومية ويحسون حركاتهم . وهم من عنصر غير مصرى ، ولكنهم محسوبون على مصر ، يشغلون فيها مراكز حكومية . ومنهم المولود في مصر ليس له وطن غيرها ، نبثوا فيها كما تنبت الحشائش الطفيلية ...

وقال محبوب : إنى عرفت وتحققت وتيقنت ووثقت أن رشدى باشا كان يؤدي مهمة وطنية ويقوم بدور في الحركة الوطنية يجب أن يسجل ويعرف . وهذا واجب الأحياء نحو الراحلين .

(١) إبراهيم دسوقي أباطه (باشا) كان أول موظف قدم استقالته احتجاجاً على ضرب القرى المصرية بالمدافع . وحمل حمدي سيف النصر بك (باشا) على تقديم استقالته - وكان مديراً للجيزة - بعد ما نكل بأرمنى كان يعمل في الجيش البريطاني كضابط ! وأساء إلى المصريين إساءات شتى ، وظل الأستاذ دسوقي يتربص به ، ويبتث العيون حوله ، ويجمع الأدلة ضده ، إلى أن ضبطه متلبساً بتهمة شائنة . وكانت استقالة الأستاذ دسوقي حديث الخاص والعام (قد تجد تفصيلها في مذكرات الدكتور محبوب) .

(٢) كان عبد الهادي الجندى بك رئيساً لنياطة طنطا ؛ وهو الذى قام بالتحقيق في قضية الاتفاق الجنائى ، ثم اختاره المرحوم عبد الخالق ثروت باشا رئيساً

وهنا تهتف بنا أصوات مدوية من ذكريات الماضي المجيد ،
وتهيب بنا أن نذكر طائفة من أسماء أبطال الوطن ، ومنهم المنكور فضيلهم ،
ومنهم المجهول جهادهم ، في تلك المعركة الوطنية . فنجد في أبرز مكان
اسمى الصاحبين الحميمين « أحمد ماهر »^(١) ومحمود فهمى النقراشى ، والطالب
الخطيب المؤثر « شكرى كيرشاه » الذى كان يخليل إلينا وهو يخطب
- داعياً إلى الإضراب لتفتيد مزاعم اللورد كرزون - أن النار

للجنة التحقيقات السياسية ، ثقة منه به ، وتقديرآ لكفاءته . وتلك حسنة
من حسنات ثروت باشا . وقد جنى ثمرها كثيرون من الوطنيين حيث رد عنهم
كيد الكائدين الذين لفقوا ضدّهم التهم الكاذبة ، وأثبت براءتهم . وكان في
عمله هذا لا يفرق بين شخص وآخر بل كان المثل الأعلى للقاضى العادل ، والمحقق
المدقق النزبه والمستشار الذى لم يجعل لأحد عليه سلطاناً غير سلطان القانون .
وكان فوق نزاهته رحيماً وكثيراً ما كان يدفع لخزانة المحكمة من جيبه الخاص
الكفالة المالية التى يقررها ، وكان قبل أن يصدر قراره بحبس متهم يفكر
طويلاً . . . ولقد كان حقاً وطنياً شجاعاً ، وكان كريماً أريحياً .

(١) أحمد ماهر باشا والمؤلف ؟

نشرت جريدة الوادى بتاريخ ١٢ أبريل سنة ١٩٤٥ ما يلى :

« الزعيم أحمد ماهر »

« الأستاذ صالح عيسى السودانى من المجاهدين المبكرين فى الحركة الوطنية .
والمؤرخ لحوادثها وأحداثها ، مطلع على دخالها وأسرار زعمائها . وقد كانت فجعية
البلاد بموت الزعيم أحمد ماهر من العوامل التى أثارت وجدانه ، فكتب هذه الكلمة
فى مذكراته عن الفقيه ، وهو لم يكن من حزبته ولا من التابعين لمعسكره . ولكنّه
كتب عنه مخلصاً . فآثرنا أن ننشر هذه الكلمة ، لنعطى صورة عن مدى ما كان
للفقيه « أحمد ماهر » من مكانة فى نفوس الذين لا ينتمون إلى حزبه السياسى ،
« الجريدة »

والدخان يخرجان من فيه . والأستاذ الشاعر كامل السكيلاني ، والأستاذ
لطفى المسلى ، وقعيد كرسى الخطابة بالأزهر .

كلمة المؤلف :

« هل يريد الله لمصر أن تشقى بموت أحمد ماهر ؟
لو أن المفتون المجرم الأثيم صوب مسدسه إلى صدر خائن ما حمدنا له أن
يكون خصماً وحكماً ومنغذاً ، وما رضينا خيائته وغدره وجبنه ورعوثته .
ولكن المجرم قتل الأمان القوي في أمانته ، العظيم في وطنيته ، الشريف في
تسامحه ، ومقصده ، وشرف قصده ، وبعد نظره ، وجه لمصر : ملكاً وشعباً .
فيالجد مصر العائر ، ويا لسوء حظ مصر الثاكلة الحزينة على أبر أبنائها
وأشرف زعمائها .
ولكن « لكل أجل كتاب » ... فاللهم لمصر صبراً .
اللهم « لكل أجل كتاب » .

مات أحمد ماهر رمز المجد ، عنوان الخلق ، مثال الشرف ، صنو العظمة
الوطنية . مات في ظرفنا الحرج ، وموقفنا المحرج . كان لمصر الربان الماهر ،
والمتمساح القاهر .

أكان هذا يومه ليوم مقتولا ؟ في وقت كان الوطن الحزين أحوج ما يكون
فيه إلى وطنيته وإخلاصه ووافر تسامحه ! . ولكن « لكل أجل كتاب » .
تلك تعزيتنا إلى حد ما .

كانت العين جامدة ، فإذا بها تلين . وكان الدمع عصياً ، فإذا به يطيع ، ثم ينهمر
ماء صافياً ، ثم دماً قانياً من صميم القلب حاراً ، ثم من الكبد ناراً وجهاً .
كنت أظنني كاتباً ، وفي القليل أديباً ، وعلى الأقل واصفاً . فلما فاجأني نبأ
الطامة الكبرى والمصيبة العظمى ، وجدتني مذهولاً ، ثم مصعوقاً .
اللهم ارحم ماهرآ ، وارحمنا .

لا حزن إلا دون ما أجد وهل كمن فقدت عيناي مفتقد ؟
لا يبعدن هالك كانت منيته كما هوى من غطاء الزية الأسد

وغيرهم لم تع الذاكرة أسماءهم جميعاً ، أولئك الأبطال الذين ملأوا
ساحة الجهاد الوطنى بالجهاد العنيف ، وأروع الذكريات ، وأسخرى

وأصبح الناس فوضى يعجبون له ليشأ صريعاً تنزى حوله النقد
إذا بكيت فإن الدمع منهم وإن ونيت فإن القول مطرد
عرفت الفقيد عقب الحركة الوطنية الثالثة سنة ١٩١٨ - سنة ١٩١٩ إلخ
د باعتبار الحركة الوطنية الأولى : ثورة أحمد عرابى باشا . والثانية : هى نهضة
المغفور له مصطفى كامل باشا مؤسس الحزب الوطنى . والثالثة : حركة سنة ١٩١٩ .
أذكر هذا من قبيل الانصاف المحض .

وقابلته فى السجن ، فى حادث مقتل السير لى ستاك باشا . فكان رحمه الله يحينى
وأحييه . على أنى كنت ألمس فيه الشجاعة مصحوبة بالاطمئنان .
وعقب موقف معين لى مع كبير من المحققين (يعرفه جميع الذين اتهموا فى
هذا الحادث) أرسل الفقيد لى أحد المسجونين بتهنئة حارة ، لن أنسى معناها .
ولايكم ما يدل على ما جبل عليه الفقيد من التسامح واحترامه لرأى غيره ،
مهما كان مخالفاً لرأيه .

قابلنى فى المرة الثانية صدفة ، وأنا أطلع مقالة كان قد دمجها يراعه حينما كان
يشرف على تحرير « كوكب الشرق » ، فسألنى رأى فيها ، فوقفت موقف المفند
لما جاء فى مقاله من آراء . وإذا به يبتسم ابتسامة الرضا ، ويقول لى : « لى أحترم
نفسيتك الناقمة ، وآرامك الثائرة ، وإنه ليسرنى أن أجد من يجابهنى بحقيقة رأيه
بلا مجاملة ولا رياء .

وهذه النزعة فيه على غير نفسيات غيره من الزعماء الذين تعودنا منهم الحقد
على كل من لا يطاوعهم ولا يقف موقف المروج لأقوالهم مهما كانت
مجاوبة للحق .

والمرة الثالثة كان قد تلقى الفقيد منى معلومات لم يحن الألوان بعد لنشرها
على الملأ ، فأرسل لى من يستدعنى لمقابلته شخصياً . ولست أنسى أنه قابلنى فى
جيبى قبلة الإخلاص والتقدير والوفاء الوطنى .

التضحيات ، وأشرف المواقف .

لقد بيّث الموظفون أمرهم ، وصمموا على الإضراب ، وحددوا يومهم ، وقالوا : « فليكن بعد ذلك ما يكون » . ومع أن رسول رشدى باشا فشل فى مأموريته ، فإن دولته أوفده إلى الشخصيات الكبيرة من الموظفين يستدعيهم لمقابلته ، وكان على رأسهم على ماهر بك (صاحب المقام الرفيع) ، وقد رفض رفضاً باتاً أن يتوجه لمقابلة رئيس الحكومة ، ومحمد حلى عيسى بك (باشا) ، وزكى العرابى أفندى (باشا) ، وعبد الحميد مصطفى بك (باشا) ، وصادق حنين (باشا) وأحمد شرف الدين أفندى (بك) ، وعاطف بركات (باشا) ، وغيرهم من رؤساء الإدارات وزعماء حركة الإضراب .

وكان سبب إضراب الموظفين - كما ذكرنا - تصريح اللورد كرزون الذى يتلخص فى : « أن شعور الموظفين مع الإنجليز ، ولذلك لم يشتركوا فى حركة الإضراب . وشعور الأقباط ضد الاستقلال » . وكانت النتيجة أن الموظفين أضربوا ، والأقباط ضاعفوا التضحية .

والمرة الرابعة فى «كلوب محمد على» قبيل اعتقاله بساعة فى عهد الوزارة النحاسية الأخيرة .

وكذلك لن أنسى ما دار بينى وبينه من حديث قوى لم يحن حين الإفضاء به إلى الناس ..

رحم الله «أحمد ماهر» وأجزل له الجزاء لما أدى للوطن من شجابه وجهاده ودمه ...

صالح على عيسى السورائى

فكانت مقالات سينوت حنا بك : « الوطنية ديننا ، والاستقلال حياتنا » .
ومذكرة الأستاذ مكرم عبيد (باشا) تلك المذكرة الرائعة القوية البليغة .
وخطب القمص سرجيوس ، والآب بولس غبريال والآب إلياس .
وإصرار الموظفين على إظهار شعورهم ، وأن يقيموا حجتهم قوية على
أنهم وطنيون مصريون ، يشاركون أبناء وطنهم في السراء والضراء ،
وأنهم أول من يطالب بالاستقلال ، وأنهم حقاً أرشد طبقات الأمة .
لذلك نجح الإضراب في سائر المصالح الحكومية ، في جميع أنحاء
القطر ، ودام أكثر من أسبوعين .

فلما تلقى رشدى باشا التبليغ الشفوى من العميد البريطانى ،
استدعى إليه زعماء الإضراب ، الذين ذكرنا أسماءهم ، فأجابوه ، إلا
« على ماهر بك » ، فقد رفض رفضاً باتاً لإجابة الدعوة كما ذكرنا آنفاً .
وخطبهم رشدى باشا بقوله : « إن الإضراب وخيم العاقبة ،
ومعطل لمصالح الأمة ، وأنتم أنبأى ، (يشير إلى أنه كان وزيراً على
أغلبهم فوق رياسته للوزارة) إلى أخشى أن يفلت زمام الأمر من
أيديكم فتسوء العاقبة » . فأبى الزعماء فى أدب أن يصغوا إلى نصيحة
رئيسهم ، ليتحقق القصد الذى هدفوا إليه ، وهو إعلان اللورد كرزون
أن : « جميع الموظفين وطيون محبون لوطنهم » . ولم يقفوا عند هذا
الحد بل اشترطوا فى تصميم وعناد أن تعتزل النظارة (الوزارة) الحكم .
ويجب الاعتراف بالفضل فى هذا المقام لرجال الوزارة ، لأنهم قبلوا
طلب الموظفين واشترطوا مقابل ذلك - من باب الرعاية لمصلحة
الجمهور - أن يعود الموظفون لعملهم حتى لا تتعطل مصالح الناس ، وقبل

الرؤساء ذلك منهم . وأطلعهم النظار على نص كتاب الاستقالة ، قبل ذهابهم إلى عظمة السلطان (الملك فؤاد) لتقديمها إلى عظمته . بعد أن أخبروهم أنهم مصرون على الاستقالة مهما تكن الظروف . وفعلاً تم قبولها . وعندئذ أوعز زعماء الحركة إلى الموظفين أن يعودوا إلى عملهم تحقيقاً لما تم عليه الاتفاق . وقد كان ...

وبهذه المناسبة يجب أيضاً أن نذكر فضلاً آخر لوزارة ذلك العهد التي كان رائدها الروح الوطني الخالص ، وهو أنه : لما طلب الإنجليز من الوزارة اعتقال زعماء الحركة ونفيهم بقصد إخماد فكرة الإضراب ، أبت الوزارة قائلة لهم : « إن رؤساء الإضراب هم زهرة الشبيبة المصرية ، فلا نقبل أن يهانوا ، ولا نستطيع تحمل مسئولية اعتقال زعماء الحركة ، وإذا عنّ لقوة أجنبية أن تعتقلهم ، فسنكون نحن في مقدمة الثائرين » .

تضامن وطني رائع

وحينما قررت الحكومة ، بإصرار اللورد ألنبي ، أن تقطع مرتبات الموظفين عن مدة إضرابهم كلها قبلوا ذلك في حماسة بالغة ، واشتدوا أن لا يعامل صغار الموظفين مثل معاملتهم ، فتأني صغار الموظفين وأبوا أن يكونوا أقل وطنية من رؤسائهم . . . ولكن الرؤساء أقنعوهم أخيراً بقبول قطع المرتبات عن نصف المدة .

أرأيت أروع من هذا التنافس على المفاداة تقوم بين كبار الموظفين وصغارهم ، الكبار يشفقون على مرؤسيهم ، فلا يريدون لهم ظملاً ؛ والمرءوسون يصرون على أن تسكون تضحياتهم نمائلاً لتضحية الرؤساء ،

أربعة عشر يوماً كاملة ، لأنها تضحية مبذولة في سبيل الوطن .

ظل رشدى باشا يواصل الاتصال بكبار الموظفين ورؤساء المصالح في منازلهم . وكان الدكتور محبوب في الوقت الذى كان يتصل فيه بهم رسول رشدى باشا ، ممعناً في مطاردة ذلك الرسول ، فلما أتى هذا على آخر رحلته من الطواف ، انتهى إلى داره بمصر الجديدة ، إذا بالدكتور محبوب يطرق عليه بابه ، ويدعوه لمقابلته عاجلاً . وكان استدعاء الدكتور لمثل هذا الرسول في تلك الأيام بمثابة أمر واجب التنفيذ وإلا ...

فلما أن قابله ، قال له الدكتور محبوب - ولم يك عالماً بحقيقة نيات رشدى باشا الوطنية : « ماذا قال لك رشدى باشا لتبلغه إلى زعماء الحركة ؟ وماذا كان رد الذين اتصلت بهم ؟ » فأجابه الرسول : « كل الذين اتصلت بهم رفضوا العدول عن الإضراب ، وقالوا لأنهم لا بد أن يردوا على « كرزون » و « برونات » رداً فيه إظهار لكرامة الموظفين ومقدار وطنيتهم » . فانتشى الدكتور محبوب فرحاً بتغلغل روح الإضراب في نفوس الموظفين .

لقد كان إضراب الموظفين من المواقف الحاسمة في تاريخ الحركة الوطنية السكرية ، وهى مقترنة بصفحة من جهاد محبوب في فجر تلك الأيام الثائرة ، نمر عليها كاشفين ، حتى لا تطمر في مجاهل النسيان ، ولا تضيع في جداول الإهمال ، تثبتنا هنا للحقيقة والتاريخ ، فإنها ضرورة الذكريات المجيدة البهيجة .

ذكريات وطنية مطمورة

بين ثروت باشا والدكتور محبوب

كان المغفور له عبد الخالق ثروت باشا رئيساً للوزارة في أثناء اشتغال « لجنة الثلاثين » بوضع الدستور . وفي ذلك الوقت أبلغ اللورد ألنبي المندوب السامي البريطاني ثروت باشا رغبة الحكومة البريطانية في عدم ذكر « السودان » في صلب الدستور وتبمسكها بذلك . وما أن أشيع هذا النبأ حتى كان الدكتور محبوب في طليعة الغاضبين الثائرين . فسارع إلى الاتصال بثروت باشا وسأله عن حقيقة هذا النبأ ، فأجابه ثروت باشا بأن هذا الطلب قد تقدم به اللورد ألنبي حقيقة (١) . فقال له الدكتور محبوب : « وعلام عولت يا باشا ؟ » .

(١) روى لنا الدكتور محبوب نفسه هذه الرواية وقال : « إن المغفور له ثروت باشا اتصل وقتئذ بالمرحوم أحمد لطفي بك أحد أقطاب الحزب الوطني والمحامي القانوني الضليع ؛ وكان المستر بوند والمستشارون الانجليز يلقبونه بصديق المحكمة لأنه كان يفتيهم فيما يشكل عليهم من أمر ، وكانوا يأخذون برأيه مسلماً . اتصل به ثروت باشا وأبلغه خلاصة ما دار بينه وبين اللورد ألنبي فيما يختص بمسألة إغفال السودان في الدستور . ثم زاره في مكتبه بميدان إبراهيم باشا (ميدان الأوبرا) وعرض عليه الرد . ولا تسل كيف كان اغتباط أحمد لطفي بك برد ثروت باشا .

وبعد ذلك توجه الدكتور محبوب إلى مكتب أحمد لطفي بك ..

فأجابه ثروت باشا قائلاً : « اطمئن يادكتور ، فإنى لن أقبل أى مساس
بالدستور ، ولا أى انتقاص من حق مصر فى السودان ولاحق السودان
فى مصر باعتبارهما وطناً واحداً ، وإلا كنت خائناً لبلادى » .
عرف الدكتور محجوب ما اعتزمه « ثروت باشا » فى هذا الأمر
الخطير . فقال له وهو مغتبط متحمس : « إن المصرى الذى يمس
السودان فى مواد الدستور يجب أن تُقطع يده ، وسيكون هذا العمل
وصمة فى جبينه وجبين أحفاده من بعده » . فأجاب ثروت باشا معقباً
مؤيداً بقوله : « سيكون هذا ردى على المندوب السامى البريطانى .
وأنا الآن أحضر الجواب ، وسأطلعك عليه فى القريب العاجل » .
وقد كان هذا رد ثروت باشا على المندوب السامى فعلاً .

ولما كانت هذه المسألة من النقاط الدقيقة فى تاريخ مصر السياسى ،
وجب ألا نمر عليها مروراً عابراً ، بل لابد لنا من أن ننتهز هذه
المناسبة لتسجيلها ^(١) ، لأنها اتخذت لها موضعاً بارزاً من جهاد الدكتور .
فكان علينا أن نضيفها إلى تاريخه ، لأنها مسألة السودان الذى عاش
محجوب ثابت وهو يدعو به رسالة وطنية حارة ، ومات ورجاؤه
معلق بوحدة وادى النيل رجاء مصحوب بالآيمان .

وصادف أن عاد ثروت باشا ومعه مظروف يحوى مذكرة برده على
طلب اللورد ألنبي وقد أطلع الدكتور محجوب على الرد . وغادر الدكتور مكتب
لطفى بك والدنيا لا تسعه من الغبطة والحبور .

(١) الزمن الإيجاز هنا بقدر ما تحتمل المناسبة . ولسكننا إن شاء الله سنفرّد
لهذا الحادث فصلاً فى كتابنا عن « أحداث مصر السياسية » نتناول فيه بالتفصيل
والتحليل مسألة السودان فى الدستور المصرى وما اكتنفها من أحوال .

ولهذه المناسبة نقول : إن اللورد أللبي كان قد طلب هذا الطلب من « عبد الخالق ثروت باشا » في أثناء اشتغال « لجنة الثلاثين » بوضع الدستور وصياغة مواده . وكان رد ثروت باشا لبقاً في نفس الوقت وبارعاً . فقد رد على اللورد قائلاً له : « إنى لا أستطيع أن أطلب هذا - أى إغفال السودان في الدستور - من أعضاء اللجنة ، ولا أشك في أنهم سيتوقفون عن إتمام عملهم احتجاجاً على محاولة هذا التدخل . وقد نتحدث في هذا بعد انتهاء اللجنة من وضع الدستور وهم خلاصة أبناء مصر ومنهم عبد العزيز فهمى بك (باشا) ، وعبد اللطيف المكباتى بك » . وقد روى لنا الدكتور محبوب ثابت ما دار بعد ذلك من مناورات سياسية أظهرت وطنية ثروت باشا . فقال : « إن اللورد أللبي أبلغ حكومته رد ثروت باشا وملاحظاته . فوافقت على ذلك الرأى ، خشية أن يمتنع أعضاء لجنة الثلاثين عن إتمام عملهم ، احتجاجاً على محاولة التدخل . . »

وقال : « أتمت لجنة الثلاثين عملها ووضعت الدستور كاملاً شاملاً ، المذكوراً في صلبه » أن السودان جزء متمم لمصر ، وأن ملك مصر هو ملك السودان وحاكمه الشرعى » .

وفي اللحظات التى كان « عبد الخالق ثروت باشا » يتبها فيها لإعلان الدستور ، إذا باللورد أللبي يستأنف طلبه أن يصدر الدستور غفلاً من النص الخاص بالسودان ، مدعياً أن ثروت باشا كان قد وعده بهذا . فرد ثروت باشا على ذلك بأنه لم يعد ، ولم يكن ليستطيع أن يعد بهذا ، ولكنى كنت أوضح له أنه لا يستطيع أن يتحدث في هذا الشأن

مع أى عضو من أعضاء لجنة الدستور .

فأدرك اللورد ألنبي أن ثروت باشا قد خدعه ، وأنه أخذ منه لمصر ، ولم يعطه لبريطانيا .. وكانت النتيجة أن الحكومة البريطانية - وهى المغلوبة فى هذا الدور - لم تجد ما يشفى غليلها إلا الضغط على ثروت باشا وإجراجه . فقدم استقالته (وهى فى الحقيقة إقالة ، وقيل إن ثروت باشا قد استقال بموجب تبليغ) دون أن يجيب رغبة الإنجليز ، ولم يلوث يده بتر المادة الخاصة بالسودان رحمه الله رحمة واسعة فقد أسىء إليه بقدر ما أحسن إلى أمته (١) .

وتسلم الحكم من بعده توفيق نسيم باشا . فبدأ عمله بأن استدعى إليه المرحوم « المصرى السعدى باشا » رئيس الوفد المصرى بالنيابة (٢) ، وأبلغه « أن الدستور سيصدر . وبطبيعة الحال سيفك اعتقال سعد وصحبه . وستجرى الانتخابات . وستسلم صاحب الأغلبية زمام الحكم ، وفقاً لقواعد الدستور . تلك هى الرشوة التى قدمها نسيم باشا وقد نجح ولكن نسيم باشا كان قد فعل فعلته ، وارتكب جريمته : إذ اجترأ على الدستور فحذف منه النص الخاص بالسودان ...

ويتعين علينا هنا أن نذكر للحقيقة والتاريخ أنه عندما اجتمع مجلس الوزراء للنظر فى مسألة حذف المادة الخاصة بالسودان من الدستور ، وقف يوسف سليمان باشا يخطب معارضاً أمر الحذف وبما قاله : « إني أعتبر نفسى مجرمًا إذا أنا وافقت على حذف هذه

(١) سيجىء تفصيل الإساءة إلى ثروت فى كتاب (حوادث مصر السياسية)

(٢) كان المصرى السعدى باشا رئيساً للوفد بالنيابة ، لأن المغفور له سعد

باشا كان منفيًا .

المادة . . . وكان يخطب وهو في أشد حالات الانفعال النفسى ، ولما لم يؤخذ برأيه ، اعترته حالة من الغضب الشديد حتى لقد أغشى عليه ، وحمل إلى منزله . وكان الدكتور محجوب حينما يسمع اسم يوسف باشا يقف لإجلاله لاسمه ، وتقديراً لوطنيته الرائعة النادرة في وطنية الرجال وليس هذا بالعجيب وهو الوطنى القبطى أى المصرى ...

بين محجوب ونسيم

روع الدكتور محجوب بما فعل نسيم باشا فلم يتوان فى كتابة خطاب شديد اللهجة إلى نسيم باشا رئيس الوزراء ، يتهمة اتهاماً صريحاً بالخيانة والتفريط فى حق الوطن . وبما جاء فى خطاب الدكتور هذه العبارة : « كنا قد اغتفرنا لك عدم التوقيع على عرائض «توكيل الأمة للوفد» أسوة بزملائك ، وقولك أثناء امتناعك : بأنك لم تصب بحمى الوطنية . ولكن جريمة اليوم ... لن نغفرها لك (١) » .

والعجيب أن نسيم باشا - بعد اجترائه هذا - قدم استقالته ، وغادر سلطان الحكم ومنصب الوزارة ، والزائل ، ، لاجئاً إلى داره ، وخلف وراءه جسم الجريمة مثلاً فى «كتاب الدستور» المودع فى القصر مبتوراً منه السودان . فكأن مهمته كانت مقصورة على هذا العمل الشنيع ضد الوطن ، فلا هو يبق فى الحكم بعد هذه الفعل ، ولا هو استقال دون ارتكاب الجريمة الوطنية الكبرى !

(١) لم يرفض التوقيع على التوكيل أحد سوى نسيم باشا وآخر . وسيجى . بيان تصرف نسيم باشا فى هذا الحادث فى كتابنا «أحداث مصر السياسية» .

حدثنا الدكتور محبوب وقتئذ ، عندما وقعت من نسيم باشا الواقعة . قال : « إن نسيم باشا حينما ارتكب هذا العمل إنما أدى مأمورية ينتظر عليها مكافأة آجلة . فهو يدفع للإنجليز الثمن مقدماً ،

بين محبوب ويحيى إبراهيم

ظل الدكتور محبوب ثابت يردد اسم نسيم باشا موصوفاً بأشد النعوت طول حياته . وكان يحتدم غضباً كلما ذكر اسمه حتى بعد وفاته وذهابه من الدنيا غير مأسوف عليه .

ولما تولى الحكم الرجل الطيب حقاً وصدقاً المغفور له يحيى إبراهيم باشا ، خلفاً لنسيم باشا ، وسأله الدكتور محبوب عن مصير السودان في الدستور ، فأجابه بقوله : « يادكتور ، أقول لك والاليم يحز في نفسى : إني تسلمت كرسي الوزارة ، وكذلك تسلمت الدستور في السراى ، وبحشت عن السودان فيه ، فلم أجده ذكرأ . . البقية في حياتكم ، إبقوا ابجثوا عنه في البرلمان (١) » ،

ولا تسل عما نزل بالدكتور محبوب من همٍّ ووجعة في ذلك الوقت العصيب . فقد أخذ يكتب المقالات الضافية عن السودان ووحدة وادى النيل . (انفردت بنشرها « جريدة الأهرام ») وكانت مقالات من نار ونور .

وظل الدكتور محبوب يصرخ في كل مكان يغشاه ، وفي وجه

(١) يوم تولى يحيى إبراهيم باشا الوزارة قال مثل هذا الكلام لأحد الصحافيين في شرفة الكونتنتال ، ولعله مندوب جريدة المقطم .

كل زعيم يلقاه : « محال أن يقطع المخلوق ما وصله الله ... محال أن يفصل السودان عن مصر ... ومحال أن يقبل ذلك المصري السوداني ، أو السوداني المصري ... »

ولما أن التأم عقد مجلس النواب لأول مرة ، كان الدكتور محبوب يتغنى في وجه كل من يقابلهم من الزعماء والنواب وسواهم ، بقول صديقه وخليله شوقي بك أمير الشعراء في أرجوزته الرائعة الخالدة :
« توت عنخ آمون والبرلمان ، »

قم سابق الساعة واسبق وعدّها الأرض ضاقت عنك فاصدع غمّها
واملاً رماحاً غورها ونجدّها وافتح أصول النيل واستردّها
شلاًّ لها وعذبا وعِدّها واصرف إلينا جزرها ومدّها
تلك الوجوه لاشكونا فقدّها بيضت القربي لنا مسودّها
وهنا كنت ترى « محجوباً » قد انتشى بخمر الوطنية ، فكنت تسمعه يزار كلما ردد تلك الأرجوزة متحمساً مندفعاً : « أجل ، أجل . بيضت القربي لنا مسودّها . إن سواد بشرة السوداني في نظر شقيقه المصري السوداني هو سواد العين وسويداء القلب ، ألا فليعلم من لا يعلم أن تجفيف النيل ، أو تحويله إلى القسارة الأوربية ، أهون من فصل السودان « الابن » عن أمه « مصر » .

وقد لا يعلم الكثيرون من أبناء هذا الوطن العوامل التي حدثت بالقائمين على أمر الترشيحات البرلمانية لمجلس النواب الأول (سنة ١٩٢٤) - عقب صدور الدستور المبثور المجنى عليه وهو جنين - إلى

إغفال ترشيح الدكتور محجوب ! . ذلك أنه كان معلوماً أنه سيجعل من نفسه ممثلاً للسودان في البرلمان ، وفي نفس الوقت كان معروفاً ومستقراً في الأذهان ، أنه سيطالب بترك مقاعد خالية بمجلس النواب (رمزية) على أن تملأ في المستقبل بنواب من السودان . . . وكان معروفاً أن مصر مقبلة على مفاوضات يتولاها ممثلو الأمة الرسميون مع الحكومة البريطانية . . . يخيف أن يكون لثورات الدكتور وندائه باسم السودان في مجلس النواب - لو مكنوه من دخوله - ما يعكس جو التفاهم الذي كان مرغوباً فيه في ذلك الحين .

ولرغبة سعد زغلول باشا في هذه المهادنة - المؤقتة - من جانب الدكتور محجوب ، اختار لإقناعه الرجل الوطني المجيد المرحوم عبد الله سليمان أباطه بك ، أحد أبطال الجهاد الوطني ، فاستطاع أن يقنع الدكتور محجوب بالعدول عن ترشيح نفسه إلى ما بعد المفاوضات .

فلم تسكد تخلو دائرة مينا البصل سنة ١٩٢٦ - ١٩٢٧ حتى بادر الدكتور محجوب بترشيح نفسه فيها ، وانتخابه نائباً عنها ، ولقد شرّفها كما شرّفه .



بين محبوب

وستاك باشا حاكم السودان الأسبق

في إحدى زيارات «السير لى ستاك باشا» للقاهرة اتصل به الدكتور محبوب ثابت بدعوة منه بواسطة شاعر النيل المغفور له «حافظ إبراهيم بك»، وما أن دار الحديث بين «السير» وبين الدكتور «محبوب» حتى أفاض الدكتور في الحديث عن السودان، وعن القبائل العربية الأشاوس الضاربة في ربوعه وقيعانه.

و«السير لى ستاك» مأخوذ ومعجب بسعة معلومات الدكتور محبوب، الذى أخذ يذكر له أسماء القبائل العربية، وبطونها، وأغاذها، وأنسابها، وتواريخ نزوحها إلى السودان، وحوادثها، وحروبها، ومزايا كل منها. ثم أبناء عمومته القاطنين في مصر، والشام، والعراق، ونجد، والحجاز، واليمن.

وانتقل الحديث إلى تاريخ النوبة، وبنيها، وأبناء عمومتهم في الديار العربية عامة، وفي السودان خاصة. فإذا بالسير لى ستاك يطلب ورقاً ويدون ما يقوله الدكتور محبوب.

النوبيون وتاريخ النوبة (١) .

ولما سأله السير لى ستاك باشا عن الأصل الذى ينحدر منه النوبيون ، ولماذا يلقبون فى مصر « بالبرابرة » ، أجابه محجوب قائلاً :
« إن النوبيين من ثلاثة عناصر » . وهم :

أولاً - أبناء النوبة الأصليون من أحفاد الشعوب الأثيوبية والبسجة .
ومن هؤلاء من تجرى فى عروقهم دماء الفراعنة الأقدمين . وكان هؤلاء يدينون بالمسيحية إلى ما قبل الفتح الإسلامى . فلما استقرت أقدام العرب فى مصر ، أرسل فاتحها « عمرو بن العاص » - القائد العام - « عبد الله بن أبى سرح » ، أحد قواده إلى النوبة يدعو أهلها إلى الإسلام . فلما لم يلبوا دعوته - بادىء ذى بدء - قاتلهم وقتلوه قتلاً شديداً ، فلما تغلب عليهم وكسر شوكتهم ، تظاهروا بانتحال الدين الإسلامى . وعندئذ ترك فى بلاد النوبة من يعلمهم أصول الإسلام وقواعده . ثم كرّ عائداً إلى « الفسطاط » . غير أنه فوجئ عقب عودته بقبأ ارتداد النوبيين عن الإسلام ، بعد أن قتلوا الذين خلفهم لتلقينهم مبادئ الدين الجديد . فعاد ابن أبى سرح إلى النوبة ، وقتل من المرتدين خلقاً كثيراً . فلما أن ضعفت شوكتهم تظاهروا بالإسلام مرة أخرى . وبعد عودته إلى مقر القيادة بالفسطاط نكّلوا بمن تركهم ليعلمهم أمور الدين . وعادوا إلى النصرانية بعد أن قتلوا خلفاءهم . فرجع إليهم

(١) الذى ترجم هذا الحديث للدولف هو المغفور له « حافظ إبراهيم بك »

ثم وافق عليه الدكتور محجوب .

ابن أبي سرح مغيطاً محمقاً . وفي هذه المرة أشبعهم قتلاً وتنكيلاً ،
ثم خيرهم بين الإبادة على بكرة أبيهم ، وبين اعتناق ملة الإسلام ،
وذلك بعد أن هدم معابدهم .

وقال الدكتور : « إن العرب لم يرغبوا طائفة على انتحال
الإسلام غير النوبيين في وادي النيل . ذلك لأنهم في سبيل تمسكهم
بديانتهم المسيحية كانوا يعذبون من يعلمهم أمور الدين الجديد عندما
تجلبو القوة عنهم ، ويعودون إلى دينهم الأصلي بعد هدم المساجد
ولإحراقها . فلما تكرر ذلك من بني النوبة عاد إليهم ابن أبي سرح ،
وتحت إمرته أشد القبائل مراساً . فأسكنهم بلاد النوبة ، حتى
لاتكرر الثورة .

ومن هنا كانت أغلبية أبناء النوبة من أحفاد العرب المجاهدين ، أضف
إليهم قبائل العرب الذين نزحوا من الحجاز إلى الغرب . ومن الغرب إلى
النوبة ، وانضموا إلى أبناء عمومتهم ، ثم حاربهم ، فلما انتصر عليهم
أبناء عمومتهم ، وهم السكان القدامى من العرب ، نزحوا إلى السودان
واستوطنوا بلدة « سكوت » ، وهم يلقبون هناك « بالجابريين » ، لرجوعهم
في النسب إلى « جابر الأنصاري » . أما أبناء عمومتهم الذين لا يزالون
في أرض النوبة ، ويلقبون « بالتسكي » ، وهم « الغرياب » ، فهؤلاء هم الذين
جاءوا من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى ديار النوبة ، وهم باقون
إلى وقتنا هذا ، ولهم مكاتهم في تلك الأرجاء . أضف إلى هؤلاء
أبناء العرب من بني أمية ، الذين نزحوا إلى النوبة تخلصاً من اضطهاد
بني العباس لهم ، ومطاردتهم إياهم ، فألقوا عصا الترحال في أرض النوبة .

ثانياً - ومن الذين يقطنون الديار النوبية «الكشّاف» ، وهؤلاء هم أبناء الأتراك وأحفادهم ، نزحوا إلى النوبة في عهد «السلطان سليم» .
ثالثاً - وفي النوبة أبناء الشراكسة ، والماليك ، الذين تمكنوا من الفرار من وجه محمد على الكبير الذى أباد أكثرهم ...

كل هؤلاء تأقلبوا ، فأصبح لون بشرتهم نحاسياً - بحكم الجو والبيئة - بعد أن كان أبيض ناصعاً . ومن هؤلاء كثيرون نزحوا إلى السودان فاتخذوه وطناً .

وأما سؤالك : لماذا يلقبون أبناء النوبة في الخرطوم ، ودنقلة ، وسكوت ، وحلفا ، والتوفيقية ، ودبروسة ، واشكيت ، ودبيره ، وقسطل ، وفرس ، وبلاّنه ، وتنقاله ، والدر ، وعافية ، وتوماس ، وفريق وأبو سنبل ، إلى آخر أسماء هذه البلاد حتى تصل إلى شلال أسوان . إن سبب تلقيب أبناء هذه الأصقاع « بالبرابرة » هو الجهل الذى لا يغتفر للمتعلين من أبناء وادى النيل بهذه الحقائق .

ومعنى كلمة «النوبة» باللغة المصرية القديمة « بلاد الذهب » ، وهذا هو السبب الذى جعلهم يسمون الديار النوبية المتاخمة لشلال أسوان « بالكنوز » ، وأبناء عمومتهم بالبلاد السكنزية يقطنون « دنقله » ، ومنهم « محمد المهدي »^(١) ، صاحب الثورة المهدية المعروفة . أما بنو عمومة أبناء النوبة النازلون بين « كرسكو وحلفا » فأكثرهم يسكنون في « سكوت » ، ولقد كانت الديار النوبية في عهد الفراعنة إلى ما قبل الفتح

(١) محمد المهدي من بلدة كشتمنة بجوار أسوان .

الإسلامى من أهم أقاليم وادى النيل ، من حيث الحضارة ، والرقى ،
والذكاء ، والمكانة الحربية^(١) . وفى وادى النوبة من الآثار الخالدة
معبد « أبى سنبل » التى تضارع الأهرام بقيمتها التاريخية ، ولا يقل
معبد أبى سنبل شأناً عن آثار الأقصر ، من حيث التماثيل والتماثيل
والمواقع الحربية الفرعونية المنقوشة على جدرانها . وهذه الصور
الحربية مثبتة كتابة وتصويراً ، وكأن ريشة المصور قد رفعت عنها
فى التو والساعة . وما أبرع ما يقول شوقى فى هذا المعنى :

صور تريك تحركاً والأصل فى الصور السكون
ويعمر رائع صمتها بالحس كالنطق المبين
صحب الزمان دهانها حيناً عهداً بعد حين
خدع العيون ولم يزل حتى تحدى اللامسين
غض على طول البلى حتى على طول المنون
ما أنغم الآثار ، وما أبدع الشعر ، وما أروع الحديث !!!

لابرابة على ضفاف النيل !

واستطرد الدكتور محبوب يحدث السير لى ستاك باشا ، الذى
كان مأخوذاً بروعة حديثه وسعة معلوماته التاريخية وقال :

— ليس على ضفاف النيل من منبعه إلى مصبه من يصح أن يلقب
بالبرابة ، فأبناء النوبة هم الفريق الذى لا يصح أن يستهان به من

(١) جاء زمان كان للنوبيين فيه دولة شديدة المراس ، قوية الشكيمة ،
حكمت مصر وسودانها ، وامتد سلطانها إلى بابل . والنوبيون هم الذين
طردوا المكسوس من مصر .

أبناء وادى النيل . وهم من أكثر أبناء هذه البلاد أمانة ووطنية وكرامة .
أما قبائل البربر ، أو البرابرة ، فهم هنا على حدود مصر الغربية ، فيما يلي
الأقاليم الساحلية لشمال أفريقية . أما سبب تلقيب أبناء النوبة - خطأ -
بالبرابرة ، فذلك لأنهم يتحدثون بعضهم مع بعض بلهجة من لهجات
اللغة المصرية القديمة فضلا عن لهجات أخرى كثيرة مختلفة . . . ولهم
أسلوب اصطلاحى^(١) يتعارفونه فيما بينهم ، لا يفهمه بقية أهل مصر .

لن تقطع أوصال وادى النيل

ثم قال الدكتور محبوب للسير لى ستاك باشا : د محال أن
يستطيع مخلوق قطع أوصال النيل . وعلى الرغم من أنكم ألغيتم
الجيش المصرى سنة ١٨٨٣ ، ثم أجبرتم مصر وأكرهتموها على
إخلاء السودان سنة ١٨٨٤ ، ثم غزيتم الثورة فى السودان بأساليبكم
وأموالكم ، وفى الوقت نفسه غلثتم يد الحكومة المصرية عن إخماد
الثورة المهدية ، وكنتم تلقون فى أتون الفتنة الملتبهة بالحطب والزيت
والبترول ، كل ذلك كان بناء على خطة مرسومة لتبرير اشتراككم فى إخماد فتنة
أشعلتموها لتتخذوا ذلك الاشتراك ذريعة لابتلاع السودان مضافاً إلى

(١) أما كتابتهم وعبادتهم فباللغة العربية ، وهذا الأسلوب
الاصطلاحى الذى يتفاهمون به فيما بينهم خليط من الألفاظ الفرعونية والعربية
وبعض كلمات بقايا الشعوب الآثيوبية والبجة ، فثلاثهم يسمون البقرة « تى » ،
ومعنى هذا بالفرعونية واللغة المصرية القديمة « البقرة المقدسة » ، ويسمون الماء
فى إحدى اللهجات النوبية « أمنجا » ومعناه « الماء المقدس » .

احتلالكم مصر . إنكم إذ تحاولون ابتلاع السودان ، تخشون أن تقلت مصر من أيديكم بحكم أحوال القاهرة ، لتقبضوا على عنقها باحتلالكم السودان وإلا فكيف نفسر غلّكم ليد مصر عن إخماد الفتنة المهدية - بادية ذى بدء - ثم إرغام مصر على تجنيد بنينا لإخماد الفتنة المهدية ، فيما سميتموه «فتحاً» من جانبكم وجانب مصر . مع أنكم كنتم أنتم النار والحطب والمطر ، والوحى والإيحاء . فالمسألة كلها منكم وإليكم . والتبعة التاريخية إنما تقع على عاتقكم ، وسيكون لها تأثيرها في المستقبل البعيد ، وسيجيء اليوم الذى لن يصدقكم فيه شعب ، ولن تثق بكم أمة ، فاحذروا ذلك اليوم .

ولما سأله السير لى ستاك باشا : « كم من السنين تُعدّل ذلك اليوم ؟ » . أجاب الدكتور محبوب : « قد تكون خمسين عاماً ، أوحرباً ، أوحربين ! ! وبعد ذلك لن تستطيعوا السير على هذا الدرب »

سياسة الإنجليز فى فصل السودان عن مصر

وفصل شماله عن جنوبه

ثم قال الدكتور محبوب للسير لى ستاك باشا : « إنكم تعملون على فصل السودان عن مصره ، وفصل شمال السودان عن جنوبه ، تنفيذاً لخطة مرسومة ، هى خطة « مؤتمر المبشرين » الذى عقد فى لندن سنة ١٩٠٩ ، ونصح لكم رئيسه بتمكين المبشرين البروستانت من تسهيل مهمتهم . وهو الذى قال لكم ما معناه : « مادتم تمكّنون تاجراً سودانياً من أهل الشمال من التوجه إلى أهل الجنوب . فإن ما يعملونه هؤلاء المبشرون

في خمس سنين ^ويُضِيع أثره التاجر الشمالى في شهر واحد (١)، وإن ذهاب «أورطة» سودانية من أهل الشمال إلى الجنوب يقضى على مجهود المبشرين عشرين سنة في بضعة أيام، وذلك لأن الوثني من أهل الجنوب يستمع للقرآن كما نستمتع نحن لآلات الطرب، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإن لأهل الجنوب استعداداً طبيعياً لتقليد أهل الشمال بحكم جامعة اللون، ثم بحكم بساطة الديانة الإسلامية غير المعقدة. ولعل سبب ذلك كون الإسلام دين البداوة، دين الفطرة، طلع نوره من الصحراء،

إيحاء رئيس مؤتمر المبشرين

وقال الدكتور محجوب للسيرلى ستاك باشا :
« إنكم تعملون بإيحاء رئيس مؤتمر المبشرين في تودة. ولكنكم لن تستطيعوا أن تقطعوا ما وصله الله ».

ثم استرسل في قوله : « وفي سبيل تنفيذ خطة المؤتمر التبشيري والعمل بنصائحه، أخذتم تروجون فكرة أن هناك فارقاً بين مصر وجنوبها، أى السودان، لفصل مصر عن سودانها. وتعملون في الوقت نفسه على فصل شمال السودان عن جنوبه. تزعمون أن أهل الشمال من أصل يجمع بين العنصر العربى والعنصر الفرعونى وبقايا أبناء الفراعنة الذين نزحوا إلى السودان قبل الإسلام، وأن أهل « جنوب السودان » من الوثنيين

(١) ما زال أهل الشمال ممنوعين حتى الآن من الاختلاط بأهل الجنوب عملاً بهذه السياسة. وأخيراً قد أنشأوا مجلساً سموه بالمجلس الإستشارى لشمال السودان دون الجنوب في عهد الوزارة النحاسية وقد احتج المؤلف على سكوت النحاس احتجاجاً شديداً ووزع صورته على جميع رؤساء الأحزاب.

الذين لا تجمعهم بأهل « شمال السودان » جامعة . وفِعلا أخذتم
تروّجون لهذه الأفكار .

« ما هذا ياسيدى ؟ تزعُمون أن لا علاقة بين مصر وسودانها ، لتفرقوا
بين الأخ وأخيه ، والوطن وشطره ، والروح وجسده ... فإذا لم تكن
هناك جامعة بين مصر والسودان ، فأية جامعة بين إنجلترا ومصر ؟ وأية جامعة
تجمع بين إنجلترا وبين السودان ؟ أهى جامعة الدين ؟ أم جامعة اللون ؟
أم جامعة الجغرافيا ؟ هل حدود لندن متصلة بحلفا بدل مصر ؟ هل هناك بحر
أو محيط بين مصر وسودانها ، أو السودان ومصره ، يجعلهما قارتين ، أو
قطرين منفصلين ؟ أم أن روافد النيل تستمد مياهها من التاميز (١) ؟
تقول السياسة الانجليزية - بل قوتها المسلحة - وفضتها وعسجدها :
إن مصر شيء والسودان شيء آخر ، وإن شمال السودان شيء والجنوب
شيء آخر .

عجبا ، عجبا . ذلك ما ادعيتموه ، وستزعمونه يوماً ما . إني أتنبأ بذلك .

الرد على المزاعم البريطانية

قال الدكتور محبوب وهو يحدث السير لى ستاك باشا :
- تقولون إنكم اشتركتم في فتح السودان ، وعملتم على تقدمه ،
وتذكرون في خلال كلامكم « الرأى العام البريطانى » ، كأن هذا الرأى
العام نصبكم بأمر من الله خلفاء في أرضه وفوضكم الله والرأى العام
البريطانى في تقديم التقارير بوجوب معرفة الفرق « بين مصر الدلتا ومصر

(١) لعل عدم إنشاء سكة حديد بين أسوان ووادى حلفا مرجعها إلى هذه
الفكرة ، ففكرة فصل السودان عن مصر . هذا من كلام الدكتور في مناسبة أخرى

العليا ، أى السودان ؟ فإذا كان الشعب البريطانى قد كلفكم هذا جدلا ، فلماذا لم يكلفكم تقديم التقارير عن الجامعة التى تجمع بينكم وبين مصر ، وبينكم وبين السودان ، ثم بينكم وبين الهند ؟ فما الذى تستطيعون أن تبرروا به احتلالكم لمصر واستعماركم للهند ؟ . وماذا أتم قائلون لهذا رأى العام البريطانى ؟ إذا سألكم الشعب البريطانى : ما هى الجامعة الجنسية أو اللغوية التى تجمعكم بمصر حتى تظلوا فيها فبماذا تردون ؟ وإذا سألكم : ما هى جامعة اللون أو اللغة التى تجمعكم بسودان مصر فبماذا تجيبون ؟ وإذا سألكم لماذا تظلون فى الهند ، ألتوفيق بين الهندوس والمسلمين ؟ عجباً هل الشعب الإنجليزى هو الذى يخضع الحكومة الإنجليزية ، أم الحكومة هى التى تخضع الشعب ، أم أن كلا منهما يخضع الآخر ؟ .

لماذا جئتم إلى مصر ؟ !

لماذا جئتم إلى مصر ؟ زعمتم أنكم جئتم لتحموا الخديو من الشعب وزعيمه عرابى الذى ظلمتموه ، وشوهم تاريخه عمداً ^(١) وعاونكم فى ذلك بعض المصريين من صنائعكم الذين ليسوا من أصل مصرى . ولما توفى الخديو توفيق وتولى بعده الخديو عباس حلى الثانى ، الذى أيدته الشعب وأحبه ، وأحب الشعب وأيده . ولا شك أنكم تسلبون - على الأقل - بأنه لم يكن هناك خطر من الشعب عليه . إنما كان الخوف منكم عليه ، حينما تضامن الشعب معه وتضامن هو مع الشعب فى المطالبة بالجلاء ،

(١) فليعذرنى القارىء إذا وجد تقديماً أو تأخيراً فى سياق الحديث . إنما أنا أروى كلام الدكتور محبوب والمرحوم حافظ إبراهيم بك كما قيل لى ، رواية لا تصرف فيها ، لإبقاء على الحقيقة والتاريخ أن يشوها « المؤلف »

أو لم تهددوه بمنعه من الوصول إلى عاصمة بلاده حينما أبدى ملاحظة عسكرية في استعراض الجيش المصرى فى حلفا - أى جيشه - فاعتبرت ذلك إهانة لحقت بالجيش البريطانى ، لأن سردار الجيش المصرى بريطانى (١) ، وهددتموه بالخلع إذا لم يعتذر ١١٩

كنتم تزعمون أنكم جئتم لتوطيد عرش والده ، فإذا بكم تهددون ابنه لأتفه الأسباب ، وأخيراً ظلمتم تتربصون به الدوائر حتى انتهزتم فرصة حرب سنة ١٩١٤ فخلعتموه ، بإيعاز من رجلكم اللورد كيتشنر ، عدوه اللدود ، الذى قيل إنكم أغرقتموه لأمر ما ولسر غامض ا .

وهنا فغر السير لى ستاك فاه دهشة وعجباً من إلمام الدكتور بكل هذه المعلومات واستطرد الدكتور : « ومن قبل أجبرتكم « الخديو توفيق » ، الذى احتلتم مصر بحجة حمايته ، واشترطتم أن يكون محامو عرابى من الإنجليز . فلما رفضت الحكومة المصرية هذا الطلب ، بشدة قائلة : إننا نفضل عن ذلك أن تأخذوا عرابى وتحاكموه بأنفسكم أرسلتم إنذاراً إلى من جئتم لحمايته ، فى زعمكم ، وهذا نصه (٢) : « ليس هذا أو أن ظهور الحكومة المصرية بمظهر المعارضة والممانعة ، وإن استمرارها على الإباء يعرضها للفشل والخطر . ولا تكون النتيجة مقتصرة على النظارة (أى الوزارة) وحدها ، بل تتناول مركز الخديو نفسه ١١١ وإذا لم تقبل الحكومة المصرية طلب الحكومة الإنجليزية ، فلا

(١) اللورد كيتشنر .

(٢) هنا أخرج الدكتور بحجوب من حافظة نقوده وريقة كانت مكتوبة باللغة الانجليزية فيها نص الانذار المذكور وتلاه على سماع السير لى ستاك باشا .

يسعها إلا أن تتحمل تبعة ما يترتب على رفضها من النتائج السيئة ،
بعد انقضاء ثمانية أيام على هذا الإنذار (١) .
لأنكم جئتم إلى مصر ، لا لحماية عرش الخديو كما ادعيتم ، بل
لاحتلال مصر وسودانها ، واحتلال السودان ومصره ، في آن واحد ،
ولم تدخلوا مصر لحماية الخديو كما ادعيتم ، بل لإضعافه ، واستغلاله ،
واتخاذ آله في أيديكم ١١ . والدليل على ذلك أنه لما قدم « رياض باشا »
استقالته محتجاً غاضباً ، تمسككم بأن يكون محامو عرابي من الإنجليز
وجهتم لإنذاركم هذا

(١) المؤلف : ما أشبه الليلة بالبارحة - كما يقول طرفة بن العبد - فهذا نص
التبليغ البريطاني إلى الخديو « توفيق » ، وهو إنذار ليس بينه فرق وبين الإنذار
البريطاني الذي وجهوه إلى جلالة « الملك فاروق » ، في ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ -
نقلنا عن المغفور له أحمد ماهر باشا عقب تولي مصطفى النحاس باشا والوزارة ،
هذا نصه : « تود الحكومة البريطانية أن تؤلف وزارة يرضى عنها النحاس
باشا ، وإذ لم أعلم (أى السفير البريطاني) أن النحاس باشا قد دعى لتأليف
الوزارة في تمام الساعة السادسة من مساء اليوم ، فإن الملك « فاروق »
وحده يتحمل تبعة ما يحدث » .

تراجع مذكرة محمد محمود خليل بك في الدستور .

راجع فصل لمبسون في هذا الكتاب .

انظر إلى الإنذار البريطاني في عهد سمو المغفور له الخديو « توفيق » الذي
جاءوا لحمايته ! وقارن بينه وبين الإنذار البريطاني الموجه إلى حضرة صاحب
الجلالة الملك « فاروق » ، وقد كان موقفه وطنياً رائعاً . هل ترى - أيها
المصري - بينهما فارقاً ؟ وهناك طائفة أخرى من الإنذارات بعد إنذار
٤ فبراير ، ساعدت الوزارة التي تولت الحكم بموجبه على البقاء في مناصبها من
سنة ١٩٤٢ إلى أواخر سنة ١٩٤٤ .

إنكم دائماً تظلمون إرادة الشعب البريطاني، وتفسبون إليه ما لم يفكر فيه . كلها أردتم أن تبرروا أمراً ، أو تبتلعوا حقاً .

الله أقوى وأكبر

إن الجامعة بين مصر وسودانها ، والجامعة بين السودان وشماله ، هي من صنع الله . أما الجامعة التي تودون أن تجمعوها بها بين إنجلترا والسودان - الشطر المتم لمصر - فيد الاستعمار هي التي تحاولها - ولكن يد الله فوق يد الاستعمار ، وإرادته فوق إرادتكم ، وقوته فوق قوتكم . . . إن الله أقوى وأكبر . . . السودان لمصر ، ومصر للسودان (١) . . .

ثم قال : إنى لا أسلم بأن هناك مشكلة تسمى « مشكلة السودان » ولا قضية تدعى « قضية السودان » ، لأن وجود إنجلترا في مصر والسودان ، إنما هو بحكم القوة وحدها ، وسيجىء اليوم الذى يتحرر فيه النيل - من منبعه إلى مصبه - إن شاء الله .

تقولون - بحكم القوة والقهر - : إنكم شركاء مصر في السودان . لأنكم اشتركتم في فتحه لا يأسيدى . إن مصر لا تعتبر نفسها فاتحة السودان ، بل أعادت النظام في أرض هي شطر منها اختل فيها

(١) وتصادف في هذه اللحظة مرور بعض الجموع المتظاهرة تردد الهماتف « السودان لمصر » . فنهض الدكتور محبوب من مجلسه مع السير لى ستاك باشا وخرج إلى المتظاهرين منادياً فيهم بقوله : « لا يكن هذا هو النداء ، بل قولوا : السودان لمصر ومصر للسودان » . وبعد أن أخذ المتظاهرون سيلهم ، عاد إلى مجلسه مستأنفاً حديثه .

الآمن، وهل إذا قامت فتنة في الاسكندرية أو دمياط أو الغربية، وأرسلت الحكومة المصرية تجريدة عسكرية لإخماد تلك الفتنة، وإعادة النظام إلى نصابه، يصح أن يقال إن مصر فتحت تلك المناطق؟ إذن فادعائكم بأنكم اشركتم في فتح السودان مع مصر إنما هو لتبرير أن الفتح هو أساس الشركة. إنكم صرحتُم مراراً في ربوع السودان بأنكم قدتم (١) الجيش المصرى باسم مصر، وبجنود مصر، وأموال مصر. قلتم ذلك لفرنسا (٢) لتحولوا بين أحد قوادها وبين احتلاله إحدى المدن السودانية المصرية.

وخلاصة القول: إن مصر لا تعتبر نفسها فاتحة للسودان، وإنما أعادت النظام في أقاليم مصرية نشبت فيها فتنة. فأتم تحتلون مصر بحكم القوة، مثلكم في هذا مثل الذئب مع الحمل. ولعل جنابكم تعلمون قصته وما فيها من عظة في التشبيه والمثالة.

* * *

عندما انتهى الدكتور محبوب إلى هذه المرحلة من حديثه طلب السير لى ستاك تابعه وأمره بإحضار حقيبة أوراقه. فأخرج منها مئات من بطاقات التهنئة يرد بها الضباط المصريون على معايداتهم قال السير للدكتور: «لقد درجت على أن أرسل في كل عيد إلى الضباط بطاقات تهنئة وأقول لهم إنه يسرنى أن أنتهز هذه الفرصة لإبداء استعدادى

(١) يشير إلى حادثة فاشودة، وما حدث بين مارشان وكتشنر.

(٢) حادثة فاشودة.

لتقديم خدمة ، وأن ألتقى في ردهم ما يشكون منه . فكان أكثرهم يطلب
نقلهم إلى مصر

فأجابه الدكتور محجوب على الفور :

« إن ذلك راجع إلى أنكم تسودون عليهم أبناء جلدتكم (١) ،
وتضعون من شأنهم أمام مواطنيهم السودانيين . ثم إنكم دأبتم على أن
تصدروا أوامركم إلى مرؤسيكم من مأموري المراكز بإصدار الأحكام
والأوامر القاسية على السودانيين . وحينما ترفع إليكم هذه الأحكام
للتصديق عليها ، تخففونها ، أو تلغونها . ولعل كل ذلك تنفيذ لسياستكم
المرسومة ، لتُظهِروا أمام السودانيين بمظهر المشفقين . ولتُظهِروا
الضباط المصريين في مظهر القساة القلوب ، الغلاظ الأكباد

عجبا لهذه السياسة ، حتى في عهدك وأنت الأيرلندي الأصل الذي
عانى قومه ظلم السياسة الانجليزية . . . أليس هذا وحده كافيا لأن
يحمل الضباط المصريين على طلب العودة إلى مصر ؟ إن أمركم لعجيب ! !
تفرضون نفوذكم على مصر بقوتكم وإنذاراتكم المتوالية ، وسيل
تهديداتكم المتتالية ، وفي نفس الوقت تغتصبون كل الأمر في السودان ،
تستأثرون بحكمه ، ثم تطلبون من الضباط ، أباة الضيم ، ووارثي عظمة

(١) وإلى هذا المعنى يشير شوقي بقوله :

هل يعد لك الإضاعة منةً جيش كجيش الهند بات ذليلا ؟
انظر إلى فتياه ما شأنهم ! أو ليس شأننا في الجيوش ضئيلا ؟
حرمتهم أن يبلغوا رتب العلا ورفعت قومك فوقهم تفضيلا !
فإذا تطلعت الجيوش وأملت مستقبلا لم يملكوا التأميلا !

العرب ، ومجد الفراعنة ، وسلالات ضباط صلاح الدين الأيوبي ،
ومحمد علي أن يبقوا في السودان تحت رحمتكم .
إنكم لا تفتأون في ذل الباطل على الرغم من قوتكم . ولكننا
سنبقى في عز الحق إلى أن يقضى الله بيننا وبينكم وهو أحكم الحاكمين ،
ثم قال :

« إن مصر - إن كان لابد لها من حليف ، أو دولة تتصل بها
اتصال الود والمصلحة المشتركة - تفضل إنجلترا ، ولكن على شريطة
أن يكون هذا الاتصال اتصال الحر بالحر ، لا التابع بالمتبوع ،
وكما قال شعراوي باشا : « اتصال الند بالند » ... إن اتصالكم بوادى
النيل المستقل غير الممزقة أوصاله ، خير من اتصالكم بوادى النيل
المغلوب على أمره » . . .



الدكتور محبوب والوحدة العربية

لم يكن « محبوب ثابت » عنواناً بارزاً على مصرية السودان فحسب ،
ورمزاً حياً على وحدة وادي النيل وكفى ، بل كان من السابقين في الجهاد ،
والدعوة إلى الوحدة العربية . وكان واسع الأمل قوى الإيمان بأن تصبح
الامة العربية امبراطورية قوية الدعائم ، مرهوبة الجانب . كما كانت
في عهود الخلفاء الراشدين . وكما كانت في عهد بنى أمية ، وفي أوائل عهد
العباسيين . وكما كانت في عهد سلطنة البطل « صلاح الدين الأيوبي »
وفي سبيل تحقيق هذا الأمل المرجو ، كان دائم الاتصال بشيخ
العروبة « أحمد زكي باشا » ، يمدّه بما كان يغيب عنه من المعلومات .
ويزوّدّه بالرأى السديد والتوجيه المدروس .

ولإعطاء الفكرة ، يحسن أن نذكر تلك الخطة التي أوحى
بها الدكتور محبوب إلى شيخ العروبة ، وهي تتلخص في أن
تقوم البلاد العربية - المنكوبة بالاحتلال الإيطالي - بحركتها الوطنية
وغضبها القومية ، في يوم واحد متفق عليه مقدماً للتخلص من النير
الأجنبي ، حتى يضطر المحتل إلى توزيع قواته العسكرية في كل الجهات
لإخماد الثورة ، وحينئذ يكون من الميسور التغلب على هذه
القوات وهي موزعة... على أن تعاون البلاد العربية الأخرى

المجاهدين بجميع الوسائل . فإذا نجحت هذه الحركة ، جاء دور فرنسا بعد ذلك . وهكذا دواليك ، دولة أوربية بعد أخرى ... إلى أن يتحرر الشرق العربي من ربة الاستعباد ، وعندئذ يرفع أبناء الدول العربية علم الحضارة ، كما رفعه آباؤهم وأجدادهم من قبل .

هذه كانت خطة « محجوب » ، التي رسم خطتها مع شيخ العروبة « أحمد زكي باشا » ، ورسمها مع أساليب تنفيذها ، وتفرغ كلاهما لها زمناً طويلاً ، وبذلك في سبيل تنفيذها ملاً وجهداً ، ونصب لها « زكي باشا » نفسه ، وفتح داره لتنمية الفكرة القومية الجبارة ...

وما كان يدور في خلد « أحمد زكي باشا » أن تحت ضببته^(١) أفعى ناعمة الملبس ، وفي داره ثعلباً في صورة إنسان ، وصلاً كامناً بين شعاره ودثاره ، وهو ذلك الجاسوس الدجال^(٢) الذي كان ينقل أنباءه ، وجملة خطته ، وخلاصة أحاديثه ، وعصارة ذهنه ، إلى السفارة الإيطالية ، مقابل ما تنقده من أجر .

لقد جاهد « محجوب » في سبيل الوحدة العربية ، مؤمناً بعقيدته ، مخلصاً لفكرته ، تلك الفكرة التي عمل لها بجميع الوسائل ، كتابة ، وخطابة ، ودعاية . وفي سبيل ذلك لم يأل جهداً ، ولم يترك فرصة تسنح دون أن ينتهزها للتبشير بفكرته . وكان دائم الاتصال بذوى الرأي من زعماء العرب ، وقادة الفكر ، الذين يجهتون إلى مصر من سوريين ولبنانيين ، ومينيين ، وتونسيين ، وحجازيين ، مبشراً بوجوب قيام وحدة عربية قوية . لقد جاهد « محجوب » في هذا السبيل في الداخل

(١) الضبب: الإبط (٢) بعد قليل ترى من أمر هذا الدجال أمراً عجباً .

والخارج ، وفي سوريا أثناء وجوده بدمشق بجوار صديقه رجل
العروبة الصريح الجرىء ، محمد كرد علي بك ، مد الله في حياته .

نصائح محبوب

كان « محبوب » يقول لمن يأنس فيهم الإخلاص للفكرة ، والعمل
للوطنية الحقّة : « إن بعض المتزعمين الذين يفرضون أشخاصهم رموزاً
للوطنية ، لا همّ لهم إلا اتخاذ الوطنية وسيلة إلى أبهة الحكم وجمع المال ،
وكان « محبوب » يوجه ذلك للصالحين منهم كلها سنحت له الفرصة
يقول لهم : « إذا لم توحدوا جهودكم ، وتجمعوا كلتكم كأمة واحدة ترمي
عن قوس واحدة إلى هدف واحد ، فستظل البلاد العربية المحكومة
بالأجانب مستعبدة لهم ، يتخذون بعضكم أداة لتدجين الأمم العربية ،
التي علم آباؤها العالم معنى الديمقراطية الصحيحة ، وحمل أجدادها ألوية
العدالة الاجتماعية الحقيقية ، العدالة التي تصورها صرخة رجل التشريع
العادل ، والعدل المطلق ، والحزم الكامل ، والإنصاف الشامل » عمر
ابن الخطاب ، رضي الله عنه ، في وجه عامله « عمرو بن العاص » الذي
فتح بالحق ، وقتل بالرق « كما يقول شوقي ، حينما اعتدى ابنه - أي ابن
عمرو - على ابن قبطية مصرية ، فتوجهت إلى حاضرة الإسلام ترفع
إلى الخليفة ظلامتها . فاستدعى « عمر » إليه الأمير وابنه ، وصرخ في
وجهيهما^(١) بقوله : « متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ »

(١) هذه كلمات الدكتور محبوب أثبتنا هنا بالنص حرفياً .

ثم أشار إلى الغلام القبطي قائلاً له : « اضرب ابن الأكرمين » .
 كان « محبوب ، يقول للزعماء العرب ذلك ، ويردف كلامه بقوله :
 « كيف نُستعبد ونحن أحفاد هؤلاء الذين أقاموا صرح العدل بعدلهم
 وشجاعتهم ، وعلّوا العالم معنى الحرية ؟ » .

ثم يقول :

— إنكم أيها الزعماء إذا لم تتضامنوا فلن تقوم للشرق العربي قائمة ،
 وإن زعماء الغرب يتضامنون متآمرين على اقتسام الشرق العربي ، وحكمه ،
 واستعباده ، واستغلاله . وأنتم يامن تسمون أنفسكم قادة ، أفلا تتضامنون
 على حقكم ؟ ألا تتحدون في سبيل الظفر بحريتهم ، واستعادة استقلالكم
 المغتصب ، وكرامتكم المهذرة ؟ قولوا لأنفسكم ، ولمن يتزعمون فيكم ،
 إنكم إنما تزعمون لتعويق أوطانكم عن استعادة كرامتها ، وإلا فكيف
 تؤول تمسك كل جماعة من الزعماء في البلاد العربية ، في سبيل الزعامة ،
 بأن يجعلوا من كل مرحلة تقطعها السيارة في ساعات دولة لها وزراء ورؤساء
 وزارات ، فيكون في كل مرحلة من هذه المراحل أناس يتباغضون
 ويتنافسون على الحكم ، ويتهم بعضهم بعضاً ، بالدس أمام الأجني
 طلباً للمعاوثة . ومن هذا يتبين أن بعض المتزعمين يتظاهرون بالوطنية أمام
 أبناء الأمة ، لخلق الألباب ، وخدع الجماهير . ويتهم كل منهم من ينافسه
 في المنصب الحكومي ، في وطنيته ، بالنهار . أما في الظلام الدامس فاتصال
 بالأجنبي ، وخنوع واستسلام له ، وكشف لعورات منافسه .

ما دام الزعماء هكذا ، فإن استعباد الغرب للشرق سيطول به الأمد ،
 ولكن سيجيء اليوم الذي لن يستطيع فيه هذا النوع من يتصدون للزعامة

أن يسيروا في هذا الطريق ، وأن ينسجوا على هذا المنوال في مختلف الأقطار العربية . وإنى لموقن أن الشعب العربي قد دخل في طور الالتباه . كان محجوب يجابه بذلك كل من يحبه ، ويأمل فيه خيراً .

هذا مثال من جهاده ، وأنموذج من دعوته ، وما أشق جهاد الذين ينصبون أنفسهم زعماء وقادة رأى ، ولا يؤدون واجبات الزعامة ، ولا يمتكنون غيرهم من أداء هذا الواجب بما يتطلبه من الذمة ، والأمانة ، والمفاداة . وإنه لجهاد أشق من جهاد الأجنبي .

ولقد خلف الدكتور في كل قطر عربي من الشباب من يبشر بهذه المبادئ السامية ، وينادى بها ، ويدعو إليها ، ويبذر بذورها التي أخذت تنمو وتلينع ، تفتح براعمها رويداً رويداً . وأخيراً ترك في جامعة فؤاد الأول نواة طيبة من طلابها ، وشبابها الطامح .

كان الدكتور محجوب يعلق — ساخراً متهماً — على خطب بعض الزعماء الذين ضلوا بسواد الأمة وخدعهم ، حينما يزعمون أنهم ضحوا ، فكان يقول : « ماشاء الله ! لقد فقدت الألفاظ معانيها . » إنهم يتشدقون بكلمات المفاداة ، ويدعون — في صفاقة — أنهم بذلوا جهوداً .

لقد كنا نقبل منهم هذا الادعاء لو أنهم كانوا أغنياء وأنفقوا أموالهم في سبيل الجهاد الوطني ، فافتقروا^(١) في هذا السبيل . أما من كان

(١) كما فعل سيد الأبطال المجاهدين المضحين « محمد فريد بك » ، مثلاً ، وكما ضحى « جمال الدين الأفغانى » ، أو كما جاهد « أمين الرافعى بك » .

فقيراً فأثرى أثناء تزعمه ، فإنه من العجب أن يزعم أنه فادى
بشيء . وتلك هى الرقاعة بأجلى معانيها .

وهنا كان يتمثل بقول القائل :

زعيم ما يفيق من الرقاعة يولى ثم يعزل بعد ساعه
إذا أهل الرشا صاروا إليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعه
وليس بمنكر ذا الفعل منه لأن الشيخ أفلت من مجاعه
ثم يقول : « لو كان أحدهم كبيراً وصغره الأجنبي وحقره ، لقلنا
بذل شيئاً ، ولكنهم كانوا فقراء فاغتنوا ، وكانوا صغاراً فكبروا ،
وحملوا أضخم الألقاب التى تعتبر أعرض وأطول من جغرافية بلادنا ،
فأين إذن تلك المفاداة ؟ »

ذلك هو بعض ما كان يقوله الدكتور محجوب لقادة الفكر
الذين كان يأنس إليهم ، وذلك ما كان يقوله للشباب ..

جاسوس يفسد التدبير

لقد كان من سوء حظ الصاحبين « محجوب وزكى » ، بل من سوء
حظ فكرتهما السامية ، أنهما أصيبا بذلك الدجال الذى وفد إلى مصر
من فلسطين ، وفود الأمراض الوبائية ، ولم تكن له محمدة ولا علو
قدر ، ولا هو بالطاهر الذيل أو اليد .

كان هذا الجاسوس الدجال قد اتصل بشيخ العروبة أحمد
زكى باشا ، مدعياً أنه على اتصال وثيق بزعماء العرب ، وذوى الكلمة
فيهم . فخدع فيه شيخ العروبة ، وأكرم وفادته . فإذا به ينقلب

عيناً عليه ، ينقل عنه أنباء اتصالاته بزعماء العرب ، إلى من يعينهم
الامر من المستعمرين ، مع أنه كان قد جعل من نفسه رسولا
بين « زكى باشا » وبين زعماء العرب .

قال الدكتور محبوب — رحمه الله — : « إن الذى اكتشف
حقيقته هو المغفور له الزعيم التونسى الأستاذ « عبد العزيز الثعالبي » ، وقد
روى تاريخه فى حضور المؤلف .

ومن العجب أن هذا الجاسوس الدجال لا يزال حتى الآن متسلطاً
على بعض العقول ، وإنك لتراه الآن فى حركة « هستيرية » دائمة .
وفى الوقت الذى كان فيه الدكتور محبوب وزكى باشا يعملان
فى سبيل العروبة وجمع كلمتها ، كان هذا الجاسوس على اتصال دائم
بالمفوضية الإيطالية ، يبلغها أسماء زعماء العرب الذين كان زكى باشا
متصلاً بهم . مع أنه — أى هذا الدجال المتسكر — جعل من نفسه همزة
الوصل بين زكى باشا وزعماء العرب . فكان يسلم صور رسائل أحمد
زكى باشا والدكتور محبوب إلى المفوضية الإيطالية قبل توصيلها
إلى من كتبت إليهم .

وأخيراً لما علم زكى باشا بهذه الحقيقة طرد هذا الجاسوس شر
طرده ، ولكن بعد فوات الوقت ، وتمكين الأجنبي من أن يتيقظ
ويقتبه (١) .

(١) لما روى زكى باشا حقيقة هذا المحتال للدكتور محبوب فى
وجود المؤلف ، لم يستطع المؤلف أن يكتفى بهذا الأمر المنكر . فكتب مقالا
ضافياً فى هذا الموضوع نشرته مجلة « الناج » ، التى كان يصدرها المحفل

ومن قبل اعتقلت الدكتور محبوب السلطة العسكرية الإنجليزية سنة ١٩٣٢ وطوحت به إلى معتقل الواحات - وهو الحركة الدائمة في سبيل الوحدة العربية - وكان من زملائه في الاعتقال شيخ العرب «عبد الستار الباسل بك» والمرحوم «محمود بسيوني بك» . وظل الدكتور محبوب معتقلاً إلى أن سعت الرابطة الشرقية - التي كان أحد أعضائها المؤسسين - سعيًا متواصلًا إلى إطلاق سراحه ، وقد نجحت فيما سعت إليه . . .

الماسوني وفي نفس الوقت كان ذلك المقال تعقيباً على ما نشرته المجلة المذكورة بتوقيع الأستاذ محمد عبد الحفيظ رداً على ذلك الجاسوس .

وقد كان مقال المؤلف - الذي نشر بتاريخ ٣ يولييه سنة ١٩٣٦ موضع تحقيق النيابة بناء على شكوى الجاسوس حفظته النيابة إذ كان التحقيق ظريفاً وختامه إلى الحفظ أظرف . على أن ما أذعناه وقتئذ عن هذا الجاسوس المحتال لم يكن إلا صورة مختصرة لما علناه عنه من حقائق رواها لنا الأستاذ شكيب النشاشيبي فقد ذكر لنا أنه كان في مستهل تاريخه يعمل رسول هوى لامرأة في فلسطين وهي التي ألحقته بمصلحة البريد هناك ومنها تطور إلى موظف في قلم المخابرات السرية (أى مرشداً) ولما استغل عمله هذا في النكاية بالآبرياء والتبليغ عنهم زوراً وبهتاناً ، طرد من عمله ، ومن ثم نزع إلى مصر سنة ١٩١٤ وقدم نفسه للسلطات البريطانية التي اتخذت منه معتقلاً - سوريا - ليتجسس على المعتقلين الأتراك في مصر . ولما انتهت مهمته خرج يحوس خلال الجماعات في القاهرة مرتدياً مسوح المجاهدين الأبطال . . . وهو نفسه الذى لم يتورع عن التماس وظيفة الجاسوس عند المفوضية الإيطالية سنة ١٩٣٢ حين استشفع بالأستاذ سامى السراج ليستعين له بواسطة الأستاذ أنطون مندوب شركة التلغرافات الإيطالية .

وقد وصف العلامة المنتصف « محمد كرد علي بك » الدكتور محبوب فقال :

— كان عقله أوسع من أن يحصره في حدود مصر . فقام في ذهنه أن من المروءة أن يصرف جانباً من جهوده في أهل الإسلام والعرب والترك منهم خاصة . ويقول : — محبوب — من لا يهتم بأمور المسلمين (جميعاً) فليس منهم

وهو محبوب الذي سارع إلى إجابة نداء المروءة والإنسانية التي يهتف بها دائماً . فيقدم نفسه متطوعاً لرياسة بعثة الهلال الأحمر سنة ١٩١٢ في حرب البلقان . وقد تجلت شجاعة محبوب الطبيب ، والعسكري ، وهو يخوض المعامع . يحنسو على الجرحى ، ويواسى الذين سقطوا في حومة الوغى .

لقد شهد الدكتور محبوب أروع معركة عرفتها حرب البلقان سنة ١٩١٢ ، معركة استرداد وأدرنة ، بعد انسحاب البلغاريين منها ، فهاله ما فعل جند البلغار بالعذارى من بنات المدينة . فما كان منه إلا أن اتصل بالقائد البلغاري المنسحب ، وخاطبه باسم الإنسانية في تأنيب قاس ، وأفهمه ما في روح الإسلام من تعفف عن إتيان ما آتى البلغاريون من انتهاك حرمت النساء والأطفال والعجزة . وهنا كان لابد للقائد البلغاري من أن يخجل ويعلن اعتذاره في إعجاب بشجاعة رئيس بعثة الهلال الأحمر الدكتور محبوب ثابت وتقديره لتعاليم الإسلام . لقد كان محبوب الواعظ المبشر ، في مواجهة قائد الحامية البلغاري ، وهو يذكر له قول الخلفاء الراشدين ووصاياهم لعساكرهم

بألا يجهزوا على جريح ، ولا يتابعوا مهزوماً ، ولا يروّعوا طفلاً
ولا امرأة ، ولا يمشوا على زرع . . ثم يتلو عليه ترجمة نص
وصية على بن أبي طالب — كرم الله وجهه — لجنوده : « ... فلا
تقتلوا مدبراً ، ولا تصيبوا معوراً ^(١) ، ولا تهيجوا النساء بأذى ،
وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم ، فإنهن ضعيفات القوى والأنفس
والعقول » .

فكم كان « محجوب » شجاعاً في إنسانيته ، إنساناً في شجاعته .
فدائماً في اقتحام ميادين الموت من أجل الجرحى والمصابين يواسيهم
ويمسح آلامهم ، ولو كانوا من صفوف الأعداء .



(١) المعور — كمجرم — هو الذي أمكن من نفسه وعجز عن
حمايتها .

الدكتور محبوب الطيب الخطيب

كان الدكتور «محبوب» في الرعيل الأول من دعاة الوطنية ،
وفي المقدمة من المجاهدين .

كنت أراه في أول الأمر ، ثم رافقته في مستهل الحركة الوطنية
الثالثة ^(١) (في أواخر سنة ١٩١٨) ، فكان من خطبائها البارزين الذين

(١) روى لنا الدكتور محبوب - وأيده في روايته إمام اللغة الاستاذ الكبير
وحيد الأيوبي بك - أن الحركة الوطنية الأولى هي ثورة المغفور له أحمد عرابي باشا
الذي أسمى إليه عمداً ، مع أن غضبته كانت في سبيل الله والوطن . وذلك أن
عراي كان - أثناء حفر إحدى الترع بالسخنة ويسمى بعضها بعض الفلاحين « العملية » -
قد سمع أحد الأهالي من المجندين يستغيث بزملائه صارخاً وهو يقول : « هيلوا
على التراب . عاوز أموت ياناس » . اخترقت هذه الاستغاثة أذن عراي ،
وكان لا يزال ضابطاً صغيراً ، فسأل عن السبب الذي يحمل المجند المصري المستخر
- وقتئذ - على دفن نفسه حياً . فأجيب « عراي أفندي » بأن لهذا المجند -
لا المجندى - شقيقة جميلة تحمل إليه الطعام من القرية وقد درج أحد الضباط
الأتراك على التعرض لها ومرادتها خلال ذهابها وإيابها . وكانت الفتاة
تصدع وتردعه وتشتد عليه إلى حد الإهانة . فما كان من هذا الضابط التركي
إلا أن حملها إلى مخيمه قسراً محاولاً اغتصابها . . . فلما وقف « عراي أفندي »
على جلية الأمر - وهو المصري الصميم - استل حسامه وهجم على خيمة ذلك الضابط
وانزع منه الفتاة ، قوة واقتداراً ، وكاد يطعنه في صدره ، ولكنه ترك الحسام

ظفرت بهم مصر في عهدها الحديث ، فقد كان الخطيب الخلاب ،
الذى يأخذ بمجامع القلوب ، ويستولى على المشاعر والألباب .
كنت تراه : هنا للوطنية مدرساً وخطيباً ، وهناك للجرحى مواسياً
وطبيباً ، وفي جهة أخرى للتاريخ المصرى السودانى قديمه وحديثه
محاضراً وراوي ، داعياً إلى الوطنية ، والاستماتة في سبيل الحرية ،
مهيئاً بالمصريين أن يحتسبوا الأرواح لوجه بلادهم مصر والسودان ،
كان الدكتور « محجوب » ، بحق ، مثالا رائعا للوطنية الصحيحة .

جانباً وقال له : « مثلك ليس جديراً بذباب السيف ، إنما الجدير بك الصفع
على الوجه ، وفعلاً صفعه ، وهو يحتدم غضباً ... »

أقول من قبيل الإنصاف الخالص للحقيقة والتاريخ : إن عمل « عرابى
أفندى » ، وقتئذ كان أول حجر وضع في بناء الحركة الوطنية في العصر الحديث ،
والوعى القومى ، والغضبة المصرية ، ولكن ..

لو بغير الماء حلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى
فإن عرابى المصرى الصميم قد شوه^{وسَّخَّ} تاريخه عمداً ، وغولط في سيرته تعمداً .
يقول شوقي بك :

خلق الناس للقوى المزايا وتجنوا على الضعيف الذنوبا
احتفوا في الحياة والموت بالغا لب فانظر هل عظموا مغلوبا
شيعوا الشاة جيفة بمدام واتقوا وهو في الرمام الذبا
والحركة الوطنية الثانية في العهد الحديث هي حركة المغفور له « مصطفى
كامل باشا » مؤسس الحزب الوطنى الذى ظاهره وناصره بادية ذى بدء المغفور
له الخديو « عباس الثانى » .

والحركة الوطنية الثالثة هي نهضة سنة ١٩١٩ التى قبض على مقودها
« سعد زغلول » . . وقد كان محجوب ، من البارزين في خطباء هذه
الحركة .

ولمصرية السودان وسودانية مصر ، داعية ورمزاً ، وكان سكان وادى النيل بجزأيه يتخذونه على وحدة وادى النيل دليلاً قائماً . وأقسم لو أن أبناء النيل أرادوا أن يقيموا فى منابعه ومصبه تماثيل للأجيال المقبلة ناطقة على وجه الدهر ، للدلالة على وحدة وادى النيل وتماسكه الذى وصله الله ، وعلى أن ما وصله الله لن يستطيع الخلق أن يقطعه ، فلن يجدوا غير تمثال للدكتور « محجوب » دليلاً على هذه المعاني العالية ، والمبادئ السامية .

محجوب فى معركة الانتخاب

كان موقف الدكتور « محجوب » حرجاً حينما رشح نفسه لعضوية مجلس النواب . وكان هذا الموقف دقيقاً يحتاج إلى كثير من سعة الحيلة وبعد النظر . على أنى أستطيع أن أقول : إن أكثر الناس تحملاً وصبراً على التجنى لم يكن يستطيع احتمال ما احتمله الدكتور « محجوب » من الحرب الكلامية التى شهرت عليه ، ولكنه تلقى الهجوم العنيف فى صبر وجلد ، وشجاعة نادرة المثال .

درس فى أدب السياسة والانتخاب

كانت دائرة « مينا البصل » بالإسكندرية حصناً من حصون الوفد الذى يرأسه « سعد زغلول » خطيب الثورة ، وعلى الرغم من أن مصير كل من ينافس مرشح سعد هو الخذلان حتماً ، فإن الدكتور « محجوب » ثابت ، كان شديد الثقة بالفوز الباهر .

ولشدّ ما كان مغتبطاً بخوض معركة الانتخاب لأنه كان مغرماً بحرب الكلام . . قدّر أن الوفد سيقوم بتجريد قواته من الخطباء لمحاربتة ، بل لقد وجه إليه الإنذار بذلك صراحة لا تليحاً ، فكان رده : « إني جد مغتبط ومسرور . مرحباً ، . مرحباً . . سأكون القدوة الحسنة في شرف الخصومة . . سألقى درساً في الأدب السياسي ، سأنافس الأوروبيين ، بل الإنجليز ، في تجريد الأسلحة الشريفة . سأجعل المعركة الانتخابية ميداناً للرياضة ، ووسيلة للتوجيه وتعليم الشعب المصري الكريم ، سأكون الطبيب المداوى للخصم اللدود القديم والعتيق ، والصادق الحميم . سأجعلها معركة يتجلى فيها الخلق الكريم والمبدأ العظيم . يحىّ فيها المنتصر خصمه المنهزم . ومادنا نسعى إلى غرض واحد وهو خدمة هذه الأمة "فحبذا ناضل منا ومنضول" وإذا فاز منافسى فسأبتدعه بإزجاء التهتهة ، .

* * *

كان الدكتور « محجوب » من خطباء الحركة الوطنية . وكان الشيخ « مصطفى القاياتي » زميلاً له مضارعاً . وكان من أبطالها الصناديد وخطبائها المفوهين ، ومن ذوى الألسنة الذرّة ، والمكانة العالية في نفوس الخاصة . والتأثير الشديد الذي يفعل فعل السحر في قلوب العامة ، كان قوى العارضة شديد المراس .

كان الوفد قد جرد « القاياتي » سيفاً مسلولاً على رأس الدكتور محجوب . إذ كان لسانه لسيف الحجاج حقاً شقيقاً . وكان الدكتور محجوب له ندأ . حتى إذا ما غضب أصبح لسانه لسيف ابن الوليد صنواً . وكان

الأستاذ النقراشي يومئذ منظم لجان الوفد وداعيته ، ومالك قيادة الشباب في الأمة . فكان يعاون الخطيب الداهية في الحرب الانتخابية ضد الدكتور محبوب .

قوتان لا يستهان بهما . وداهيتان يعمل لهما ألف حساب . هما : القاياتي ، والنقراشي . ويكفي أنهما تظاهرا بأنهما في الحركة رسولا سعد زغول زعيم الأمة الذي كانت إشارته أمراً يمثل به أبناء البلاد واجب التنفيذ ، مرعى الجانب ، كأنه قانون نافذ .

القاياتي الخطيب اللسن . النقراشي المدير المنظم ، ابن الإسكندرية المشهور ، العارف بأهلها المدرك لطبائعهم ، المخلص لكل ركن من أركان الثغر ومنازع سكانه الأصليين والواردين ، وخبايا المدينة وصناديقها . فماذا يفعل محبوب وليس في جعبته من ذخيرة وليس له أعوان غير البديني ، ومصطفى مكاوي ، وعلى فرحات ، ومحمد يوسف ، وصالح السوداني ؟ .. وكانوا جميعاً « على فيض الكريم » . اللهم إلا ما انضم إلى هؤلاء نفر من أهل الإسكندرية الذين ناصرُوا الدكتور محبوباً وأكرموا وفادته ، بما سجل لهم من مآثر . مات محبوب وهو حافظ لها ، لم ينسها أبداً . . .

الدعاية في الانتخاب

كانت طريقة الدكتور « محبوب ثابت » ، فريدة في نوعها ، بارعة في أسلوبها ، عجيبة في تأثيرها . جمعت بين الشدة واللين ، وبين المهارة والمقدرة ، والقوة الصامدة ، وبعد النظر ، والجدل المهذب ، إلى حزم

وعزم تتضامل أمامهما القوى ، وتصلب في بعض المواقف ، وتسامح مع التسامى في مواقف أخرى .

وبالرغم من أن موقف الدكتور كان حرجاً ، يحمل أكثر الناس حلياً وعقلاً وتحملاً ، وسعة صدر على الخروج على الاعتبارات الكثيرة ، وتناسى الصداقة ، وتجريد المناصرين على المعادين ، فإنه جنح في خطبه ودعايته إلى العتاب الجميل ، يوجهه إلى القايقي أمام الناصحين ، حتى ليشعر الحضور « كأن القايقي مائل أمامه » يذكره بالزمالة في السجن ، والاضطهاد ، والتشريد ، والجهاد . ثم إذا به يوجه كلامه إلى النقراشي : « نقرش^(١) يقيناً يا ولدي » يذكره بمثل ذلك ويذكره بالإخاء ، والصفاء وأنهما عملاً معاً في سبيل الوطن .

ثم يظل يروى للناخبين تاريخ الحركة الوطنية ، مشيداً بمواقف « النقراشي والقايقي » ، مقرأ بفضلهما ، مثناً على وطنيتهما ، وحيث كان يرتفع بالسامعين إلى قمة عالية من شرف الخصومة ، ينتزع منهم الإعجاب والتصفيق والتأمين على ما يقول . . . ثم يتحول إلى « سعد » في لباقة وظرف مصحوبين بالعتاب الجميل والأسلوب البارع ، ناعماً إياه بزعيمه ، ورئيسه ، ورمز الأمانى القومية ، و« نبي الوطنية » ، والمثل الأعلى للجهاديين . وهنا كنت تراه كأنه قد استحضر سعداً أمام الناخبين ، يشكو سعداً إلى سعد ، ويشكو سعداً إلى الناخبين ، في تنبيه لطيف . . . وإذا بك تشعر أنه قد ارتفع بالسامعين من الناخبين كأن

(١) « نقرش » كلمة تدليل كان الدكتور يخاطب بها النقراشي باشا لأنه

كان يمزّه .

سعداً وزملاءه بينهم يسمعون ، وكان النقراشى والقياقي يصفقان مع المصفيقين فى الحفل ، وإذا به يوجه إليهم عتاباً قوياً مليء ودأ وحشياً مؤاخذه ، مبرزاً ذلك فى إطار من الأسف والحياء . ويعود فيرتفع بالسامعين مرة أخرى إلى سماء الوطنية ، والغرض الأسى ، والأمل المرجو ، ثم يخلق بهم إلى مشروعاته واقتراحاته التى سينادى بها فى مجلس النواب يخلق بهم إلى سماء المجد وميدان الكمال . فإذا الكلمات ترتطم فى فمه ارتطاما ، والعبارات العاليات تشتجر اشتجارا على لسانه ينثرها درراً . وإذا به يعود بهم إلى سعد مناجياً : « ياسعد ، أنا معك رضىت أو لم ترض ، ما دمت للوطنية رمزاً . أنا معك وبجانبك مجاهداً ، وأنت معى بمشاعرك وحبك وقلبك . أما النقراشى والقياقي ، زميلائى ، فإنى أود أن أقول : إنك أوفدتهم إلى الإسكندرية لمعاكستى من قبيل المزاح والمداعبة ، لا أحب أن أصدق أنهما من الخصوم وإلا فعلى الدنيا العفاء » (١) .

(١) كان السيد مرسى الذى استقال من مجلس النواب قد أصدر منشوراً يقول فيه : إن الدكتور محجوب ليس وفدياً ، وظنه الدكتور من عمل النقراشى فهاج وماج ، وخرج من عيادته يقول : دوى .. دوى .. أنسى سعد ، ونسيت الأمة ، كيف جمعت المال للوفد ، وحملت الناس على التبرع له .. وكيف ضحيت فى سبيل ذلك بمالى ، وضحيت بوقتي .. أجوب خلال الديار ألقى الخطب فى كل مكان داعياً للوفد ... ثم توجه وقابل سعد زغلول فى مجلس النواب — وكان رئيسه حينذاك — ولما اعترضه الأستاذ محمود الغزالى بك قائلاً : إن سعداً أمره بالآ لا يمكن أحداً من مقابلته مادام مع عدلى باشا رئيس الحكومة غضب الدكتور وصاح فى وجهه : « لا أنا .. » فلما سمع سعد

ثم يظل ينتقل بالسامعين من موضوع إلى موضوع، كما يقول شوقي :
 لم نسر من حرم إلا إلى حرم كالخمر من بابل سارت لدارينا
 ثم يعرج^(١) إلى سعد مرة ومرة ومرة، يهز المشاعر هزاً، ثم إذا به
 - بعد ذلك - يوجه كلامه إلى سعد، مستطرداً كأنه حاضر مع الناهخين :
 « إن لك يا سعد على حقوقاً، وإن لي عليك حقوقاً . وهأنذا أراك
 بالحس، توشك أن تضيع حقى، ولم أضيع لك حقاً، ولكنى أحب
 أن أكذب ما بلغنى » ثم يوجه كلامه للناخين : « قولوا لسعد
 إن محجوباً يقول : إذا تكلم المتكلمون عن الوطنية فإنى الوطنى،
 زميل مصطفى كامل، ومحمد فريد، وأمين الرافعى . ثم زميل سعد،
 ومحمود سليمان، وعبد الرحمن فهمى . . . ثم يقول للناخين : « أحقاً
 أنا بحاجة بعد ذلك الجهاد الطويل المرير لأن أذكى نفسى، وأن أقيم
 الدليل على وطنيتى ؟ » .

ثم يتلو على الناهخين نداء كان المؤلف قد نشره بجريدة الأهرام
 يدعو فيه للدكتور محجوب . . .

صيحته خرج من مكتبه منطلقاً . فابتدره الدكتور قائلاً : « يقولون إن النقراشى
 يرمى بأفنى لست وفدياً . . أفهل أتم موافقون على هذا ؟ » . .
 فغضب سعداً غضباً شديداً لهذه التهمة، وقال : « أنا لا أنكر ولا أستطيع
 أن أنكر فضل محجوب على الحركة الوطنية . . وإنى لا أوافق، وإلا كنت
 سخيلاً وناكراً للجميل . »

(١) عرج يعرج (بالتشديد) بمعنى « يعوج » . . أما عرج بفتح العين
 والراء فبمعنى « صعد، ومنه المعراج » .

ثم يسترسل بعد ذلك : « أيها الناخبون . . . أيها المصريون . . . أنا أشكو إليكم زملاًتي .. قولوا لهم ، وقولوا للقائاتي الذي قال لكم : لو رشح سعد خادمي لانتخبته ، أريد زميلي في الجهاد ، ورفيقي في النفي والتشريد ، أن يفضل خادمه عليّ ، هل تقبلون ؟ إنى أطالبكم بالرد عليه رداً مقنعاً حاسماً . هو انتخاني . . . قولوا لهم : إن محجوباً يقول : ما هو الوطن ؟ وما هي الوطنية ؟ وأنا الذي شقيت بها غرساً ، وجنيته حنظلًا وتعذيباً ، وفقراً بعد غنى ، وتعباً بعد راحة . . . فمن يكون الوطنى إذا لم يكن محجوب هو الوطنى ؟ .

وهنا يذكر للناخبين سلسلة أعماله . ثم يعرج بهم مرة أخرى على سعد ، وعلى النقراشى ، قائلاً : قولوا لسعد ، بل قولوا لزميلي النقراشى والقساياتى : هبا أن محجوباً قد أساء مرة - مع أنه لم يسيء ، بل أسىء إليه - فهل تذهب هذه الإساءة بكل حسناته ؟ .. إن الله غفار الذنوب .

، أيذهب يوم واحد إن أسأته بصالح أعماله وحسن بلائها ؟
وهنا ترى بعض الناخبين يسكون ، مع أنهم المتعلقون بسعد ، فإذا بهم يقسمون على أنهم سينتخبون محجوباً .

وسافر أعيان الدائرة إلى القاهرة على نفقتهم وقابلوا « سعداً » ، وصارحوه بأنهم مع تمسكهم بسعديتهم سينتخبون الدكتور « محجوب » ، وسينصرونه وإن أصر الوفد على ألا يزيكه ، لأنهم لا يستطيعون أن ينكروا عليه جهاده وماضيه .

لقد كان اهتمام المصريين والعلماء والأطباء من الأجانب بالمعركة الانتخابية شديداً بالغ الحد طوال أيام الانتخاب، كلهم يرجو للدكتور النجاح. ومن العجيب أن الوفدين الذين كانوا ينظرون إلى كل من ينافس مرشح الوفد شزراً، كانوا في هذه المرة ينظرون إلى مرشح الوفد شزراً.

مساء يوم الانتخاب

ظلت الهيئات السياسية والأفراد والجماعات في مصر متلهفة قلقلة تتسائل عن نتيجة المعركة الانتخابية. وظلوا إلى الهزيع الأخير من الليل، على اختلاف نزعاتهم — وفي مقدمتهم غلاة الوفدين — يتصلون تليفونياً بالإسكندرية متسائلين عن نتيجة الفوز، راجين أن يكون الدكتور «محبوب» هو المنتصر، وظلت أسلاك التليفون بين القاهرة والإسكندرية تهتز، وعاملات الستراي يعانين الإرهاق بما تراحم عليهن من طلبات خطوط الإسكندرية بالسؤال عن نتيجة الانتخاب. فهذا شوقي أمير الشعراء، وبجانبه داود بركات، وحافظ إبراهيم شاعر النيل، وهذا محمد محمود، وهذا عبد الجليل أبو سمره. وكلهم يتصلون بالإسكندرية متسائلين متلهفين. ها هو ذا نعمان الأعسر، وسعد زغلول نفسه وهو زعيم الأغلبية ورئيس مجلس النواب يطلب في صراحة واهتمام أن يخلى له خط التليفون للإسكندرية وكذلك إسماعيل شيرين بك ينتهل إلى الله أن يجعل النصر حليف صاحبه الدكتور محبوب.

وهذه نقابة عمال القطر المصري ترابط بجموع رجالها في دار

النقابة ، وهام أولاء طلاب الجامعة ، وطلاب المدارس العليا وطلاب المدارس الثانوية . . . وهام أولاء بنو النوبة والسودان وجميع طبقات الأمة يجوبون الشوارع متسائلين عن نتيجة المعركة في أمل ورجاء أن يكون الفوز للدكتور محبوب .

وكنت ترى نعيان باشا الأعسر عمدة المحلة الكبرى يدخل دار الأهرام طالباً بالباح أن يمكنه من الاتصال بالإسكندرية ، فيكون الجواب : أن الخط مشغول . وإذا به مع ضخامة جسمه لا يرى إلا وهو يرتقى سلم ناد من الأندية الكبرى أو يهبط منه متلبساً سيلاً لتليفون غير مشغول ليتصل بالإسكندرية . ثم إنك كنت ترى مكاتب الصحف الأجنبية والشركات التلغرافية ، يغشون في لفة إدارات الصحف المصرية متسائلين عن نتيجة تلك المعركة .

* * *

فلما وصل النبأ بانتصار الدكتور محبوب إذا بالكل يغتبطون ، وكأن كلاً منهم قد أصبح منتصراً ، وإذا بالعامل يشعر كأنه أصبح نائباً ، وكذلك الطالب قد احتسب نفسه فائزاً ، وأن قضية الاستقلال في نظر كل منهم قد تقدمت خطوات متسعة المدى .

عودة المنتصر إلى العاصمة

وفي مساء اليوم التالي خرجت مصر في جموع محتشدة لاستقبال الدكتور محبوب ثابت واكتظت محطة مصر وفناؤها الخارجى بالمستقبلين ومكاتب الصحف الأجنبية والشركات التلغرافية .

واتخذ البوليس الاحتياطات الدقيقة لحفظ النظام خشية الجموع

الحاشدة من العمال أن تخرجهم نشوة النصر عن جادة الاعتدال حتى لقد ظن هذا العمل عدائياً .

الاستاذ الجديد

أزال ظنون الاستقبال العدائى للدكتور محبوب ثابت — من قبل الحكومة — أنهم فوجئوا برسول سعد ومندوبه الأستاذ عبد الرحمن الجديد . . .

ولانى لأذكر أنه لولا نعمان باشا الأعسر وظرفه وخفة روحه على رصيف المحطة ، لوقعت حوادث دامية بين العمال والبوليس ، ولأريق دماء ، وأزهقت أرواح بغير موجب . وذلك أن أحد ضباط بلوك الخفر كان أرعن . إذ قال للمستقبلين فى صلف : إن كل من ينادى بحياة أحد سأقبض عليه . وطلب أن يظلوا ساكتين وأن يخرجوا ساكتين (١) !

فأجيب الضابط بالهتاف : « يحيا الدكتور محبوب ، نائب العمال ، ونائب الأمة ، وقيل له : « افعل ما تشاء » وحذر من مغبة تعرضه لآى انسان . . . فصفق نعمان باشا الأعسر ونادى بحياة الدكتور محبوب . ثم وجه كلامه إلى الضابط ضاحكاً متهكاً : « أنت دسيسة على سعد ووفده ، لأنك تعمل على إحداث فتنة فى مثل هذا الحشد الزاخر . وإذا بالضابط يستسلم للأمر الواقع ، فيرتد وديعاً ، وكان متمراً .

(١) وقد وجه كلامه إلى المؤلف .

قدوم النائب المنتصر

وصل القطار وسط ضجيج الهتاف والتصفيق، وما ظهرت طلعة الدكتور « محجوب » حتى اندفع العمال كالموج محاولين حمله على الأعناق . فإذا به يصيح بصوته المدوى : « لا . لا . أنا لا أحمل على الأعناق ، إنما يحمل على الأعناق الصريع . أما أنا فلا أحمل إلا بعد موتى ، أما وفيّ عرق ينبض ، ونفس يتردد . فلا ،

وهنا جاء الاستاذ عبد الرحمن الجديلي ، رسول سعد ووقف أمام الدكتور محجوب وجهاً لوجه يبلغه أن « سعداً » يستدعيه لمقابلته حالا . وما أن ركب الدكتور « محجوب » مع رسول سعد حتى أعلن نعمان الأعسر باشا اختفاء الدكتور « محجوب » بما سماه اختطافاً من « سعد » بواسطة رسوله .

ثم وقف موقف الخطيب قائلاً للجماهير . « روحوا لسعد وقلوا له : نريد الدكتور . . . »

فتألفت مظاهرة مرحة ، توجهت إلى بيت الأمة وأخذت تنادى : « عاوزين الدكتور محجوب » .

الدكتور محجوب في مجلس النواب

بعد أن قابل الدكتور محجوب سعداً ، توجه معه إلى مجلس النواب . وما أن أهل على المجلس حتى تجمع النواب لاستقباله

بالتصفيق الشديد ، وانساق معهم الزائرون كأنهم قد أعدوا حفلة تكريم لمحبوب ثابت النائب الجديد . وكذلك قوبل داخل قاعة المجلس بالتصفيق .

لم أر المغفور له « سعد زغلول » أكثر مرحاً ، ولا أوفر انشراحاً منه في تلك الليلة . وكذلك كان شعور أعضاء المجلس كأنه كان ينقصهم شيء ، وقد استكملوه بدخول الدكتور محبوب بينهم زميلاً .

كان المجلس ينظر في ميزانية وزارة الدفاع الوطنى أثناء دخول الدكتور ، وكان أحد النواب يتكلم عن الجيش وعن التجنيد . وإذا بالدكتور النائب البكر ينتزع الكلمة من النائب المتكلم بين التصفيق ، ويلقى خطبة رنانة مدوية ، وإذا بسعد يوجه كلامه إلى النواب في دعاية حلوة قائلاً : « أول ماشطح نطح » . قالها والفرح يتجلى في أسارير وجهه .

وعقب ارفضاض الجلسة ، استبقى « سعد باشا » الدكتور معه وقال له : « يادكتور ، إن اقتراحاتك في محلها ، وواجب تنفيذها . وستكلم فيها دائماً ، وسنشرك معنا ذوى الخبرة من الفنين » . فرد عليه الدكتور محبوب في حماسة واصرار قائلاً : « وقبل كل شيء مسألة التجنيد الإجبارى . ودفع ضريبة الدم ، بلا فارق بين غنى وفقير ، وإلغاء نظام البدل ، حتى لا يكون قوام الجيش من الذين عجوزوا عن افتداء أنفسهم بدفع الـ ٢١ جنيها » .

من مداعبات سعد زغلول

دعابة سياسية

كان سعد باشا قد أوعز إلى أعضاء لجنة الطعون بمجلس النواب بأن يتباطأوا في تقديم تقرير الطعن المقدم ضد الدكتور محبوب، وأن يرجئوا قرارهم إلى أطول مدة ممكنة لتظل نيابة الدكتور معلقة، ولتكون مسألة الطعن مادة دسمة للدعابة يستمدونها من إحراج مركز الدكتور. وكان معروفاً متداولاً - في همس وخفاء - بين جميع النواب، أن الطعن المقدم لم يكن جدياً، بل كان أمراً مدبراً من أصدقائه وأحبائه أنفسهم. على أن الدكتور كان كثير الشكوى والتأفف من تباطؤ اللجنة في الانتهاء من تقرير الطعن. وكان يقابل سعد باشا رئيس المجلس - وقتئذ - في اليوم عدة مرات شاكياً من تعنت اللجنة وتعمدها عدم تقديم تقريرها إلى المجلس، ولم يكن يدور في خلد الدكتور محبوب - في بادئ الأمر - أن سعد باشا هو الموعز بعدم البت في صحة نيابته، فكان يقول لسعد: «أظن أن المسألة المصرية والمشاكل الدولية ستحل قبل أن تحل مسألة صحة نيابة محبوب».

وبعد مقابلة سعد مئة مرة تخللها كثير من الدعابة المرحية المهذبة. أوعز سعد باشا إلى اللجنة أن تقدم التقرير... وحتمَّ عليها أن تعلِّمه

باليوم الذى ستحدده للنظر فى الطعن . حتى يكون على منصة الرئاسة ، وكان من المعلوم عند سعد باشا وجميع النواب - فى تسكتم عن الدكتور - أن لجنة الطعون انتهت من قرارها برفض الطعن وصحة نيابة الدكتور . . .

وكان سعد قد كلف النقراشى باشا بأن يتصل بالنواب ، وأن يتفق مع كل من : حمد الباسل باشا ، وعلى أيوب بك ، وآخرين ، على أن يوزعوا أنفسهم بين متكلم عن صحة نيابة الدكتور محجوب وبين متكلم عن بطلانها . . . وفى الجلسة المحددة للنظر فى الطعن كان يتأأس المجلس أحد الوكيلين ، وكان سعد باشا لا يزال فى مكتبه بدار المجلس . فتوجه إليه النقراشى باشا وأخبره بأن المجلس سينظر الآن فى صحة نيابة الدكتور محجوب ، فنهض سعد مهرولاً إلى قاعة الجلسة ، كأنه شاب فى عنفوان شبابه . . .

لم ير سعد يجرى بتلك السرعة قبل ذلك اليوم ولا بعده . . . ومن الطريف أن سعداً كان قد كلف بعض أصدقاء الدكتور أن يدخل فى روعه أن الأحرار الدستوريين - وعلى رأسهم محمد محمود باشا - هم الذين يصرون على إرجاء نظر الطعن المقدم ضده ، وإفهامه أن سعداً يرشح الدكتور ليكون أول وزير للصحة - وكانت لا تزال مصلحة - وأن الأحرار الدستوريين يرشحون الدكتور حافظ عفيفى وكان سعد قد اتفق مع محمد محمود على أن يدس على الدكتور من يؤكد له ذلك . وقد فعل ، ورسخت هذه الفكرة فى رأس الدكتور . لذلك ظل يطالب بعرض تقرير لجنة الطعون الخاص به على المجلس .

فلما قرر المجلس نظر الطعن - وكان سعد باشا على منصة الرئاسة - طلب بعض النواب تأجيل النظر في صحة النيابة ، وقد عارض الدكتور في التأجيل بشدة ، فوقف أحد النواب طالباً التأجيل ، بحجة أن قرار اللجنة وزع على النواب في وقت ضيق فلم يتسن لهم درسه . وإذا بحمد الباسل باشا يطلب الكلمة ، وهو يتصنع الجذ ، فيقول : يا حضرات النواب ... أنا أطلب التأجيل حتى لا تتعجل في حرمان المجلس من رجل في مثل مكانة الدكتور العلمية وسعة معلوماته وتجاربه . فوقف الدكتور غاضباً وقال : لا ياسيدى أنا لا أقبل أن تكون نيابتي معلقة . وأن يكون عدم النظر في الطعن كإحسان منكم . وأتمسك أن تعانوا بحق رفض الطعن أو قبوله إن كان ما ترونه حقاً . وقال كلاماً كثيراً في هذا المعنى . وهنا أعلن سعد أن الكلمة لحضرة النائب المحترم على أيوب بك . فإذا بالأستاذ على بك يعلن أن اللجنة قد أخطأت في تقرير رفض الطعن ، مدللاً على ذلك بخطأ حسابي وقعت فيه اللجنة في عملية جمع الأصوات المعطاة للدكتور ، وهو خطأ قد يكون غير مقصود . وكان على أيوب بك يعلم ذلك وهو مقتنع بصحة نيابة الدكتور محبوب ، ولكنه كان متأمراً بقصد الدعاية والإحراج تنفيذاً للخطة التي رتب أدوارها سعد باشا . فروّع الدكتور ، واعتزى أعضاء المجلس الوجوم خوفاً أن يحرموا من زمالة محبوب ...

وهنا يطلب سعد « الرئيس » من على أيوب بك أن يعيد الكلام بتؤدة حتى يستطيع الرئيس أن يفهمه ، حتى إذا انتهى على أيوب بك من كلامه تظاهر سعد بأنه لم يفهم كل كلامه .. ويطلبه

مرة أخرى بأن يعيد القول من جديد . ويظل على بك يكرر هذا الكلام - الذى يفيد معنى وجوب قبول الطعن - أربع مرات .
 هنا يتراعى لمراد الشريعى بك أن على بك كان جاداً .. لأنه لم يفتن إلى أن على بك كان يستغل خطأ لجنة الطعون فى عملية جمع الأصوات من جهة .. وضم الأصوات الباطلة التى أضيفت إلى منافس الدكتور - خطأ - من جهة أخرى ، فأسرع مراد بك إلى منصة الخطابة مندهشاً ، منفعلًا ، وهو يقول لعلى أيوب بك : « ما هذا ! أنت جاد فيما تقول ؟ » ، وقد كان فى غاية الأسف والالام . فأجابه على أيوب بك : « وهل تحسبني أمزح فى مثل هذا الموقف ؟ » ، ثم استرسل فى تكرار كلامه بتؤدة وتأنٍ ، دون أن يبدو على أسارير وجهه أنه يغالط .

إلى هنا كنت ترى الدكتور محبوب فى مقعده بين النواب كلما أخذ ، وخلفه يجلس النقراشى باشا متظاهراً بالأسف ، وفى يده جريدة يروّح بها للدكتور .. ولما طلب الدكتور أحمد ماهر الكلمة ليفند كلام على أيوب بك .. قال سعد باشا للدكتور ماهر : « اصبر يا حضرة النائب حتى ينتهى حضرة النائب المتكلم » .

وكان الدكتور أحمد ماهر قد خشى على أعصاب الدكتور محبوب أن يؤثر فيها استمرار على بك فى تردد كلامه ... ولما انتهى على بك من كلمته وختمها بطلب التأجيل على الأقل .. إذا بصوت الرئيس سعد يتجلى فى روعته المدوية : « الكلمة الآن لحضرة النائب المحترم الدكتور محبوب ثابت » .

الدكتور محبوب : يا دولة الرئيس . . يا دولة الرئيس . . أمزاح

هذا أم جد ؟

الرئيس : بل جد في جد !

الدكتور محبوب : إذن أطلب التأجيل !

الرئيس : قلنا ذلك . وأنت الذي أصررت على عدم

التأجيل ، وعليه فطلب التأجيل الآن مرفوض .

الدكتور محبوب : إن كلام على بك أيوب جاء مفاجأة لي ولإخواني

وتحتاج هذه المفاجأة إلى إمعان النظر . . .

ولا تنس يا دولة الرئيس أنتي الوفدي الأصيل !

الرئيس : وهو كذلك . . الآن الكلمة للنائب المحترم

الدكتور أحمد ماهر .

وقف أحمد ماهر بين دوى من تصفيق المجلس ، وأخذ يفند

أقوال على أيوب بك مبنياً للمجلس كيف أنه تعمد استغلال أخطاء

مطبعة وقعت في تقرير اللجنة استغلالاً قصد به مداعبة الدكتور

محبوب . فلها ختم كلامه معلناً رفض الطعن قوبل ذلك بالتصفيق

والموافقة ، وتحول وجوم النواب إلى اغتباط وسرور .

تجمع النواب حول الدكتور محبوب ، وحملوه قسراً على أكتافهم

إلى « بوفيه المجلس » في مظاهرة مرحية . وكانت مداعبة الزمالة

الحلوة الخالصة ، وأخذوا يطالبون الدكتور بأن يوزع عليهم الشرابات .

ولإذا هو يرد عليهم بدعابته المستملحة فيقول لهم : « أيها النواب

الزملاء . أشكركم . . أشكركم . . أشكركم . . عندما يمرض أحدكم

سأعالجه بغير مقابل ، . ولكنهم أصروا على مطالبته بالشربات والليمونادة . فأخرج قطعة من ذات القروش العشرة وناولها إلى عامل البوفيه وهو يقول : « يقيناً يا ولدى هذا المبلغ فوق الكفاية . اسقهم جميعاً ما يطلبون . . . » . فلما اعترضوا قائلين إن مبلغ عشرة قروش لا يكفي ماتى نائب . قال لهم : « فقط عشرة قروش على قدر الحال - وهى كل مامعى . فإذا أقرضنى أحدكم مقادير من جنهيات ، وبالتقسيط بواقع الشهر عشرة قروش ، أسقيتكم شربات وماتشاؤن من غير الشربات والليمون والقهوة بأنواعها » .

لقد كنت أخدعهم

حدثنى الدكتور « محجوب » أنه كان يعلم إلى حد ما أن المؤامرة الحبية المقصود بها المزاح : « كانت مدبرة ضدى . ولكننى تغايبت وتظاهرت بأنى قد خدعت ، ولا تنس يا ولدى قول معاوية بن أبى سفيان : « إذا خدعك إنسان وانخدعت له . وأنت عالم بأنه يخدعك فأنت الخادع لا من خدعك » اسمع : لاتصدق بأنى كنت مخدوعاً ، أو مأخوذاً ، حينما كان يسندنى « نقرش » ويروح علىّ بالجريدة . لا تصدق يا ولدى أنى كنت مروّعاً خائفاً . إنما كنت أقارضهم مزاحاً بمزاح ، ودعابة بدعابة ، وضحكاً بضحك وهل تصدق أنى لم أفهم كلام حمد الباسل ، أو أنى لم أفطن إلى طريقة على أيوب وإلى مكر أحمد رمزى مقرر اللجنة ؟ غاية الأمر أنى كنت فى مسألة وزارة الصحة وترشيحى لها بين الشك واليقين . أما الشك فلأنى كنت أعلم أن متطلبي هذا المركز كثيرون وأن سعداً كان

مخرجاً - ولا تنس الجهة التي تريد أن تستأثر بها شاهين باشا - .
وأما اليقين فلأنى أعتقد أن ليس في مصر من هو أولى منى بوزارة
الصحة ، وذلك لجهادى وسابق خدماتى ، واقتراحاتى المعروفة للخاص
والعام . ثم لأنى كنت أتمسك بهذا المركز ، لا تحرقاً عليه ، ولا
غراماً به . ولكن لأنفذ ما كنت أطالب به من إصلاح . وهل
هناك ما كان يجعلنى أكبر المنصب على نفسى بعد أن رأيت تلاميذى
قد أصبحوا وزراء . أما مسألة إيجاء سعد باشا إلى لجنة الطعون
بإرجاء النظر فى صحة نيايتى فقد فهمتها وهى « طائفة » فهمتها تماماً
وكنت أعلم السبب الذى حمل سعداً على أن يمزج الجدل بالمزاح ،
وهذا السبب : هو أن الجرائد الإنجليزية كانت قد ذكرت فى مقالات
ضافية أن نجاحى على مرشح الوفد دليل على تحول رأى العام
فى مصر عنه ، واعتبرت هذا النجاح بدء تقلص نفوذه فى البلاد .
فكل الذى رمى إليه سعد من تعطيل البت فى صحة نيايتى - فى الوقت
الذى حملنى على ملازمته فى غدوه رواجه - موحياً إلى الجرائد
بأذاعة هذه الملازمة وإعلانها . ليكون ذلك بمثابة رد على إحدى
الجرائد الإنجليزية الواسعة الانتشار ، وهى التى زعمت أن فوزى فى
الانتخابات على مرشح الوفد قد جاء أول مسبار فى « نعش نفوذ
سعد » . ولقد كان الإنصاف والوفاء منى للناخبين الذين انتخبونى
بالرغم من تمسكهم بسعديتهم ، إلى حد أن أعيان الدائرة كانوا قد حضروا
من الإسكندرية وقابلوا سعداً وصارحوه بأنهم مع تمسكهم بزعامته
سينتخبونى : - نعم كان الإنصاف يقضى على أن أتجه إلى الهدف

الذى رعى إليه سعد ، وأن أتغابى عن تلك الدعابات يا ولدى .
 ليس الغي بسيد فى قومه لكن سيد قومه المتغابى
 ولذلك أشعرت إخوانى وزملائى ، بأنى كنت أجهل إيماء سعد إلى
 اللجنة . وكان قيناً بى أن أضيف إلى سلسلة تضحيات المتصلة الحلقات
 تضحية جديدة زهيدة ، بأن أغض الطرف عن الزهو الشخصى والفخر
 بفوزى على مرشح الوفد ، وهيله ، وهيلمانه ، وسراقاته ، ونقوده .
 وكان الجدير بى أن أقر بالجميل لأعيان دائرة « مينا البصل » والناخبين
 النبلاء . وأن أحافظ على مشاعر الأعيان الذين لم يكتفوا بمقابلة
 « سعد » بعد أن تكبدوا مشاق السفر ونفقاته ، بل عادوا إلى الشغل
 الاغر ينفقون من خالص أموالهم نفقات المعركة الانتخابية وما يتطلبه
 الطواف والتنقلات . وليس هذا فقط ، بل لم يتركوا لى فرصة
 لأضع يدى فى جيبى إلى حد أنى لم أنفق دانقاً ولست أنسى
 يوماً نزلنا فيه أثناء الطواف بمقهى « الحاج » المعروف فى « كوم
 الشقافة » وقد تجملت أريحية صاحب المقهى بتكريمه لى فى تعريجه
 على مقهاه أن احتسب على نفسه جميع ما قدمه لرواد المقهى عند
 وجودى وهم ملتفون حولى ، وكانوا يتجاوزون المئات وتكررت منه
 هذه الأريحية مرات . فإذن لم يكن من الوفاء يا ولدى لهؤلاء النبلاء
 إلا أن أبقى على الوفاء وصلة الود والمحبة بينى وبين « سعد » من
 جهة ، ومن جهة أخرى كان لزاماً على أن أبرّ بوعدى لأهل الدائرة
 الذين عاهدتهم بأنى سأظل على سعديتى ، وفى نفس الوقت ، كان
 على أن أعمل على أن لا يشمت فى « سعد » أصحاب الجرائد الإنجليزية

الذين استغلوا نجاحي استغلالاً غير كريم ، لا حجباً في شخصي ،
ولكن شماتة في سعد ، تلك هي الحقيقة . على أني صارحت النخبين
وأعيان الدائرة : بأنني سأكون مع «سعد» مع الاحتفاظ بحرية
رأبي في المسائل الوطنية الكبرى ، وعلى رأسها وحدة وادي النيل ،
فإذا عجزت عن إقناعه بوجهة نظري ، فسأكون مستقل الرأي مع
الاحتفاظ بالاحترام المتبادل بيننا . ثم قال : تلك هي الحقيقة التي
لا مرية فيها .

أرايتم أيها الناس مثل هذا الشعور الكريم تظهره هذه الصورة
الرائعة التي تحوى أظهر مشال للوطنية وبعد النظر وخالص الوفاء
والاعتراف بالجميل ... ؟
اللهم ارحم محجوباً .. وارحمنا

النص الرسمي

لادار في جلسة ٦ يولييه سنة ١٩٢٧ . بمجلس النواب

مهاصلاً بنظر الطعن المقدم ضد انتخاب الدكتور محجوب ثابت

وإذ نشير إلى الجلسة التاريخية التي نظر فيها الطعن المقدم ضد
انتخاب الدكتور محجوب ثابت ، نذكر أن طابع الدعاية كان هو
المدير من جانب المغفور له سعد زغلول باشا رئيس مجلس النواب
وقتشد ، وقد قصد به إفهام الجرائد الانجليزية بطريقة بارعة خطأها
فيما نشرته عن اعتبار فوز الدكتور محجوب ثابت على مرشح الوفد
بمثابة تحول الرأي العام عن سعد . ولعل هذا الاتجاه الدعائي الذي

تجلى في هذه الجلسة هو الذى حمل سكرتيرية المجلس على التجاوز
عن كثير من العبارات فلم تثبتها في المضبطة .

وقد حرصت فيما أوردته بالفصل المتقدم على ذكر التفاصيل
الكاملة لما حدث في الجلسة كما سمعته في يومه واحتفظت به في مذكراتي
حتى جاء أوان بعثه وإثباته بنصومه . ثم رأيت بعد ذلك أن أورد
هنا النصوص التي سجلتها المضبطة بجلسة الطعن فيما يلي :

الدكتور عبد الحميد سعيد - لم يوزع هذا التقرير إلا من مدة قريبة ،
ونحن نريد أن نبحث هذا الطعن بحثاً دقيقاً .

أرجو تأجيل النظر في هذا الطعن .

الأستاذ محمود فهمى النقراشى - أرى أن ينظر هذا الطعن في هذا اليوم .

(وهنا تولى حضرة صاحب الدولة سعد زغلول باشا منصة الرئاسة)

عبد الرحمن عزام بك - لقد طلب حضرة الزميل المحترم عبد الحميد

سعيد بك تأجيل النظر في الطعن المقدم ضد

حضرة الدكتور محبوب ثابت بك . وإني

أعارض في طلب التأجيل ، لأنه قد مضى على

وجود حضرة الدكتور بيننا ما يقرب من ستة

شهور (١٩) وأصبح المجلس يقدر حضرته تمام

التقدير (ضجة) ولا يمكن للمجلس أن يدع مثل

حضرة الدكتور محبوب في حالة مجهولة ،

خصوصاً وأن لجنة الطعون قد حفظت هذا

الطعن عندها طول هذه المدة ، ثم جاءت فقدمته

في آخر الدورة البرلمانية ، فان لم ننظره في هذه
الدورة ظل حضرة الدكتور معلقاً كما هو ستة
أشهر أخرى ، ولا ذنب له في ذلك . لذلك
أرجو أن توافقوا حضراتكم على نظر الطعن
في جلسة هذا اليوم .

الرئيس — ما هي أسباب طلب التأجيل ؟
الدكتور عبد الحميد سعيد — السبب في طلب التأجيل هو أن تقرير
لجنة فحص الطعون لم يوزع إلا اليوم
ولم تتمكن من بحثه .

عبد الرحمن عزام بك — إن مسألة هذا الطعن هامة ولقد اهتم
معظم حضرات الأعضاء بانتخاب حضرة
الدكتور . . . (ضجة) .

الدكتور محبوب ثابت — يادولة الرئيس . لي الشرف أني مكثت
بين ظهرا نيكم من الشهور ستة ، فأمضيت رحلة
الشتاء والصيف (ضحك) وإني لا أرضى أن أبقى
— كما قال حضرة الزميل عزام بك — ستة شهور
أخرى معلقاً قبل أن تثبت صحة نيابتي أو
ترفض . إني أعتبر نفسي كذلك المجوسى الذى
دعاه الخليفة إلى الطعام فدمدم وهمهم فقال له
الخليفة أنت أردت أن تدخل فى الإسلام
فلم هذه المهمة والدمدمة . فأجابه المجوسى :

أُيِّتَ أن أبيت قبل إسلامي على غير دين (ضحك وتصفيق) ،
 إنى مكثت مدة عضويتي متشرفاً بزمالة إخواني ولا يزال صدى
 ذكريات دخولي هذه الهيئة الموقرة يرن في أذني وإذا كان يشق على
 بعض حضرات الزملاء أن أظل بينهم معلقاً ، فأنا رجل قضيت
 عمري كله راديكالياً . ولاني أعتقد أنه يهيم المجلس أن يكون أعضاؤه
 جميعاً خلصاً ، وألا يكون بينهم عضو معلق ومشكوك فيه . فأطلب
 من دولة الرئيس أن يأخذ الرأي على التأجيل أو عدمه ولاني
 أعلم أني في جهادي الوطني سأبقى موالياً لدولة الرئيس الجليل بقيت
 في النيابة أو لم أبق (تصفيق) ، نعم إنى أقول ذلك وأؤكدته غير
 هيب ولا وجل ، وماهي إلا كلمة حق صادرة من صميم قلبي أملاها
 على اعترافي بفضل دولة الرئيس ، فقد كان لي الشرف كل الشرف
 أن تناقشت في برنامج الجامعة المصرية التي ولدت عام ١٩٠٤ في كنف
 دولة الرئيس الجليل ، كما أني قد تشرفت بالعمل تحت رياسته في
 وزارة المعارف أيام كنت مدرساً في مدرسة الطب ، والآن فإن غم
 عليكم شيء من أمر هذا الطعن فهأنذا بينكم ، مستعد لأن أحص
 ما التبس منه وأن أبين ما يعتوره من شبهات . ولست أقبل على كل
 حال أن أبقى معلقاً .

الرئيس - أترضى أن يحكم في قضيتك قضاة لم يطلعوا على
 أوراق الدعوى وليس المجلس إلا هيئة قضائية .
 الدكتور محجوب ثابت بك - بالطبع هذا أمر لا يقبل مبدئياً
 ولكن . . . (ضجة) . . . ولم يطلب الاطلاع

على أوراق الدعوى إلا قاض واحد هو حضرة
عبد الحميد بك سعيد (ضحك) وعلاوة على
ذلك ، فإن تقرير اللجنة قد وزع علينا من
ثلاثة أيام ، وهذا هو اليوم الرابع .

الدكتور عبد الحميد سعيد — إنى متنازل عن طلب التأجيل .
حمد الباسل باشا — إنى أطلب تأجيل النظر فى هذا الطعن ضنا
بالدكتور ، لأنى أرى هيئة المجلس يتنازعها
عامل التعلق بشخص حضرة الدكتور وحسن
تقديره ، وعامل وجدانى هو تلبية أصوات
ضماثرنا باحترام الدستور ، ولست أريد أن
أجازف بتقديم طعن الدكتور فى هذا الطرف
الخطر لئلا تتغلب العاطفة .

الدكتور محبوب ثابت بك — إنى لا أزال مصرأ على عدم قبول
طلب التأجيل وأعلن أنى لا أستحق أن أكون
عضواً بمجلسكم الموقر إذا كنت أنا موضعاً
لشفقتكم .

الرئيس — إذن فلنبداً فى الطعن المقدم ضد انتخاب الدكتور
محبوب ثابت .

وهنا أخذ المجلس فى مناقشة تقرير لجنة الطعون والبحث فى وجهة
نظر اللجنة عما جاء فى عدد الأصوات المعطاة لكلا المرشحين وما جاء
بينها من أصوات طعن فى صحتها وهى التى كان يعتمد عليها مقدم الطعن .

وقد ثبت للمجلس أنه حتى ولو أضيفت الأصوات الثلاثة عشر إلى منافس الدكتور ، وخصمت من عدد الأصوات المعطاة للدكتور محبوب ثابت فإن ما يبقى له من أصوات بعد ذلك يزيد على الأغلبية المطلقة وعلى ذلك فلا محل للطعن .

فلما استوضح المجلس من مناقشة تقرير لجنة الطعون هذه النتيجة طلب الرئيس أخذ الأصوات بالموافقة على قبول الطعن فلم يقف أحد ، وأعلن الرئيس :

صحة نيابة الدكتور محبوب ثابت

* * *

ولقد كان اهتمام الرأى بالطعن فى صحة نيابة محبوب شديداً والانتقاد الموجه إلى لجنة الطعون لجنوحها إلى البطء المتعمد مرأ كما وجه إلى نفس الدكتور نقداً كثيراً فكان يدفع عن نفسه بما تقدم .



بين الدكتور محبوب ومحمد محمود باشا

كانت بعض الصحف والمجلات قد تجنت على الدكتور محبوب بإيعاز من أحد رؤساء الأحزاب ، فادعت أنه يتقاضى مبلغاً كبيراً من محمد محمود باشا رئيس الوزارة في سنة ١٩٢٨ لتأييده وجمع العمال حول حكومته وحزبه . إذ كان الدكتور زعيمهم ومستشارهم وقد كان هذا الادعاء محض اختلاق من نسج خيال هؤلاء المحررين الذين كانوا يروجون زور الأخبار وإفك الروايات تعمداً حول اسم الدكتور محبوب بقصد تشويه سمعته .

وكان هدف المفترين هو تشكيك العمال في مستشارهم الأمين ، والحيلولة بين الهدف الذي كان يرمى إليه الدكتور وهو إبعاد العمال عن خضم التنافس الحزبي حتى لا يتخذ العمال أداة لبناء أشخاص وهدم آخرين . وكان هذا العمل يتعارض مع الرغبة الملحة للزعماء الذين كان كل همهم تجنيد العمال للثبات لهم ، ثم اتخاذهم أداة طيعة للنيل من منافسيهم ، واتخاذ حناجرهم أبواق إعلان لهم ، وتمجيدهم لأشخاصهم .

تلك هي الأسباب التي جعلت بعض الزعماء يحاول تشكيك العمال في مستشارهم الأمين . على أننى أستطيع أن أوضح إيضاحاً صريحاً أن العلاقة بين محمد محمود باشا وبين الدكتور محبوب كانت قد توثقت من عهد حياة المغفور له والده محمود سليمان باشا .

محمد محمود باشا يطلب ضم الدكتور إلى حزبه

لما تولى محمد محمود باشا الحكم سنة ١٩٢٨ استدعى إليه الدكتور محبوب . فلما دخل عليه رحب به أجمل ترحيب ، ثم قال له : « يادكتور .. إن لك اقتراحات لها قدرها وفائدتها وإنى أعلم أنك قد قتلتها بحثاً ودرساً . وهأنذا على رأس الحكومة .. وإنى على استعداد لتنفيذها ، وإن يحول دون ذلك حائل .. وبعد أيام سأقوم برحلة أجوب فيها أنحاء القطر لأتفقد حالة الفلاحين بنفسى ، وسأنفذ كل ما يتطلبه الإصلاح دون تردد أو توان » .

وكان الدكتور محبوب يحتفظ في جعبته بقائمة تحوى ما كان ينادى به من الاقتراحات الإصلاحية ، فدفع بها إلى محمد محمود باشا ، فدهش دولته لهذه المبادرة العاجلة . فقال : « ما هذا يادكتور ؟ هل كنت تعلم أنى استدعيتك لهذا السبب لجئت متسلحاً باقتراحاتك ومشروعاتك لتخرجنى ؟ » فأجاب الدكتور : « أى نعم » . ثم قال بعد أن أغمض عينيه وفتحهما : « إذا أنت ستقوم برحلات لا تقصد منها تشنيف أذنك بالهتاف والتصفيق بل لتتفقد الأحوال ؟ » . فأجابه الباشا مؤكداً : « بأنه سيطوف بقصد الإصلاح » . قال الدكتور : « لا تدخل قرية أو مدينة وتخرج منها دون أن تضع أساساً لمستشفى دائم يقوم بمعالجة الأمراض المتفشية ، تلك الأمراض التى تحصد الأرواح ، على أن تحفز همم الأعيان والأغنياء للتبرع السخى ، وعلى أن تساهم الحكومة بنفقات إنشاء هذه المستشفيات » .

وقبل كل شيء أحب ألا تغادر قرية أو دسكرة إلا بعد أن تصدر
الأوامر بردم البرك والمستنقعات التي تنشر الأمراض .
ولقد نفذ محمد محمود باشا الكثير من هذه المقترحات . ومن
العجيب أن بعض الجرائد والمجلات نعتته بوزير « السخام والبرك »
بوحى من الذين ينكرون فضل المحسنين ١١١ .

وهذا من عيوب أحزابنا الظاهرة التي تعتمد إلى تشويه محاسن غيرها
ثم تتخذ من أرباب المحدثى الذمة آلات لتحسين سيئاتهم ومقابحهم .
وطالبه الدكتور بإنشاء مساكن صحية للعمال ، وقد نفذ محمد محمود باشا
هذا الاقتراح . وأمر ببناء مساكن العمال فى حى « السيدة زينب » .
وجاءت الوزارة النحاسية التى تلت الوزارة المحمدية فانتزعت
هذه المساكن التى أقيمت للعمال وأجرتها لطائفة من الموظفين الموسرين
المحظوظين ، وهنا كنت ترى الدكتور محجوب ، وكأنه الأب الذى فقد
ابنه وفلذة كبده . أو الذى خسر مجهوداً بذل فيه الأيام والليالى .

من اقتراحات الدكتور محجوب التى جاهد لها

كان من بين المقترحات التى قدمها الدكتور محجوب إلى محمد محمود باشا
مشروع التجنيد الإجبارى الذى يحتم على كل مصرى أن يؤدى « ضريبة
الدم » بلا فارق فى هذا الأداء بين غنى وفقير ، حتى يقضى بذلك
على نظام « البدلية » الذى كان يعتبره الدكتور محجوب وصمة عار فى
جبين مصر . فلا يقام كيان الجيش المصرى إلا على أبناء الفقراء
لعجزهم عن دفع فدية التجنيد .

طالب الدكتور محجوب بهذا فى مجلس النواب فى جلسة مشهودة

يوم دخوله المجلس بالذات للمرة الأولى .

وطالب الدكتور محجوب بإنشاء عدد من المستشفيات في أنحاء القطر لعلاج أمراض الصدر والجذام ، كما طالب بجعل التعليم إجبارياً وسن قانون لحماية العمال من الشركات وأصحاب رؤوس الأموال ، وإصدار تشريع لتقاعد العمال الذين يعجزون عن مواصلة العمل لكسب أقواتهم بعد تقدم السن ، وتشريع لتعويض العمال الذين يصابون بعاهاات في أثناء العمل ، وكان أول من طالب بسن قانون استقلال القضاء وإنشاء الجيش المرابط ، وحماية حقوق المؤلفين ، وإنشاء نقابة للصحفيين ، وتوليد الكهرباء من خزان أسوان واستغلالها في خلق طائفة من الصناعات وتحويل القمامة إلى سماد . وهو الوطني الوحيد الذي دعا وجاهد في سبيل التدريب العسكري لطلاب الجامعة ليكون منهم ضباط احتياطيون يسدون حاجة الجيش في نهضته الجديدة ، وهى الفكرة التى سرت وأشاعت الروح العسكرية المتحمسة ، وحبيت المصرى فى الجندية العاملة الشريفة . ولقد اكتحلت عيناه بأن رأى ثمرات غرسه دائية القطوف ، ثم طالب بإنشاء إصلاحية جديدة للأحداث ليفصل المجرمون بالوراثة منهم عن الذين اضطرتهم أحوالهم السيئة الطارئة إلى ارتكاب الجرائم .

تلكم مجموعة زاخرة ، بل قطرات من بحر من المفاخر التى قام بها الدكتور محجوب فى مختلف العهود . وقدم أكثرها إلى محمد محمود باشا ، فتقبلها — رحمه الله — مغتبطاً وهو يقول : « حياً وكرامة » . وهنا قال محمد محمود باشا للدكتور : « والآن أدعوك إلى مرافقتى

في رحلاتي الاقليمية لتساهم بنفسك في الاشراف على تنفيذ مقترحاتك في مواضعها المخصصة لها في كل مدينة وفي كل قرية في غير ما تردد أو ضن بجهد أو مال .

ثم حول المغفور له محمد محمود باشا مجرى الحديث وابتسم ابتسامة الالتمنى قائلا : « ألا تقبل يادكتور الانضمام إلى حزبنا لتعاون معي في ترويج سياستي على أساس تعهدى بتنفيذ اقتراحاتك كاملة شاملة؟ ، فأجابه الدكتور : « أما الانضمام إلى حزبك أو حزب غيرك بعد اليوم فلا ولكنى سأؤيد سياستك إذا أحسنت في خدمة الوطن ، وكذلك سأقول لكل وزارة تجيء بعد وزارتك ، سأقول لها : أحسنت ، إذا أحسنت ، وأقول لها : أسأت إذا أساءت ، وأعدك بأنى سأرافقك في رحلاتك لتكتحل عينى بمرأى جهودك وتنفيذك لمقترحاتى ، ولا سيما إنشاء المستشفيات قبل كل شىء ، أما الانضمام إلى الأحزاب التى حطمت ولا تزال تُحطم ما كان باقياً سليماً من أخلاقنا ، فهذا أمر لا أفكر فيه ولن أقبله . وقد جعلت حزبى الله ومصر وسودانها . »

ولما قال له محمد محمود باشا : « أأكون رأيك هذا فى حكى وحزبى بعد أن أنفذ اقتراحاتك ، أفستقارن بينى وبين غيرى فى هذه الناحية؟ ، فأجابه بحجوب : « كفى ما عانيت من الأحزاب .. كفى مارأيت من الدسائس والوشايات ... كفى .. كفى ... إن العامل فى حزب من الأحزاب يظل مشغولاً ومنهمكا فى الدفاع عن نفسه من وشايات الواشين . على أنى فى اليوم الذى تنفذ فيه هذه الاقتراحات سأؤيدك ، وأناذى على الملأ فى صراحة وجهر بأنك المصلح — إن

شاء الله — وسأظل كذلك بعيداً عن الأحزاب وبمعزل عن الزعماء والمتزعمين ، حتى أقنع بأن الحزبية في مصر قد أصبحت وسيلة لخدمة الوطن . وحتى يتغير الوضع الحالي ، وهو اتخاذ البلد وأبنائه لخدمة الحزبية والأشخاص ، .

وهنا انفعّل الباشا وقال : « هل ينطبق هذا الوصف يادكتور علىّ وعلى حزبي أيضاً ؟ » فأجاب : « إني دائماً أتكلّم بصفة عامة ، ولا أتردد في إبداء رأيي في هذا الموضوع ، وهو أن الأحزاب في مصر غيرها في البلاد الأخرى ، أقولها كلمة صريحة واضحة ، وسأقولها إلى أن يتغير الوضع الذي أشكو منه .. وهي أن الحزبية في مصر كانت نكبة على الأمة وهدماً للأخلاق وتعويقاً للاستقلال ، .

الدكتور محبوب يستشير العمال ويحذرهم

بعد أن انصرف الدكتور محبوب من هذه المقابلة دعا إليه ممثلي العمال . فلما اجتمعوا عنده أفضى إليهم بكل ما دار بينه وبين محمد محمود باشا ثم قال لهم : « أيها العمال : جانبوا الأحزاب لمصلحتكم ومصلحة وطنكم ، لا تكونوا مطايا للأشخاص ، احذروا الزعماء والمتزعمين وسماستهم المستغلين ، لا تتحزبوا ، بل قفوا من الأحزاب موقفاً سلبياً ، وليكن تأييدكم لكل حزب بقدر ما يعمل لمصلحتكم ومصلحة وطنكم . أيدوا من يعمل لكم خيراً ، واخذلوا من يحاول تسخيركم . ولا أريد أن يكون لسان حالي يوماً ما دافع عن الذليل ، . كونوا أعزاء النفوس ، أوفياء لمن يعمل لصالحكم ،

ولا تقصروا عنى ، ولا تستمعوا لقلول الذين يقولون لكم : أيدوا
الأحزاب ، على بياض ، وأكرر لكم القول والنصيحة أن يكون
تأييدكم لكل حزب بقدر ما يعمل لرفع مستواكم من حيث المعيشة
والصحة والنهوض بكم إلى مستوى كريم . ولكن لا تنسوا استقلال
مصر وسودانها ، والسودان ومصره .

فلما وافق ممثلو العمال على خطة الدكتور ، بعث إلى محمد محمود باشا
يخبره بأنه على استعداد لقبول دعوة الاشتراك فى الرحلات الاقليمية
المقررة . وما أن سافر الدكتور فى صحبة محمد محمود باشا حتى ثارت ثائرة
الجرائد والمجلات المتمية إلى حزب الوفد ، متحاملة على الدكتور محجوب
ناسبة إليه كل ما هو برىء منه وبعيد عنه . ولقد زادت هذه الحملة
الظالمة جماعة العمال تمسكاً بالدكتور والتفافاً حوله .

وهكذا قد أنتجت الحملة الغاشمة عكس النتيجة التى رغب فيها الذين
أوحوا بها . وأشاح العمال بوجوههم عن الذين دبروا حملتهم الظالمة .
فيا لطغيان السياسة الرخيصة على الوطنية السليمة المظلومة .

ومن العدل الإلهى أن عاش محجوب حتى رأى بعينه من
حاولوا أن ييذروا بذور الشك حول اسمه بغير حق ، قد أصبحوا
مضغطة فى الأفواه أولئك الذين جاءوا إلى الحكم بموجب تبليغ أجنبى
فظيع وظلوا فى الحكم بموجب تبليغات أخرى .

ولسكم كان مؤلماً للنفس المنصفة أن يُتهم محجوب فى مواطنيه .
وممن ؟

من الذين طالما تاجروا بالوطنية وبارت تجارتهم ، وكسدت سوق

مزاعمهم. وعاش محبوب حتى رأى بعينه كساد سوق الأكاذيب .
سمعت محبوباً يصارح محمد محمود بقوله : « إني أستنكر تعطيلك
للحياة النيابية ، ولا أوافق على وقف بعض مواد الدستور . ولا
أوافقك إلا على الإصلاح العام الذي وعدتنا به » .

إذن لم يبيع محبوب عقيدته ، ولم يساوم على حق الأمة بمنصب
ولا جاه ، فكان جهاده الوطني عليه غُرمًا واتهامًا ، ولغيره من دعاة
الباطل مكسبًا ومغنا . ومع هذه الحقيقة الواضحة لم تتورع الجرائد
والمجلات المأجورة التي يوحى إليها الذين أدوا في مصر ما كان يؤديه
« راسبوتين » في روسيا القيصرية ، وحاولوا أن يتشبهوا بـ « باجا سقا » .
الأفغانى ! نعم لم تتورع تلك الجرائد عن مهاجمة محبوب واتهامه بمحاولة النيل
منه . وما كان عنده من رد يلائم طبيعته العفة إلا أن يردد قول شيخ المعرة :
فيا أذن هل في الذي تسمعيه من القول إلا فرية وزعوم
ثم يبرز للناس رصيده في البنك وقد تضائل إلى أقل من واحد
في المائة مما كان له من مال مدخر . ثم يترنم في تأس واعتزاز
ورضاء بقول القائل :

إذا قَدَّمُوا بالوفر قدمت قبلهم بنفس فقير كل أخلاقه وفر
وأخيراً يقول لخاصته : « سيري المختلقون النفاجون بعد موتي
أنى خرجت من دنياهم عريانا » وقد كان .

وحقاً كان جهاد محبوب المرير الطويل ، ورحلته الشاقة المخلصة
في رحاب الدنيا مكافئاً نزيهاً ، أن خرج من معركة الحياة ، وضجيج
الأحياء فيها عرياناً ، يحتسب أجره لوطنه على الله ، وفي ذمة التاريخ جهاده .

وسبقه في هذا الخروج رجال أدوا للوطن أحسن الأداء ، فلم يتقاضوا ثمناً ولا طلبوا جزاء ، وفي طليعتهم إمام المضحّين « محمد فريد » و « أمين الرافعي » سيد الصحافيين ، وأنزه من أدى الرسالة ، الذي رثاه شاعر النيل حافظ ابراهيم بقوله :

ألبس الخبز من لانت مهزته وأنت تخرج من دنياك عريانا
ولقد خرج محبوب من دنياه كما خرج محمد فريد وأمين الرافعي ،
وإنه لمن طرازهم العالي العالي من الوطنيين الذين جاهدوا في
سبيل الوطن .

رأى محبوب في الخصومة الحزبية

لا معدى لنا قبل أن نذكر رأى محبوب في الخصومة الناشبة بين الأحزاب ، أن نوضح أنه لم يكن بخصيم لحزب ولا صديق لزعيم أو رئيس بذاته ، ولكنه كان المصرى الوطنى الذى احتفظ بصداقته لجميع الزعماء ، وحفظ له أكثرهم مسلكه الوطنى الكريم لأنه كان يشيد بمزايا كل زعيم وينتقد في صراحة عيوب كل منهم ، مفرقاً بين حسناتهم وسيئاتهم . ولكن الزعماء لا يطيقون النقد ولو كان بريئاً بقصد الإصلاح .

كانت علاقة الدكتور محبوب بمحمد محمود باشا قديمة ، إذ كان صديقاً لمحمود سليمان باشا . ثم كان زميلاً له في لجنة الوفد العامة الذى كان يرأسها الشيخ الوقور محمود سليمان . ومن المعلوم أن الوفد المصرى قد تألف في بيت والد محمد محمود باشا . وفي هذا البيت تقرر إسناد رئاسة الوفد إلى سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعية المنتخب من قبَل الأمة .

ولما حدث انشقاق الوفد شطرين^(١) وألف الشطر الثاني حزب
الاحرار الدستوريين، ولم يعمل رجال هذا الشطر بنصيحة اسماعيل
أبازله باشا الذى نصحهم بأن يسموا حزبهم باسم الوفد أيضاً،
وذلك لأن كلمة « الوفد » رسخت فى الأذهان، واقتترنت بأسماء
الشهداء الذين سقطوا مضرجين بدمائهم فى ميادين الجهاد الوطنى.
ولأن كلمة الوفد قد اتُّخِذَتْ رمزاً للجهاد، وعنواناً للبفاداة. إن
اسم الوفد قد أصبح عقيدة وطنية، لذلك أنصحكم ألا تطلقوا على
حزبكم اسماً غير اسم « الوفد ». نازعوا سعداً فى اسم الوفد قبل أن
تنازعوه فى رأى السياسى.

فلما حدث الشقاق الذى حوّل دفة الحركة الوطنية، لم يقم
محجوب نفسه فى الخصومات الشخصية ولا فيما تولّد عنها من المهارات.
وكان الحزن يحز فى نفسه كلما سئل عن رأيه فى تلك التهم المتبادلة
بين المتخاصمين، يجيب: إنها تفرق الكلمة.. إنها المعاونة تطوّعاً لأرباب
سياسة ومبدأ « فرّق تسد »، إنها الفتنة العمياء، إنه إضعاف الأمة
إنه تحريف الكلمة، إلى أخشى أن يتخذ الانجليز من مصر هنداً
أخرى عن طريق هذا الشقاق. ولكن الزعماء يتغافلون. ثم يردد
فى ألم مصحوب بالحزن قول القائل :

لم أكن من جناتها علم الله وإلى بحرها اليوم صالى
ثم يردف ذلك بقوله: « ولكن لا أمر لمن لا يطاع. ليت

(١) سيجى ذكر هذا الانشقاق بالتفصيل الوافى فى كتابنا « حوادث

مصر السياسية » - إن شاء الله -

قوى ينتهبون . وليتهم يعقلون . فلن يستبينوا النصح إلا بعد فوات
الغد . أرجو الله ألا يفوت ، وإن شاء الله لن يفوت فإن الوطنيين
المخلصين لبالمرصاد للتاجرين يكشفون للأمة حقيقةهم .

دعابة في الاقصر ، رميد في القاهرة

بين الدكتور محجوب ومحمد محمود باشا

أراد محمد محمود باشا أن يقضى سهرة ممتعة وهو بمدينة الاقصر
مع طائفة من الوزراء والشيوخ والنواب والأدباء وكبار المحامين ،
فأوعز إلى الأستاذ أحمد خشبة باشا أن يوهم الدكتور محجوب ثابت
أنه مرشح وزيراً للصحة في الوزارة الائتلافية ، وأن الذى يقف في
طريقه هو محمد باشا ليؤثر بها أحد زملائه الدستوريين . وكان إيعاز
محمد محمود باشا لخشبة باشا بقصد الدعابة التى كانت قد أصبحت
موجودة لدى الدكتور ، فقام أحمد خشبة باشا بمهمته ، وأمعن في
تمثيل دوره إلى حد أن أكد للدكتور ذلك ، ثم أوغل محمد محمود
في استدعاء الأصدقاء الذين وَّزع على كل منهم دوراً من أدوار تمثيل
هذه الرواية . واتفق معهم على أن يدور سمرهم في سهرتهم حول هذا
الموضوع . وقد قام أحد كبار المحامين بإقناع محجوب بأن محمد محمود
باشا هو الذى يقف في سبيل اختياره وزيراً للصحة في هذه المرة أيضاً .
فإذا بالدكتور يحاول أن يكظم غيظه ، ثم إذا به يفعل
قليلاً ثم يشتد في الحملة على محمد محمود باشا . وظلت الندوة إلى الفجر
وكان الدكتور يخطب ويتدفق بلاغة وبياناً ، يأخذ بمجامع القلوب

فقال لمحمد محمود : « إن اليد الأجنبية التي حالت بيني وبين حق عن طريق غيرك يابن محمود فيما مضى ، هي نفس اليد التي تقف في سبيل وصول حق إلى عن طريقك » وظل الحديث يدور حول هذا . وقد قضوا سهرة طويلة في الأقصر ... ولكن الدكتور كان قد أسرها في نفسه وعاد إلى القاهرة متأثراً متألماً ... وكان الأستاذ كمال الحلي قد تحدث مع الدكتور بحجوب تليفونياً وأبلغه ما أثار ثأرته ؟ فما أن وصل محمد محمود باشا إلى القاهرة حتى صمم بحجوب على مقابله ، ووصل ما انقطع من حديث في الأقصر ، عقب محادثة تليفونية أخرى مع آخر . وتوجه إلى محمد محمود وقال له :

— أنت يابن محمود غادر ، وحاسد ، وحاقد . ذلك لأنني الخطيب الذي لن تستطيع أن تباريه ، وأنت لا تريد الاعتراف بذلك . مع أنك تود بجمع الأنف أن تكون المجلي^(١) في الخطابة بالنسبة لي ، وأنا لا أرضى أن تكون المصلي^(٢) ، إنك تحسدني لأنني الخطيب الذي يهز أعواد المنابر هزاً ، ويفهم الخصم إغماً . فإن كان يابن محمود وقوفك في سبيل ترشيحي للوزارة هزلاً ، فقد طال أمد هذا الهزل بعد أن أصبح حديثاً معاداً ، أما إذا كنت جاداً فاسمعها مني كلمة صريحة واضحة فقد ضقت ذرعاً ... إني لست بالطامع في المنصب الوزاري غراماً به ، أو تحرقاً عليه . وأحب أن يكون معلوماً أنني إذا حاولت يوماً ما أن أكون وزيراً ، إنما لأنفذ مقترحاتي ومشروعاتي الإصلاحية

(١) المجلي : هو الجواد السابق .

(٢) المصلي : هو الجواد الثاني .

التي تعرفها وقد استغلها غيري ونسبها إلى نفسه ؟! .

عندئذ أراد محمد محمود أن يهدي من سورة غضب الدكتور فعرض عليه السفر إلى ساحل سليم للاستجمام . فقال : « لا ، أنا إذا - قَبَلْتُ - (١) إنما لأنزلن عند آل خليفة (٢) لأقول لهم ما يجهلون من أمرك ، وأسمع منهم ما أجهله من شأنك ، أنت تحسدني لأنني الخطيب الذي أقنع الناخبين بمينا البصل بذلك اللسان العريض الذرب التيجان . فانتخبوني وخذلوا من كان له الهيل والهيلان ، والسلطة والسلطان ، والسراشق والسراذقات ، مع إنني لم أنفق ملياً ولا دانقاً ، ولم أحمل « غدارة » ولا « نبوتا » ، بل كنت فقط أملك قوة الحججة في دائرة انتخابية ليست لي فيها « عزوة » ولا عائلة ولا عشيرة . أما أنت فقد سقطت في دائرتك الانتخابية ، وأسقطت بين عشيرتك وأهلك . أين أنت من محجوب ، في قوة بيانه وخرابة لسانه ، أتريد أن تنافسني في الخطابة ، هيات ما كنت أريد أن أجادلك ولا أن أناظرك . ولكنك أرغمتني بمزاحك ودعابتك وحقدك ونكرانك لحقي وفضلي دعك من هذا المزاح المقصود به الهزل في الظاهر والهدم في الباطن ، وأنشد :

لحي الله رأياً قاد نحوك همتي فعلني طول المقام على الذم
لقد كان أبوك ، محمود الخلائق والسيرة ، أما أنت فلست بمحمود
العشرة . فسواء كان ما تقوله دعاية أو جدأ ، فاعلم أنه قد هانت المناصب
الوزارية بعد أن سامها غير الجديرين بها . . . ليس ببعيد أنك ظلمت

(١) أي سافرت إلى الوجه القبلي .

(٢) مصطفى خليفة باشا عميد عائلة خليفة بمديرية أسيوط .

حاقداً علىّ بسبب عدم قبول الانضمام إلى حزبك سنة ١٩٢٨ ...
يا ابن محمود إن ودك لمشوب بالحسد... وإخلاصك لمزوج بالحق،
ووطنيتك لتعترها الأثرة، بل تسبقها... إن الوطنى يحب الوطنى،
وأنت وطنى تمتت الوطنى! وأمين تكره الأمان! ونزبه لا تحب
أن يكون فى مصر نزيه غيرك... إنك يا ابن محمود ستكون محل دراسة
علماء النفس لتحليل نفسيّتك .

ولما أراد محمد باشا أن يتكلم، لم يمكنه الدكتور من الكلام
واستطرد قائلاً: « أنت تحقد علىّ، لأنى أبيت الانضمام إلى حزبك
بعد أن قلت لك إنى أصبحت أستهن وسائل الأحزاب التى تتلخص
فى أن رؤساءها ومن إليهم يتخذون الحزبية والتحزب وسائل للوصول
إلى الحكم - وإلى الحكم فقط - لا غرضاً إلى خدمة البلد، والعمل
فى سبيل استكمال هذا الاستقلال الناقص: فعلام الاختلاف، وفيم
التحزب والنزاع والتنازع؟. لأنك العدو الكامن فى ثوب الصديق
الظاهر، أنت المانع للخير عمن تدعى أنك تحبه. والحائل لحق من
تزعّم أنك ترغب فيه: أتريد أن تتخذنى هزأة ورمزاً للضحك لتنال منى
أنا الخطيب والكاتب؟، أما غيرى فيحضر له المحضرون ويكتب
الكاتبون ويصحح له المصححون، وأنت تعرفهم وهم كثير، وأعود
وأقول رأى فىك، وحكى عليك تحليلاً لنفسيّتك فى صراحة. أنت
حقاً، وطنى، أمين، ولكنك العدو اللدود، والخصم المستتر لكل
وطنى أمين! أهذا مركب نقص فىك، أم هى أثره لا نظير لها.

على أنى إذ أحلك إنما أنصفك^(١) ، ولما أراد محمد باشا أن يتكلم مرة أخرى وقد غاضت ابتسامته ، واربد وجهه . قال الدكتور : « لا تقاطعنى ، أرجوك ، إني لنى عجب من أمرك ! أقول لك منصفاً : لو أن مصر حكومة وشعباً أوفدتك إلى الامبراطورية البريطانية لتمثل الكرامة المصرية . وإذا فرضنا أن جميع سكان الجزر البريطانية من طبقة النبلاء واللوردات ، وليس فيهم فحام ولا صياد سمك ، لكنت من خير من يرفع رأس مصر ، من حيث الوطنية والإباء والشمم . ولكنتك فى نفس الوقت تعمل دائماً على هدم كل من له جانب أو جوانب من تلك الشوائل . مع أن الوطنى الأمين يحب الوطنيين الأمناء ، ويعمل على أن يكثر عددهم ، وأنت تأبى إلا أن تكون الأمين وحدك فى أمة بأسرها ! أو تظن أن هذا من الوطنية فى شىء ؟ ما قيمة أمة ليس فيها وطنى نزيه إلا واحداً ، هو أنت ؟ أليست هذه هى الأنانية فى أبشع صورها ، أى نعم الأنانية المدومة النظير ؟ أليس هذا من الشذوذ والنشوز اللذين يحتاجان إلى دراسة وتحليل علماء النفس ؟ ولكن كيف أعابك وألومك ، أنا الذى أعرف من تصرفك مع أخيك ما أعرفه . . لقد ضنقت ذرعاً بهذا الحق . أنت لم تنصفنى كما أنصفتك ، أريد بناءك وتريد هدمى ، ما أبعد الفرق ، فاسمع وإن كنت العزيز . »

ولما سأله الباشا عن مصدر هذه المعلومات ، لم يجب الدكتور ، بل استمر مستفيضاً . وكان فى حالة لا يمكن أن يقاطع فيها .

(١) هذه كلمات الدكتور بالحرف ، وحاول بعض الناس أن لا أثبتها ، ولكنى رفضت احتراماً للحق والتاريخ .

وضع الشيء في غير محله

قال الدكتور مستطرداً : إنكم تضعون الشيء في غير محله . إذ تجعلون من المحامي وزيراً للصحة ، مع وجود الطبيب الذي يصلح لهذا المنصب ، ومن المهندس وزيراً للدفاع ، ومن المزارع وزيراً للأشغال . وترسلون البعثات العلمية إلى الخارج ، تنفقون على طلابها الأموال الطائلة من خزينة الدولة ، فإذا بكم بعد أن يعودوا إلى وطنهم ليفيدوه بما درسوه وتعلّموه تعينونهم في وظائف لم يتخصصوا فيها . فإن كان المتعلم كهربائياً ترسلونه إلى وزارة الصحة كاتباً ، وإن كان زراعياً تعينونه في وزارة المواصلات في وظيفة لا تتصل بما تعلّمه بسبب ولا نسب ، وهكذا . إنكم تضعون الشيء في غير محله ، وتقلبون الأوضاع . فقد جعلتم من البنداري^(١) وزيراً للصحة ، وهو محام لا أظن في مكاتبه بين المحامين في المواد المدنية ، ولكن ليست لديه معلومات صحيحة ، ولا دراسات طبية . كما أنه لم يشتغل بالمسائل العامة ، ولم يجاهد كما جاهدت ، ولم يضطهد كما اضطهدت ، ولم ينكب في سبيل الحركة الوطنية كما نكبت ، ولم ينف كما نفيت ، ولم يفتش له مكتب كما

(١) قال لي الأستاذ عبد المجيد صالح باشا وهو أديب مفكر كثير الاطلاع : إن الدكتور محجوب قابله عقب إسناد وزارة الصحة إلى الأستاذ البنداري باشا ، وقال له في أسلوب المعاتب :

وإذا تكون كريمة أدعى لها وإذا يحاس الحيس يدعى بندر
كلمة بندر ، أى : البنداري ، بدل كلمة « جندب »
وإذا تكون كريمة أدعى لها وإذا يحاس الحيس يدعى جندب
هذا تفسير لوضع الشيء في غير محله .

قش مكتبي مئات المرات ، ولم يُتلف له كتاب . وبالجملّة لم يفسد كما
فاديت . أفبعد هذا الجهاد الطويل تفضلون عليّ أنفسكم ، وتفضلون
في نفس الوقت محاسبيكم على مثلي ؟ .. يا ابن محمود لقد أسأت إليّ ،
كما أساء إليّ غيرك ، وكما أسى إليّ بسبك ومن أجلك ، ثم قال
منشداً :

وأنت امرؤ منا خلقت لغيرنا حياتك لا ترجى وموتك فاجع
كان محبوب يقول لخاصته : « لولا أنه ابن محمود سليمان الذي
له مكاتته العالية في نفسى وذكره الجميلة في قلبي ، لكان لي مندوحة
أن أقول فيه كلاماً يذهب مثلاً ... لقد أساء إليّ كثيراً . ولكن يحمل
بي أن أغض الطرف عن عدم وفاء ابن رجل كان مثال الوفاء نحوى » .

* * *

ولاني لأذكر أن محبوباً كان قبل ذلك قال لمحمد محمود إنني أتمثل
حيالك بقول القائل :

رجوت لك الوزارة طول عمرى فلما كان منها ما رجوت
تقدمنى أناس لم يكونوا يرومون الكلام إذا دنوت
فأحببت الممات وكل عيش يحب الموت فيه فهو موت
وكان يقول لخاصته : « لقد أشمت بي ابن محمود من كانوا
يلومونى فيه ، وجعلنى أحذر الناس منه . فيا لسخرية القدر ، ويا لعجائب
أخلاق البشر ! وجلهم شر يسيئون إلينا بقدر إحساننا إليهم ، ثم
يتخذوننا هزاة يسومونا الحسيسة . هأنذا أضع حداً لهذه الدعابات » .

محبوب ينصف اسماعيل صدقي

وللحقيقة والتاريخ والإنصاف أقول : إن الدكتور محبوباً كان يقول في أثناء عتابه المر ، بل حملته الشعواء على محمد محمود باشا : « لولا اسماعيل صدقي باشا ذلك الرجل الوطني الشديد في وطنيته ، القوى العارضة ، الصعب المراس ، البعيد النظر ، والربان السياسى الماهر ، على الرغم من الحملات الظالمة التى وُجِعت إليه ، لولا ذلك الرجل الذى عُرِفَ قدره وقُدرت وطنيته - والجميل أنه وجد من العامة من أنصفه - ولكن بعد مِضى زمن طويل - ثم حملة طلاب الجامعة على أعناقهم تكريماً له ، وتكفيراً لمحاربتهم إياه ، متأثرين بما كان يرمى به ظلاماً من الحاسدين والحاquدين عليه ، لولا اسماعيل صدقي هذا رب تلك المذكرة الرائعة التى تجلت فيها القوة الوطنية ^(١) . ثم قدّم بعدها

(١) قال الدكتور هى المذكرة التى دبحها يراع صدقي باشا وقدمها الوفد المصرى إبان تأليفه سنة ١٩١٨ إلى جميع حكومات العالم . إسماعيل صدقي من الوطنيين البارزين الذين اعتقلوا ونفوا وكانوا أربعة : سعد ، صدقي ، حمد الباسل ، محمد محمود . إلى مالطة .

وظل الدكتور يبحث فى مكتبه عن مذكرة صدقي لأنقل صورتها غير أنه لم يعثر عليها .

ذلك الرد المفحم الفريد (١) . لولا أنه قد عيّن كبيراً لأطباء الجامعة - بواسطة صديق الصبا مراد باشا سيد احمد وزير المعارف في وزارة صدق سنة ١٩٣٠ - لما استطعت أن أودى تلك الخدمات الجليلة من تدريب عسكري في الجامعة ، أقصد أني أدخلت التدريب العسكري

(١) هو الرد الذي بعث به صدق باشا بصفته رئيس الحكومة المصرية إلى المستر مكدونالد رئيس الحكومة البريطانية وذلك أن تلك الحكومة كانت قد قدمت بلاغاً إلى الحكومة المصرية وأرسلت صورة منه إلى رئيس الوفد يتضمن أن الحكومة الانكليزية ستتدخل إذا اضطرب الأمن في مصر وتعرضت أرواح الأجانب وأموالهم للخطر . ومن المعلوم أن الحكومة البريطانية كانت قد روعت بسبب أن الملك فؤاد - رحمه الله - قد فاجأ انكلترا بتصرف الملك المستقل السيد في بلاده . وهذا التصرف هو إقالة مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد وتكليف اسماعيل صدق باشا بتأليف الوزارة وقد ألفها دون أن يتصل بالمندوب السامي السير برسي لورين . وقال : من العجيب أن نبأ تأليف الوزارة لم يتصل بالمندوب السامي البريطاني ، بالرغم من أن لداره عيوناً مبهوثة في كل مكان في مصر تبلغها كل كبيرة وصغيرة . وكان الوزراء قد أدوا يمين الولاء ، دون أن يشعر بتأليف الوزارة . على أنه قد فوجئ بزيارة الداهية المصري - اسماعيل صدق - فلما أظهر دهشته من هذه الزيارة المفاجئة ، ومستغرباً عدم إشعاره بإقالة وزارة وتأليف وزارة أفهمه صدق بأنه لم يكن هناك داع لإشعاره ، لأن تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ يبيح لمصر الحرية الكاملة في تأليف الوزارات وإسقاطها . ومعنى هذا انكم إذا تدخلتم في شئوننا الداخلية من حيث تأليف الوزارات أو إسقاطها أو إقالتها ، فإنكم بهذا تمزقون هذه الوثيقة - تصريح ٢٨ فبراير - من جانبكم ، وتعود مصر إلى حالتها قبل هذا التصريح . ثم لفت نظر المندوب السامي البريطاني إلى أن انكلترا جاهرّت أنها إنما أعلنت الحرب سنة ١٩١٤ لحمل الدول التي اعتبرت المعاهدات قصاصات ورق على احترامات المعاهدات . وإلى الملح نذر حرب

في الجامعة المصرية - فيما بعد - ولما استطعت أن ألحق الكثيرين من الشبان الأقوياء بالكلية الحربية ليسكنوا نواة الجيش المصري ، والبذور الطيبة لجيشنا العتيق ، ذلك الجيش الذي سيعيد عظمة الفراغة ومجد العرب . يا ابن محمود لولا اسماعيل صدق الذي لم تجمعني به إلا جامعة الوطنية ، قد عيّنني في وظيفتي المتواضعة ، لما أتيحت لي أن أغرس في نفوس الطلاب : الوطنية وحب الجندية ، ولما أتيحت لي فرص إلحاق مئات الشبان بالكلية الحربية ، كم من طالب تقدم إلى كلية الزراعة أو الطب أو التجارة فحوّله إلى الكلية الحربية ، وكل هؤلاء الطلاب ذلّت لهم العقبات التي كانت تعترض التحاقهم

جديدة . فإذا تدخلتم في شئوننا الداخلية فأية حجة تتذرعون بها في حالة ما إذا أعلنتم الحرب . فسكت المندوب السامي ولم يجد دحضاً ولا دفعاً ولا رداً . . . غير أن المستر مكدونالد رئيس الوزارة البريطانية ارتأى خطراً على نفوذ حكومته في مصر أن تؤلف الوزارات فيها دون أخذ رأيها : أي حكومة انكلترا . من أجل ذلك أرسل انذاراً من صورتين : صورة من هذا الانذار إلى رئيس الحكومة المصرية - أي اسماعيل صدقي باشا - وأخرى إلى مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد . وكان من حسن حظ مصر أن اسماعيل صدقي ابن بجدتها كان على رأس الحكومة المصرية . فرد على المستر مكدونالد ردأً مفجأ و صفة واحدة الجرائد الانكليزية بقولها : إن اسماعيل صدقي باشا قد ألقى درساً قاسياً على المستر مكدونالد في الأدب السياسي . وقالت جريدة أخرى : إن اسماعيل صدقي باشا قد صفع مكدونالد صفة في مصر سمع صداها في الصين . قال محبوب ما تقدم وقال : إن الحكومة الانكليزية قد انتقمّت بعد ذلك ونالت من مصر بعد استقالة صدقي باشا . أما الذي أتاح لانكلترا الفرصة السانحة فهو زكي الابراشي باشا . وسيجيء التفصيل في كتابنا (حوادث مصر السياسية) في حديث يطول شرحه .

بالكلية الحربية، لأنني كنت أرى أن الجيش المصري في أشد الحاجة إلى أمثالهم، من حيث البنية، والشجاعة، كنت أكتشف فيهم هذه السجايا والمزايا أثناء تحدثي معهم والاستماع إلى أحاديثهم خلال الكشف عليهم طبيياً، لولا اسماعيل صدقي يا ابن محمود لما استطاع محبوب الذي تريد أن تتخذ منه رمزاً للدعابة، وعن هذا الطريق تود أن تهدمه، أن يؤدي هذه الخدمات للجامعة، وفي نفس الوقت للأمة، وكل هذه الخدمات ستظل مقرونة باسم محبوب ما دامت الجامعة في مصر قائمة^(١)... وإني سأغض عيني مرتحلاً عن دنياكم وأنا مستريح الضمير بما غرسته من مبادئ جامعية في مصر. إني لأتساءل ما السر في محاربتك لي؟ لقد قدرني اسماعيل صدقي، وعرف لي حق، مع أنني لم أتصل به كما اتصلت بك، ولم أعاشره كما عاشرتك، ولم أخلص له كما أخلصت لك. اسماعيل صدقي^(٢) يوظفني، ومحمد محمود يحاربني ١٩٤٦ ثم

(١) ظل محبوب يطالب بإنشاء جامعة فاروق الأولى بالاسكندرية، ويقول أساتذة هذه الجامعة إن الفضل في إنشائها يعود إلى الدكتور محبوب.

(٢) لما عين الدكتور محبوب في وظيفته في عهد وزارة اسماعيل صدقي باشا تصادف أن كان صاحب الدولة الجنرال نوري السعيد باشا الذي تجمعه بالدكتور جامعة الصداقة من عهد بعيد، إذ كانت توثقت بينهما علاقة الود من زمن الحرب الطرابلسية، رأى نوري السعيد باشا أن الوظيفة التي أسندت إلى الدكتور محبوب ثابت وظيفية ثانوية بالنسبة لمن كان في علم محبوب وفضله وواسع اطلاعه ومعلوماته، فعرض على محبوب وظيفية كبيرة يشغلها في العراق، ولكن محبوباً بالرغم من أنه يعتبر جميع الاقطار العربية أمة واحدة، كلها أرضه ووطنه، فإنه آثر أن يبقى في مصر ليغرس في نفوس الطلاب الوطنية.

يحاول هدى؟ ثم قال له : أليس من حق يا ابن محمود أن أقول إنك
تحقد على لاني الخطيب؟ (١) ،

ظل الدكتور محبوب معاتباً لمحمد محمود باشا ومقارناً بينه
وبين اسماعيل صدقي الذي قدره إلى حد أن رشحه لعضوية مجلس
النواب في دائرة بولاق المكتظة بالعمال ، غير أن الدكتور تنازل
عن ترشيح نفسه لأن عاملاً قتل أثناء اشتباك العمال مع رجال الأمن ،
ولما سئل عن سبب تنازله وانسحابه من المعركة الانتخابية سنة ١٩٣٠
قال : « إني لأحب أن أصبح نائباً في دائرة أريق فيها دم عامل
من العمال الذين أنصب نفسي للدفاع عنهم » . ولما قيل له إن بعض
العمال هم الذين بدأوا بالاعتداء على رجال الإدارة بلامبرر ، وكان
لابد لرجال الشرطة أن يدافعوا عن أنفسهم ، هذا من جهة ، ومن جهة
أخرى حتى لا يتدخل الإنكليز في شئون مصر الداخلية بحجة حفظ
النظام والأمن العام وحماية أرواح الأجانب وأموالهم ، كما جاء في
تبلغهم إلى الحكومة المصرية ، ذلك التبليغ الذي رد عليه اسماعيل
صدقي بإشارة حازماً قوياً مفحماً جعل الحكومة الإنكليزية تقف عند
حدها . ولما قيل للدكتور إن إصابة عامل أو عاملين لا يصح أن
تكون سبباً لانسحابك من المعركة الانتخابية وحرمان البلاد من

(١) أخبرني الأستاذ كامل السكيلاني صاحب المؤلفات الكثيرة ومن
شعراء حركة سنة ١٩١٩ ومن أصدقائه أحد خطباء الثورة وهو الأستاذ الخطيب
شكري كيرشاه أنموذجاً مما ذكرته مما كان يحدث بين محمد محمود باشا
وبين الدكتور محبوب .

خبرتك . أجب : « ولو (١) ، وقال للدؤلف إنى أصر على التنازل عن ترشيح نفسى حتى أفوت على النحاس باشا فرصة الدعاية .
كان الدكتور يذكر ما تقدم دائماً معاتباً لمحمد محمود باشا ويردف عتابه بقوله : « سأل الله ، وكان يعلن عجزه من موقف محمد محمود باشا حياله .
على أنى أستطيع أن أؤكد أن محبوباً لم يحقد يوماً على محمد محمود باشا ، بل كان دائماً فى عجب مصحوب بالدهشة مقرون بالآلم .

حزن محبوب على محمد محمود

على الرغم من أن محبوباً كان يذكر اسم محمد محمود مرادفاً للعتاب المر ، فإنه حينما فوجئ بنبأ وفاة محمد محمود بكى بكاء شديداً وأبكى ، وكان أكثر الناس حزناً عليه .

(١) كان بعض ساقطى الهمة من المنتسبين إلى الأحزاب المنافسة لاسماعيل صدقى قد استأجروا بعض العمال لإحداث الشغب والاخلال بالأمن حتى تعجز الحكومة المصرية عن حفظ النظام ، فقام المأجورون من العمال بحركتهم إلى حد أن بعض العمال حاصروا حكامدار بوليس سكة الحديد وهو (كمال بك الطرابلسى) الذى دخل عليهم فى أثناء وجودهم فى عملهم « بالعنابر » كما حاصروا لقيفاً من الجنود وصوبوا إليهم خرطوم المياه الساخنة مهددين . وكان المأجورون يفهمون العمال بأن الوزارة الصديقة لن تمسك فى الحكم أكثر من اسبوع واحد . وهذه المناسبة أقول إن الذين كانوا يستأجرون العمال سافروا كذلك إلى مدينة الزقازيق وأشاعوا هذه الاشاعة فى بيئات العمال بقصد اثارتهم لاجراج مركز الحكومة عن طريق إحداث القلق والاضطراب حتى يتيحوا لانجلترا فرصة التدخل فى شئون البلاد !

ولإني أذكر كل ما تقدم في صراحة وأمانة ، أذكره للتاريخ الذي لا يحابي ولا يجامل . وللتاريخ روعته ، ولحق صولته ، وللإنصاف جلاله وجماله .

محجوب يذكر مشروعاته

وهو مختصر

قال لي الأستاذ محمد يوسف دخيل الذي كان أمين سر الدكتور محجوب زمناً طويلاً : « إن الدكتور محجوباً ظل حاضر البديهة ، متوقد الذكاء قبل أن ينطلق سراج حياته منتقلاً من موكب الدنيا ورحاب الحياة إلى جوار ربه راضياً مرضياً عنه ، وإنه ظل يذكر مشروعاته الإصلاحية مشروعاتاً مشروعاً ، واقتراحاته الوطنية اقتراحاً اقتراحاً . وقال : كان محجوب وهو مختصر إذ يذكر قائمة مشروعاته الإصلاحية ومقترحاته الوطنية كأنه يوصي بأولاده ولدأ ولدأ . ثم قال : إن الفقيد قال له وهو مختصر : سيحتفل بافتتاح مسجد سيدى مرسى أبى العباس بالإسكندرية في هذه الأيام ، إني صاحب هذا الاقتراح اعترافاً مني بجميل آل الثغر الأغر الذين ناصروني وانتخبوني ، وإقراراً بفضل عبد الرزاق نصير بك المقاتل الماهر ، والشندى ، وصاحب مقهى « الحاج » بكوم الشقافة الذي جعل من مقهاه سرادقاً للناخبين يقدم لهم الشاي والقهوة بدون مقابل إكراماً لي ، بارك الله في أهل الإسكندرية النبلاء الذين لم يكلفوني ملياً ولا دانقاً . لازالت الإسكندرية عروس البحر الأبيض ،

سيدة المدائن، وخميلة الشعراء ، ومنجبة الحكماء . وداعاً وداعاً ،
وسلاماً سلاماً . ثم قال : ستر الله النقراشي وأخذ بيده بعد أن أخذ
بيدي إنه الوفي .

تلك كانت خاتمة كلمات محبوب قبل أن يغادر الدنيا إلى
جوار ربه . وقد وفي النقراشي للدكتور بعد مماته حيث شيعة تشيعاً
رسمياً ، وكان له الأهل والأخ .



غضب الكرامة وثورة الآباء

كان أحد المتصلين برئيس حزب من الأحزاب ، من الذين درجوا على ترويح زور الأخبار وإفك الروايات إليهم يلتمسون القربى إلى الزعماء بنقل الأخبار المصنوعة ، ويتخذون الأبناء الكاذبة المدبرة مهنة رخيصة للظفر برضا هؤلاء الزعماء ، ومن ثم وسيلة للقفز إلى المناصب الحكومية (١) .

كان أحد أولئك الرقعاء قد روى لرئيس حزب ، كان معروفاً أنه موشك على تسلم الحكم ، أن الدكتور محبوب ثابت يوسطه لديه لوصول ما انقطع من علاقات كانت بينه وبين رئيس الحزب ، وقد تعمد المخلوق أن يروي روايته في أثناء وجود أحد أصحاب الصحف التي تصدر في سوريا . ولا شك في أن هذا المخلوق قد تعمد سرد هذه الرواية ليظهر رئيس الحزب أمام صاحب الصحيفة السورية في مظهر المرغوب في الانضمام إليه ، حتى يتيح له فرصة التظاهر بالزهد في الأنصار لكثرتهم .

(١) لعل هذا من أسباب النفاق الذي تفشى بين كثيرين من طبقة الموظفين إلا من عصمه الله بمثانة الخلق وكرم المحتد .

فلما قصّ هذا^(١) رسالته المزورة على رئيس الحزب أجبأ ذلك الرئيس بقوله : « إن الدكتور محجوباً يريد أن ينضم إلينا ، لأنه يحس باقتراب الحكم نحونا ... إن الموقف جد لا هزل فيه الخ ... » ، وبالرغم من أن مارواه ذلك الذى يأكل على كل مائدة ، لا يتفق مع ما عرف عن الدكتور محجوب من شتم وإباء وزهد وعفة نفس ، فإن صاحب الجريدة السورية ، تعجل بتبليغ جريدته تلك الرواية المختلفة دون أن يكلف نفسه مؤونة الاتصال بالدكتور محجوب ثابت مع أنه يعرف الدكتور حق المعرفة ، ولكنه كان قد ظفر بنفقات الإقامة من أولئك الذين أوعزوا إليه .

فنقلت جريدة البلاغ هذه الرواية ، ونشرتها فى أظهر مكان ، ولما اطلع عليها الدكتور محجوب ، احتدم غضباً ، واستحال نائراً هائجاً ، وهو الهادى الوديع من قبل ، فانقلب كالأسد يستجمع قواه للوثبة ، وهو يصرخ قائلاً : « إلى هنا لن أستطيع صبراً ، لن أتسامح مع حملة ألوية الكذب والرياء والنفاق . هؤلاء الذين يظنون التسامح عجزاً ، وما كنت من العاجزين ، ويحسبون السكوت خوفاً ، وما كان الخوف ليعرف إلى قلبى سيلاً .. تالله لأدمين أكبادهم ، ولأرينهم : أننا الهازل ، أم هم الهازلون .. » .

(١) كان هذا المرائى قد طلب من الدكتور محجوب فى إلحاح أن يتوسط له لدى المغفور له محمد محمود باشا ليعينه فى وظيفة حكومية ، أو يعاونه على الالتحاق بدائرة الأمير سيف الدين ، فاعتذر الدكتور محجوب بلطف قائلاً : « إنى آليت على نفسى ألا أتصل بالحكام فى مسائل خاصة ، ولا يحمل بى ، وأنا أحارب الوساطة ، أن أكون وسيطاً لأحد » .

ثم أخذ ينادى بصوته الغضوب : « يا بشير .. يا دخيل .. يا مصطفي ..
يا بديني .. يا صالح .. ابروا الأقلام ، حضروا الأوراق .. سأكتب ..
سأملئ ... اتركوا كل شيء ... اكتبوا . سألقى درساً على الكاذبين
النفاجين (١) المختلقين ...

وإقدامي على المكروه نفسي وضربى هامة البطل المشيخ
ولكن هؤلاء ليسوا أبطالاً ، بل زعانف جبّاء ، رعاديد ،
يجمعون بين الخبث والخداع والكذب في قحة وجف .. إن
مانسبه إلى ذلك الفدم ما هو إلا رواية قام بتمثيلها لإرضاء أولئك
الذين كل سلاحهم الدجل والكذب ... اكتبوا ما أملئ
اطلبوا لى الأستاذ عبد القادر حمزة ... هاتوا الدكتور هيكل فى
التليفون ... اطلبوا الأستاذ داود بركات ، وحافظ عوض ...
اكتب :

فيا أذن هل فى الذى تسمعيه من القول إلا فرية وزعوم
أى والله صدق شيخ المعرة . لا بد أنه إذ قال هذا ، كان قد
أصيب بأمثال هؤلاء الكذابين :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن يخلو من أهم أخلاهم من الفطن
فبينما هو فى ثورته العاصفة ، إذا بالتليفون يهتف :
— السيد عبد القادر حمزة ؟

—

— كيف تسمح أن ينشر فى جريدتك هذا الهراء ! أنسىتم

(١) النفاج : هو الكاذب المخلوق للأخبار ؟

مواقفي وجهادى . . . أنسيتم تضحياتي ؟

—

— لا . لا أقبل بعد اليوم لأحد عذراً يعتذر به . . . لأنها الحرب
السافرة . ولكن سلاحكم الكذب الصراح ، أما سلاحى ، فسيكون
الصدق المحض ، سلاح الشرف .

وما تنتهى محادثة عبد القادر حمزة ، حتى ينتقل إلى تليفون الأهرام
مع الأستاذ داود بركات :

—

— أقرأت يا صديقي الإفك والافتراء . . .

—

— مخترع هذه الأكاذيب ، جامنى ذات مرة ، وهو يجمع
بين الجهل وثقل الظل يا حفيظ . . . إنه أثقل من جبل
رضوى^(١) جامنى ونزل على نزول الهم المقعد والغم المقيم ، وطلب

(١) قال لى الدكتور : جاء مثل هذا الثقيل ذات يوم إلى أمير الشعراء ،
وطلب منه أن يقول قصيدة . فلما استفهم منه متضائلاً : فيم ؟ أجاب :
« فى نصير » فسأله أمير الشعراء : « ومن يكون هذا ، وما مكانه فى الإعراب ؟
فلما أفهمه أن نصيراً هذا هو حامل الأثقال الذى تغلب على الأوربيين فى حمل
الحديد . . . قال شوقي : أتطلب من شاعر الوطنية ، وشاعر الحكمة والفلسفة
أن يقول شعراً فى حال أثقال أو عتال ؟ » ثم قال : « أرجو أن تغادرنى أو أغادر
أنا المكان » . . . وبعدئذ عن شوقي أن يقول شعراً وأن يصور هذا الثقيل موجهاً
كلامه إلى نصير فقال :

قل لى نصير ، وأنت برصادق أحملت إنساناً عليك ثقيلاً

منى أن أتوسط له لدى ابن محمود^(١) ليعينه فى إحدى الوظائف الحكومية .

— . . .

— ياسيدى . . . هذا المتطلب للوظيفة الذى صرفته بلطف
وذوق . . . هو الذى ، فى سبيل التقرب عن طريق النفاق ، راح
يقول هذا الافتراء .

— . . .

— أما رئيس ذلك الحزب الذى يقول دون أن يخجل : إنى
هازل وإنه هو الجاد ، فقد كان يعمل موظفاً لدينا ، نحن المجاهدين ،
وكان يتقاضى منا أجره ستين جنيهاً شهرياً من الأموال التى جمعها
بيمينى هذه . . . وها هو قد استحال متكبراً على سادته ! . ولكن
سيعيده محبوب إلى وكره ، سأجعله ضحكة الضاحكين وسخرية
الساخرين . . . اكتب . . . اكتب يا مصطفى . . . هات المضبطة يا بشير .
كان كل هذا وهو لا يزال يتحدث مع داود بركات بالتليفون . . .
وما كاد يضع « السماعة » من يده حتى « يهتف التليفون » مرة أخرى :
— من ياسيدى .

أحملت ديناً فى حياتك مرة	أحملت هما فى الضلوع غليلا
أحملت ظلماً من قريب غادر	أو كاشح بالأمس كان خليلا
أحملت مناً فى النهار مكرراً .	والليل من مُسد إليك جميلا
أحملت طغيان اللثم إذا اغتنى	أو نال من جاء الأمور قليلا
أحملت فى النادى الغبى إذا التقى	من سامعيه الحمد والتبجيلا
هذه الحياة وهذه أثقالها	وزن الحديد بها فساد ضئلا

(١) ابن محمود . هو محمد محمود باشا ، كما كان يسميه الدكتور محبوب .

— . . . محمد محمود باشا .

— . . . دولة الباشا . . . أقرأت هذا الكذب الشنيع وهذا
الاختلاق الجريء ؟ أقرأت مانسبه إلى المرجفون ؟ . . . أبعد
جهاد ربع قرن ، وبعد النفي والسجن وخراب البيت والجيب ..
أبعد إباءى ، وشموخ أنفى ، وعزة نفسى ، وزهدى ، وعفة يدى . يطعنون
فى وطنيتى ، وهى كل مابقى لى فى هذه الحياة ؟ يتهموننى بدل أن
أتهمهم .. لا .. لا .. سيعلمون من هو محجوب إذا أثير . سيعلمون
من هو إذا غضب . . . سيعلمون . . . إن لخمى كان مرأ . (اكتب
يا صالح عنوان المقال : إن لخمى كان مرا) .

— . . .

— أرجوك أن تتركنى الآن يا باشا . . .

. . . اكتب . . . اكتب يا مصطفى . . . وأنت يا صالح . . . اكتب
يادخيل . . . امسكوا الأقلام . . . سأملى لكل منكم موضوعاً ورداً . . .
اكتبوا أبيات البارودى فإنها تنطق بلسان حالى . فلتكن مستهل كلامى ،
وصدر مقالى ، فإن حالى مع هؤلاء كحال البارودى مع شائتيه وحاسديه
على عزة نفسه وعفته . . .

قال البارودى :

أتخفر ذمتى وتروم عطفى	لقد متتك نفسك بالكذاب
فما بعد القطيعة من تلاق	وما بعد الخديعة من عتاب
وكيف يصح بعد الغدرود	وتسلم نية بعد ارتياب
رويدك لئننى صعب أبى	على الأقران مرهوب الجناح

أجاهر بالعداء ولا أبالي وانطق بالصواب ولا أحابي
فازندى لدى العوثةا كابي ولا سيفي غداة الحرب نابي
والى هنا يقف مفكراً . . . ثم يذرع حجرة المكتب جيئة
وذهوبا . . . وهو يستعيد فى ذاكراته أبيات البارودى . . . ثم يعاود
الإملاء . . . اكتب . اكتب . اكتبوا . . .

فإن رمت السلامة فاجتنبى عدواً فالسلامة فى اجتنبى
لقد عاديت أعظم منك قدراً وما ضاقت على بدنى ثيابى
فإن تنزع فأنت طليق عفوى وإن تطمع فسوف ترى عقابى
وبعد أن يقف مفكراً هنيهة يوجه كلامه إلينا : « هذا كلام البارودى ،
رب السيف والقلم ، ومثال الشهامة أيها الشبان . والبارودى فى الحقيقة
والواقع ، هو أستاذ شوقى وحافظ ومطران » . .

ثم يتناول جريدة البلاغ ليفند ما نقلته عن الجريدة السورية
ويقول : « ما هذا الافتراء ! ما هذه الجرأة الفاجرة . . لقد صدق
البارودى فى وصف هذا النوع الرخيص من بنى الإنسان » . .
وهنا يدخل شوقى أمير الشعراء والدكتور محبوب فى أشد
سورة الغضب ، منفوش شعر رأسه ولحيته كقوادم النسر وخوافى
جناحيه من حدة الغضب .

فلما رأى أمير الشعراء حالة الدكتور محبوب فى غضبته — وقد
كان رائعاً فى غضباته — وكان من أمانيه أن يتمتع نظره ويغذى شاعريته
من غضبات الدكتور محبوب ، اطمأن إلى أنه قد عثر على ضالته المنشودة ،
وأدرك أن أمنيته قد تحققت . . . إذ ظفر بصورة رائعة كان لا ينفك

يطلبها ويبحث عنها .

أخذ شوقي يستوضح الدكتور محجوباً عن سبب غضبته . وكان الدكتور يزأر زئير الأسد وهو يتأهب لمواصلة الإملاء . . . وكان يهدر كالجل وهو يتلوفى الجريدة مانسب إليه كذباً وبهتاناً ، وقد بدا في ثورته كالنمر المجرّوح . ثم ناول الجريدة إلى أمير الشعراء وهو يقول له : « اقرأ يا سيدي تر ماذا نسب إلى المرجفون ، الهمازون ، المشامون . . هذه هي أسلحتهم . . لقد أصبحت لا أحتمل ، ولن أتسامح مع هؤلاء الجبناء بعد اليوم ، سأجيبهم بالحقائق ، سأفقد أعينهم بالصدق ، سأضربهم ضرب غرائب الإبل . . إن محجوباً لا يقع له بشنان ، وإن تجد شفراتهم لها في محجوب محزاً . . إن حال مع هؤلاء الأدياء كحال البارودي حينما هاجمه دنيء ، واختلق عليه محتلق من السفهاء الذين إذا صرعتهم لم تفعل شيئاً ، وإن أصابوك كانوا من تفاهة القدر بحيث لا تحس لهم بمفاخرة عليك . ففي الحالين أنت المغلوب ولو كنت منتصراً . . لأن من هاجمك - حتمه مقاديره أن يُنالاً . . . »

ولو أني بليت بهاشمي خؤولته بنو عبد المدان
لهان على ما ألقى ولكن تعالوا وانظروا بمن ابتلاني
ولكن يا شوقي ما أبدع ما وصف به أستاذك البارودي (١) مثل
متطلب الوظيفة المختلق . فهذا الوصف ينطبق تماماً على من ابتلاني بهم
القدر الساخر

فتساءل شوقي وهو مأخوذ بروعة هذه الغضبة - وهي صورة

(١) حدثني الدكتور محجوب بنفسه فقال : « إنني أردت أن اقتصر من شوقي الاعتراف الضمني بأستاذية البارودي له ولسواه من شعراء العصر الحاضر ،

عجبة إلى نفس شوقي - : «ماذا قال البارودي؟» فأجابه الدكتور بحجوب وقد فطن لما في نفس أمير الشعراء - :

كيف أهجوك والدناءة سور من حديد يقيك طعنى وضربى
لك عرض أرق نسجاً من الر يحوأ وهى من طيلسان ابن حرب
وهنا بدأ الهدوء يعود قليلاً إلى نفس الدكتور بحجوب فقال : «يا شوقي
كنت ولازلت أتحمّل مزاحك اللطيف ، واختلاقاتك الطريفة ، لأنها لا تؤذى
السمعة ، ولا تخرج كرامتى ، ولا تمس وطنيتى .. أقبل مثل ذلك المزاح الذى
أوعزت به إلى سليمان بن فوزى (صاحب الكشكول) حينما قلت بلسانى :
أيشتمنى سليمان بن فوزى وببى فى يدى ومعى طباقى
اعتبرت «ببى» مدفعا فى فى ، وكيس طباقى ذخيرة المدفع ... هذا
اختلاق مقبول منك يا شوقي ... وأعود فأقول : إن حالى أيضاً
مع هؤلاء يا شوقي ، هو كحال صديقك حسن حمدى بك الشاعر الدفين
الذى لا يهتم بنشر شعره ... والذى يقول الشعر للشعر ..

فقال شوقي : «وماذا قال حسن حمدى بك يا دكتور؟»
قالها مأخوذاً وهو يحملق عجباً من أن الدكتور بحجوباً يحفظ
لحسن حمدى بك الشاعر المخبوء والعالم المحجّب

فأخذ الدكتور بحجوب ينشد مترنماً وهو يهز رأسه طرباً :
موجع القلب عليل ما إلى برئى سيل
من رأتى ، لا رأى الشامت إلا ما يهول
قال سبحانك ربى هل أفادتنا العقول ؟
أدى لوذعى بين كلبين قتيل ؟

آه من دنيای آه منیتی عنها الرحیل
بئست السکنی بدار غادر فیها الخلیل

ولقد حاول شوقي في هذه الليلة أن يطفىء تلك الثورة النفسية المتأججة في صدر الدكتور محبوب ، وحاول أن يواسيه بقوله :
والأمة تعرف قدرك يا دكتور ، وهي تذكر لك ماضيك المجيد وتشيد بوطنيتك وتعترف لك بفضلك وجهادك .

ولكنه كان من سورة الغضب ، بحيث يستقبل مؤاساة شوقي بقوله :
إن لم يكفهم هذا فدونهم قبري بعد موتي يدوسونه بأقدامهم ، لم يبق في استطاعتهم إلا هذا ، ولكن لا بد من إلقاء الدروس القاسية ، وعلى أية حال سأدوس عليهم وهم أحياء .

وهنا بدت على وجه أمير الشعراء مظاهر الألم الصحيح والتأثر الصادق البالغ ، فالتزم الصمت في مجلسه ، تاركاً الدكتور مجرباً في انفعالاته وهو يملأ مقاله الذي نشرته « جريدة السياسة » في عدة صفحات : فجاء درساً في الأدب الحى والرجولة الصحيحة ، جاء صورة رائعة لغضبة الحلیم السکریم . غير أن شوقي أراد أن يغيّر مجرى الحديث فسأل الدكتور : وماذا تحفظ لحسن حمدى أيضاً قال : اسمع ما يقول حسن حمدى :

وسائل أجبتہ والنار ترعى كبدی
یومى كأمسى أبدأ فلا تسلىنى فى غدى
إن لم تعد شیبتی فلن یزول كمدى
ولن تعود مهجتى راغبة فى جسدی

وما زَوَّالُ الدهرِ مِنْ عودِ الصبا بأبعدِ
 فلا مجير لى إذن سوى الكرى المخلدِ
 يا ليتهُ أدركنى قبل البياض الأسود
 وهنا أخذَ شوقى... وقال: البياض الأسود يعنى الشيب. هذا
 المعنى جميل. فقال الدكتور: أردت أن تغير مجرى الحديث، ولكنى
 أثرت مجبك من (البياض الأسود).



الجهاد الشاق

الكتور محبوب بحارب الدرس والرقبة ، ويعمل على معالجة
الأمراض الاجتماعية . ثم يعطى دروساً للزملاء وزملاء الأقسام
موضحاً لهم غيبيهم التي هي الأسباب المباشرة في قلب نهضتنا
الى كبرية وحمود ، وقتنا الى ضعف ، وشدة وطنيتنا الى ميوعة ،
وصموديتنا في حقنا الى لين ، وانتموفنا الى اغتموف ، ووعينا
القومي الى ما يشبه الفقد .

قبل أن أذكر هذه الناحية الدراسية من جهاد محبوب ثابت في
سبيل معالجة أمراضنا الاجتماعية ، ونقائصنا الخلقية ، وعيوبنا النفسية
أقول : إني لا أقصد مساس أى شخص بعينه لإرضاء آخر . وكل
ما أبغيه ، هو أن أبين للناس ما كان الدكتور محبوب يحاربه خدمة
للوطن في نفس الوقت . . . ثم إن كل ما أهدف إليه من ذكر
ما سيحيى ، هو مواصلة ما كان يكافحه محبوب وساهمت معه فيه ، وهو
دين وطني قد آليت على نفسي أن أؤديه وتقيدت به أمام ضميري ،
ولن أدخل في حسابي لإرضاء أحد ، صغر أم كبر . . وأراني غير
مستطيع أن أعدل عنه أو أحور فيه أو أتخلص منه ، فمعدرة إذا
أطلت في هذا الفصل . كما ألتس بسبيل ذيل المعذرة إذا رمزت إلى

أسماء ناقلى عدوى الأمراض الاجتماعية بالحروف الأبجدية ، والثماني
هذا موجه إلى أبناء الأجيال المقبلة ، لا لأبناء هذا الجيل الذى
أعيش فيه .

ولقد فكرت طويلاً ، ثم ظللت بين الإقدام والإحجام وقتاً غير
قليل . . . وأخيراً وجدتني مقدماً على الأداء ، مدفوعاً بنى إلى
كتابة هذا الفصل ، غير مراعى أى اعتبار إلا خدمة وطننا ومستقبله .
داعياً إلى الفكرة السامية التى طالما دعا إليها الدكتور محبوب ،
ومصمماً على أن أذكر تلك العيوب ، وهذه الأمراض التى تفتك
بالمجتمع المصرى ، ليتحاشاها الزعماء ، وليتفادها أبناء الأمة ، وليحاربها
الشجعان من بنينا ، ومعلنناً أن الواجب الوطنى يفرض على كل
مخلص أن يحارب ناشرى هذه الأمراض وحاملى جرائمها وعدواها
بجميع الوسائل ، فى غير رحمة ولا إشفاق ولا بجمالة ، وأن يوسعهم
إهانة ، وأن يشبعهم احتقاراً ، حتى يتلاشوا ويختفوا عن الأنظار ،
فتأمن البلاد شرهم ، وتستأصل شأفتهم ، مع الاعتقاد الجازم أنهم أكثر
خطراً على الأمة من المحتل الأجنبى وأشدّ ضرراً . . . وأن الحملة على
الزعماء وإظهار عيوبهم فى هذه الناحية لمن أوجب الواجبات ، وهى
الفريضة الوطنية الواجبة الأداء ، المحتومة الوفاء .

فمن يردونه حقاً فإنى أراه وحده الحق الميننا
والى هنا يجب علينا أن نصور لأبناء الأجيال المقبلة الحقائق
فى صراحة كاملة سافرة ، وأن نبين لهم أسباب ركود الوطنية ووقف
تقدمها فى حرية شاملة ليكونوا أسعد حالاً ، وأبعد نظراً ، وأحسن

مستقبلاً ، وأفضل خلقاً ، وأكرم مآلاً ، وأشد حذراً ويقظة ، حتى
لا يُخدعوا كما خُدعنا ولا يؤخذوا كما أخذنا .

ولا جدال في أن من الوطنية والأمانة أن نذكر لهم أسباب
انحراف وطنيتنا عن الطريق السوي ، وابتعادنا عن الغرض الاسمى ، والأمل
المرجو ، وهنا يحى دور الدكتور محبوب ثابت في مكافحته التي حمل
لواها حيناً من الدهر... نذكر لهم هذا الدور ليقصدوا به ، وينسجوا
على منواله ، ويسيروا في دربه ، وليتعضوا بنا ، والسعيد من اتعظ
بغيره ، كما يقول الحارث بن كلدة :

إن السعيد له في غيره عظة

وفي التجارب تحكيم ومعتبر

وإني إذ أعطى فكرة صحيحة لأبناء الأجيال المقبلة عن تصرف
الزعماء والمتزعمين ومن في حسابهم ، إنما أقوم بواجبين :
الأول : واجب الوفاء والإنصاف للدكتور محبوب ثابت عن
طريق الإشادة - بحق - بجهاد الطويل ، وهو الجندى المجاهد ، والمصلح
المصرى السوداني ، والسوداني المصري - كما كان يعبر هو عن نفسه -
هذا المجاهد الذي يصوره لنا العلامة الأستاذ الجليل ، الأبي العيوف
والمؤلف الكبير « محمد كرد علي بك » المصري السوري في كتابه
إلى حيث يقول فيه :

« عزيزي الأستاذ صالح - طالعني كتابك بصورة من وفائك .
حقاً إن الدكتور محبوب ثابت بك - رحمه الله - جدير بأن يكتب
فيه كتاب . ولولا أن صاحب الدولة والفضل محمود فهمي النقراشي باشا

بان من وفاته العظيم يوم وفاة صاحبه ، لقلت إن محبوب ثابت
نبي أضاعه قومه . قلائل جداً من خدم مصر كما خدمها محبوب
ومن أخلصوا في حبها بلا غرض ولا عوض ، بارك الله فيك .
ولإني في انتظار البقية من مسودات كتابك فيه . وأرجو أن تعجل
وتذكر كل شيء . .

ولسكن المؤلف لم يستطع أن يعجل لأنه كان محارفاً ، وكان محارباً
كما سيحيى .

والواجب الثاني : هو أن أحذر الأمة من مغبة عدم محاربة
أمراضنا الاجتماعية . . . وإني لمستريح الضمير ، قرير العين ، بأداء هذين
الواجبين وحسبي هذا .

طراز من الذين يلتفون حول رؤساء الأحزاب

هذان رجلان قد عاشا وترعرا في وكر الدسائس وتأليف
الأخبار منذ سنة ١٩١٢ على الأقل ، أى من عهد المغفور له الخديو
السابق ، ولهما تلاميذ ، أحدهما يصبو إلى كرسى النيابة في كل عهد ،
ويطمع في مبالغ يتقاضاها من المصاريف السرية ، وقد اعتاد الظفر
بمرتب يربط له من تلك (الحزاة) في العهود المختلفة ١ ولا يقرُّ
له قرار ولا يهدأ له بال إلا إذا قُيد اسمه في قائمة من تُعين
لهم المرتبات . وهو يوسط دائماً ذوى النفوذ من رجال الأحزاب
الذين ينسج حولهم خيوط التودد بتلك الوسائل غير الشريفة ،
ثم يطالبهم بالتوسط له في زيادة مرتبه ، وفي نفس الوقت يتجر

بما يخطه قلبه . . يسير خلف ركاب رئيس كل وزارة ، مادحاً
إياه ، ويجرى خلف كل ذى نفوذ . ولا يتعفف عن التزلف إلى
سعاة دور الحكومة ، تراه دائماً راکماً ساجداً بالتحيات التركية ،
مقبلاً للأيدى منحنيّاً . يحمل وجهاً وقاحاً نضب منه ماء الحياة
وغاض . وبأبى إلا يكون عبداً لكل إنسان . . . تراه أسرع
الناس فراراً وابتعاداً عن ابتعد عنه الحكم ، وأسرعهم تقرباً
وأشدهم تودداً لمن يقرب منه الحكم . أو يُظن . . . قوة حاسة
شئمة ، ناكر للجميل . تجسس في الداخل وفي الخارج ، وفي القرية
وفي الأقليم ، وفي الحاضرة . . . ولما تعددت الأحزاب في مصر ،
طاف بكل الأحزاب ، وتنقّل بين كل الهيئات ، واندس بين
كل الجماعات واستفاد منها جميعاً . . . هو قطب في الدس ، وأستاذ
في الوشاية ، وبطل في الهمس والوسوسة . اختلق وذّبر في غير
ما وازع من ضمير . رمز إلى اسمه م . م . ع . ا ، ومن قبل نافس
زميله القديم كما نافسه في العهد الجديد ، فهما صديقان خصمان .
متفقان مختلفان في مواطن المصلحة ، ولكنهما فرسا رهان في سوء
الخلق ، وخراب الذمة والدس والوقيعه (والضحك على ذقون
الزعماء واستغلال تنافسهم على كراسي الحكم) .
أما الآخر فترى ، كريم المنبت ، شريف المعتقد ، والمولد ،
فعم الوالدان وبئس الابن ! طابت الشجرة ، وخبت الثمرة ! عاش
في جو الدسائس زمناً طويلاً ، وفي بيئة الرذيلة أعواماً ، فلما تعددت
الأحزاب انضم إليها متظاهراً بالغيرة والاخلاص ، وفي الحقيقة ،

تحرراً على كرسى الوزارة ، حاقداً على كل من يعين وزيراً .
سلاحه الدس فى الظلام الدامس ، والتشكيك فى النهار الضاحى بكل
من يظن أنه سيصبح وزيراً ، عله يختار بدل الذى أمعن فى الدس
له ، وبذر حوله بذور الشكوك والريب . وأوغل فى الاختلاق
عليه ولنزى إلى اسمه بـ « ح . ا » .

وهذا ثالث لا يجيد غير الهتاف ونقل الأخبار الكاذبة . فهو
يسند روايات زميليه المختلقة ويؤيدها . وبهذه الوسيلة عين موظفاً ، ثم
راجت بضاعته لدى الزعماء ، دار على الأحزاب فاستغل تفكك الكلمة
والتنافس بين أفراد الحزب الواحد . ومن عجب أن هذا الجاهل
الغبى قد استغل الزعماء الأغبياء والمتزعمين وتقاضى منهم الأموال من
(خزينة الأمة) باسم نشر الدعاية لهم ، فاغتنى وابتاع الأطنان ،
واقنتى وابورات الطحين والمياه ، وبهذه الوسيلة الرخيصة رقى فى
الوظائف الحكومية وزيد مرتبه واسمه (ا . ص) .

محجوب يلقى الدرس

لما اتخذ ذلك الرئيس مجلسه فى ندوة داره ورأى الدكتور محجوباً
يتحدث مع رسوله إليه ، قال موجهاً كلامه للدكتور : « مالى أراك
منهمكا فى حديث خاص ، فأجاب : « إني أتكلم فى مسألة خطيرة ،
وسكت . وإذا بالذاسسين يستعنان بئالهما وينسبان إلى أحد أبطال
الحركة الوطنية وهو (م . ع) مسائل غير صحيحة ، وكان لا يزال

خارج القطر ، ثم إذا بهما يدسان لأحد الشباب من المحامين -
 وكان ذلك الشاب قد تعرض لأشد الإعانات وضحي كثيراً في
 سبيل الفكرة التي عمل لها وهو ف . ح وقد انتقل إلى جوار
 ربه - ثم أخذاً يشيان بموظف كبير كان الدكتور محبوب
 يعرفه حق المعرفة . . وهنا اعتدل الدكتور في جلسته ، وضحك
 بصوت عال ضحكة الغضب الساخرة ، وكانت أشبه بزيير الأسد
 وإذا هو يفعل ويثور ، ثم يقول لذلك الرئيس : « إن كل ما سمعته
 دس في كذب في اختلاق . . . كنت أقول لرسولك إلى بأنى سأصاب
 هؤلاء الذين يجعلون من أنفسهم بطانة سوء لكل رئيس حكومة
 في مصر . . . وكنت أقول له إنى سأصاب بهم في مجلسك هذا ،
 هؤلاء الذين يسبقون مرسوم إسناد الوزارة بالالتفاف حول كل
 رئيس وزارة . . . إنكم تجنون على الأمة في أخلاقها بالاستماع إلى
 حملة ألوية الكذب والشقاق والنفاق ، وإضعاف الثقة بين المصريين
 جميعاً . ما هذا ؟ أشقاق أيها الناس بين حزب وحزب ؟ أو تنافس بين
 الأحزاب على خدمة الوطن ، وتحاسد بين أفراد الحزب الواحد ؟
 وشقاق بين الأسر بسبب التنافس على عضوية النيابة ؟ ! ماذا بقي لنا ؟
 كيف تسمح هؤلاء أن يجرحوا بالباطل زميلك وابن إقليمتك وأنت
 به أعلم منهم ، وكان الجدير بك أن تردعهم ، وكان الأليق ألا تستمع
 إليهم . . هذه حالة لا تطاق ، والسكوت عليها جريمة لا تغتفر . . .
 هؤلاء هم أصل الداء . . . إنى أقول إنكم أيها الزعماء ، تحتضنون جرائم
 الشقاق ، وهؤلاء هم سبب انحطاط الأخلاق . لقد آن أن تتضافر في

سبيل التخلص من هذا النوع من الناس وإلا فلن تقوم لامتنا قائمة .. فتجههم وجه الرئيس . وأخذ الدساسون وارتاعوا . ولما وقف بعض مرافقي الدكتور موقف المتحضر المتحدى .. ابتسم الرئيس مغلوباً على أمره وعمل حساباً لصراحة أحد أصحاب الدكتور ، وغضبته .

أما الدساسون فقد خشوا مغبة الكلام وتقادوا نتائج وشاياتهم فرأوا في السكوت السلامة ، حتى لا تتصل أنباء وشاياتهم بمن كانوا يدسون لهم ، وكان الدكتور مصمماً على أداء الرسالة وإلقاء الدروس القاسية ، وكذلك صديق الدكتور الذي كان يومئذ أداة تهديد في يده .

* * *

ولما قال الرئيس محرراً : « صف لنا العلاج يا دكتور ، قال :
 « العلاج أن توطن نفسك على أن تسمع مثل ما سمعته مني الليلة وأن تعمل به . وألا تستمع لهؤلاء المشائين النفاجين ، وألا ترفع الأشرار على الأحرار ، وأن تقطع علاقتك بالنوع الرخيص الذي يتقرب إليك اليوم ، وقطعاً سيتقرب غداً لكل من يؤول إليه الحكم بالوشاية والسعاية . أقول لكم لقد أصبح من أوجب الواجبات تحذير الزعماء بعد أن عصفت بالامة الأهواء بما أثارته المنازعات والمنافسات بين الأحزاب على الحكم ، وبين أعضاء الحزب الواحد من الحسد والتنافس - تلك المنافسات والأحقاد التي يضاعف في تأجج نارها نقلة الأخبار المختلفة . وهذه المنازعات قطعاً لا تتصل بسبب إلى المصلحة العامة . والسبب في ذلك أن المصالح الشخصية طغت على كل شيء ، وأعني بالمصالح الشخصية هذا التكالب على حب المادة والمجد المزيف ،

والجري وراء تلك الألقاب الضخمة التي أصبحت أعرض وأطول من جغرافية بلادنا . وهذه الألقاب يختمني حملتها حين يجد الجسد ، ويفغر الأجني فاه لا ابتلاع حق باق من حقونا . لقد أصبح - ياسيدى الرئيس - واجباً علينا نحن الذين نشقى بالوطنية غرساً ونجنحها حظلاً أن نحذركم من هذه الهوة السحيقة التي ستتردى فيها بلادنا . وفى سبيل العودة بالامة إلى الجادة ، لا مندوحة لنا من أن نحارب التفاق والرياء ساخرين من الأذى مستهينين بالعقبات ، حتى تعود الامة كما كانت موحدة الكلمة ... قوية الإرادة . ثم وجه كلامه إلى الدسائس فقال لهم : « إنكم اجتمعتم الليلة فى هذه الدار لتسبقوا المرسوم الملكى الخاص بتأليف الوزارة . ولولا ذلك ما جئتم ... يوسفى أن أقول لكم إن المرسوم قد صدر ، ولكن بإسناد رئاسة الوزارة إلى غير حضرة الصديق الرئيس . فاذهبوا بسلام إلى من أقبلت عليه الدنيا ، وفى يقينى أنكم ستذهبون ، وقد كان يقينه صادقا ... »

إذ حدث تماماً أن بعضهم اتجه إلى من أقبلت عليه دنيا الحكم ومنهم من تحايل على مصاهرته ، وهو الذى كان ينسب - ظلياً وعدواناً - إلى الأبرياء بأنهم يتصلون بالحكام ، إذ كان يهتمهم بما هو فيه وهو الذى رمزنا إلى اسمه بحرف (ح. ١٠) .

كان الدكتور محبوب صادق الفراسة ، قوى الملاحظة ، وهو الطبيب الشرعى ، والمحلل النفسى الأملعى :

ذكىّ تظنيه طليعة عينه يرى قلبه فى يومه ما ترى غداً

مواسم ظهور حملة ألوية الفتنة - طراز من نوعهم

في تلك الأيام : أيام الفتنة . . . أيام الشقاق والخصام بعد
الوئام الذي كان سائداً إبان الحركة الوطنية سنة ١٩١٨ - ١٩١٩ ،
قبل تكالب الزعماء على كراسي الحكم .

في خضم الحوادث ، وخلال أمواجها المتلاطمة ، وفي أثناء قيام
وزارة ، وذهاب وزارة أخرى . . . في تلك الأيام التي تدب فيها
عقارب الفتنة . . . والليالي التي تنساب فيها أفاعي الدس والوقعة
من الذين « يصطادون في الماء العكر » ، ويأكلون « لقماتهم » « مغموسة »
في دماء الأبرياء ، وهم الدساسون المشامون الذين يعتبرهم الدكتور
محبوب - بعوض المجتمع المصري ، وبراغيث الأحزاب السياسية ،
وناقلي عدوى الأمراض الاجتماعية - ، النافخين في أبواق الفتنة ،
المفرقين لكلمة الأمة ، ليستفيدوا .

فإن كان الدساسون من ذلك النوع الذي يبحث عن المال ، من
أى طريق غير آبه بالوسيلة ، أهى مشروعة أم غير مشروعة ،
أخير أم شر ، فسييلهم الاختلاق والدس إذا لم يهتدوا إلى شيء
يرمون به بريئاً ، ويصيبون به وطنياً مخلصاً ، شريفاً في وطنيته ،
معتداً بنفسه ، معتزاً بمتانة خلقه ، مجانباً لوسائلهم . أما إذا كانوا
من متطلي المناصب الكبرى ، أو المتحرقين على المراكز الوزارية
فسييلهم تشكيك رئيس حزبهم في من يظنون أن رئيس الحزب

سيقع اختياره عليه . ولا عبرة لدى متطلي المناصب الوزارية من الدسائس أيضاً بالوسيلة التي يتخذونها ، أهي شريفة أم دنيئة . أحق ما ينسبونه إلى من يغتابونه ، أم باطل نسجوه من مخيلاتهم !

ولقد شجعهم بعض الزعماء بغفلتهم أو تغافلهم العجيب - إن صح هذا الوصف فقط للزعماء - على كل حال ، فالتعبئة إنما تقع على عاتق الزعماء قبل الدهماء ، وذلك لأنهم بغفلتهم قد حطموا كثيراً مما كان باقياً سليماً من أخلاقنا ، وقضوا أو كادوا على ما كان متأسلاً محموداً من عاداتنا ، فأشاعوا النفاق والرياء ، ووضعوا أسس السياسة الرخيصة ، والفكر الرخيص ، والأدب الرخيص ، والوطنية لرخيصة ، والأسلوب الرخيص ، إذ قربوا إليهم حملة الأقلام المتجرنين بأقلامهم الذين لا مبدأ لهم ولا عقيدة ، وهم الذين ينتقلون من حزب إلى حزب يمدحون من آل إليه الحكم ، ويقدحون فيمن تركه الحكم ، وهم في مدحهم وقدحهم يهدفون أبداً إلى الغرض الشخصي والهوى النفسى ، متخذين هذه الوسائل ذريعة إلى المناصب والرقى إليها ، وجمع المال من هذا الطريق ... والأعجب من ذلك أن الزعماء يقربون من كان بالأمس القريب يشكك الناس في وطنيتهم وفي ضمائرهم بمجرد أن يطعن في منافسهم بعد أن يزجى إليهم قلائد المدح والثناء ، وبعد أن ينسب إليهم ما كان يجردهم منه بالأمس الدابر .

يتكرر من ذوى النفوس الصغيرة هذا العمل ، ويتكرر من الزعماء تقريرهم والاستماع إليهم ! ! !

إذن فالزعماء هم أصل الداء ، وسبب البلاء ، وإفساد الأخلاق

وهم سبب وقف تقدمنا الوطنى وجعله كالماء الأسن فى البركة الموبوءة
الراكدة، بعد أن كان تقدمنا الوطنى كالتيار الجارف فى البحر الهائج
والسيل الذى « يضيق عن آتية الأودية والسهول (١) ». نعم الزعماء
هم أصل الداء وسبب البلاء . وجلهم فى ذلك سواء .

راجع الصحف المصرية فى سنة ١٩٢٢ وما بعدها ترعجاً
تر الزعماء يقربون فى غدهم من كان يطعن فى وطنيتهم بل فى أعراضهم
فى أمسهم ، ويشيد بوطنية منافسيهم ، تر مجرد أن يمسى من كان
يطعن فيهم ، طاعناً فى وطنية منافسيهم بنفس الألفاظ التى طالما
تناولهم بها من قبل يهشون له ويدشون ، ثم يتخذونه بطانة ومستشاراً .
أفلا يدل هذا على خطل الرأى ، وصغر النفس ، وقصر النظر ،
وضيق الفكر ؟... أقول على سبيل الاستدلال وإعطاء الفكرة ،
لا على سبيل الحصر ، فالشرح يطول ويحتاج إلى مجلد كبير بل
إلى مجلدات (٢) .

فى سنة ١٩٢٢ وما بعدها إلى بضع سنين كان أحد أعلام
الكتاب والعلماء - فى نظر بعض المترجمين - من أساتذة الجامعة
الأمناء ، على تربية رجال المستقبل . كان هذا الأستاذ الذى تلقى
علومه فى الجامعة الأزهرية ، ثم فى الجامعات الفرنسية ، يكتب فى
جريدة السياسة مقالات نارية ، طاعناً فى أضخم زعيم فى مصر ،
وأكبر متبوع ، مجرحاً فيه كل ما هو عزيز يحرس عليه الإنسان

(١) هذا تصوير من محبوب لحركة سنة ١٩١٨ - ١٩١٩

(٢) هذا أيضاً تصوير لآراء محبوب .

تحت عناوين : « دجالون » ، « مشعوذون » ، « كاذبون » ، « جبنا » .
إلى آخر هذه الصفات والنعوت التي كانت عناوين لمقالات ذلك
الذي أصبح - بعد - أستاذاً وعميداً لكلية الآداب على يدى الزعماء
مروسى « سعد » ، الزعيم الضخم الذى جرّحه هذا الكاتب فى وطنيته ...

* * *

آه . آه من عقلية الزعماء !! وآه . آه من حكمهم على الناس والأشياء ،
والاتجار بالرأى . فأنت ترى أنهم بمجرد أن مدحهم ، تناسوا ما تناول
بهم موجد^(١) « سعد » ولم يبالوا بالفرق البعيد ، والبون الشاسع
بين « سعد » وبينهم ... بل كان يجب عليهم أن يقولوا لأنفسهم :
أين نحن من سعد فى قوته ، بله فى ضعفه ؟ فى كل شيء ... أين
الثرى من الثريا ؟ أين الفأر من الأسد ؟ أين الغراب من النسر ؟ ألم
يكن من قوة الخلق ، وبعد النظر أن يقولوا لأنفسهم : إن هذا الذى يمدحنا
اليوم ، إنما يتاجر بقلبه .. لا يصح أن نقبل منه مدحاً بعد أن قدح فى زعيمنا
ورئيسنا أمس . أين نحن من « سعد » ... ؟ إلخ .. كيف نقبل شهادة
الوطنية والنزاهة والإخلاص من رجل لم يترك لسعد أديماً سليماً ؟
إذن فالزعماء هم الذين أشاعوا النفاق والرياء ، وصغر النفس ،
والاتجار بالمبادئ والآراء . نعم هم الذين يحطمون أخلاقنا ، ويحنون
على وطنيتنا ، ويقضون على المثل العليا ... وإذن فالواجب يقضى على
كل وطنى ، أن يعمل بكل الوسائل المشروعة فى دائرة القانون ،
على أن يقوم من اعوجاج الزعماء قبل الدهماء ، وإلا فالويل لنا كأمة ،

(١) سيجىء تفصيل ذلك فى كتابنا (حوادث مصر السياسية) .

والعفاء على الوطن والوطنية . علماً بأن :

الرأى ليس نافعاً إذا أوانه مضى

فإذا كان هذا بعضاً من أخلاق أستاذ الجامعة نفسه ، فإذا
نتظر منه ؟ .. أفلا نخشى أن يفرس مبادئ النفاق والرياء في
نفوس بعض الطلاب . وحينئذ ألا يحق لنا أن نصرخ :
بنس الأستاذ ، وبنس الطلاب ، وبعداً لهؤلاء الزعماء ؟ .. أليس
من الواجب أن نقول للزعماء : تخلوا عن مكانكم فقد سئتمكم ،
ويئسنا من تقويم اعوجاجكم ما دتم كذلك ؟ ..

لنعد إلى موضوعنا بعد هذا الاستطراد القهرى مصورين آراء
محجوب كما سمعناها منه .

في يوم من تلك الأيام التى تدب فيها العقارب البشرية ، وتنساب
فيها الأفاعى الآدمية ، وهم الذين أبدع شوقى فى وصفهم بقوله :

ألا يا ربَّ خدّاع من الناس تلاقيه

يعيب السم فى الأفعى وكل السم فى فيه

وقد أبرز شوقى صورهم للناس إذ يقول مخاطباً الأفاعى :

وأنت والناس قد تلتقون ، ففيكن شروى فى الناس شر

وتقتلن عى عيون السلا ح ، ويقتل قاتلهم عن بصر

لسان ابن آدم أو نابكـ كـلا السائلين لعاب القدر

... فليست سموم الأرا قم فى الخبث دون سموم البشر

كان محجوب يتحدث بما تقدم ... وكان يرى لزماً على المصرى

أن يحارب حملة ألوية النفاق من ذلك الطراز من الناس ، ويطالب من يأنس فيهم الوطنية مصحوبة بالشجاعة ، بمحاربة أولئك المنافقين ويقول: « فريضة على كل مصرى العمل على تطهير البلاد منهم ، كما تطهر البيوت من الحشرات المؤذية ، والأجسام من الأدران ، .

في ليلة من تلك الليالي التي تتجمع فيها فوق أرض مصر وتحت سماءها غيوم الحوادث ، منذرة بالعواصف التي تقتلع وزارة قائمة ، تطيح برئيسها وأعضائها خارج الديوان ، وتتزع منهم كرسى الوزارة — « الغادة للعبوب — والمنصة للطروب ، — فتجد فريقاً هنا منقبض الصدر ، محزوناً ، متحسراً . وفريقاً هناك منطلق الأسارير مسروراً مستبشراً . . . في تلك الأويقات التي قل أن تستفيد فيها الأمة والوطن من ذهاب الزاهبين ولا من مجيء المنافسين ، فالأمة لم تسقط الوزارة الزاهبة ، ولم ترفع الوزارة الآتية .

ولطالما ظلمت الأمة وإرادتها من الذين ادعوا التحدث باسمها والعمل بإرادتها لمصلحتها كما جنوا على المنطق وظلموا الألفاظ التي قد ألبسوها غير معانيها وكما سمووا الأشياء بغير أسمائها . . ألم يسموا غير الاستقلال باسم الاستقلال ، والتساهل باسم التمسك بحقوق البلاد ، والتفريط احتفاظاً ، والدوس على الدستور بالأقدام احتراماً له ، ووآد الحرية نشرأ لها ؟ والارتكان على الأجنبي وتسلم الحكم بموجب تبليغات وإنذارات مؤيدة بالدبابات انقاذاً للوطن ، والبقاء في الحكم بموجب شتى التبليغات الأجنبية احتراماً لإرادة الأمة ؟ . في خضم تلك الأيام التي ظُن فيها أن أحد رؤساء الأحزاب

سيستدعى لتكليفه بتأليف الوزارة ، أوفد ذلك الرئيس رسولا يستدعى الدكتور إلى ندوة داره . فابتسم الدكتور ضاحكا وقال للرسول : « إن الدار ستكون حاشدة بالأساسين » . وأمن الرسول على كلامه . . . فإذا بالدكتور يفاجئه بقوله : « سألقى الليلة درساً عليهم ، وسيتناول هذا الدرس الرئيس أيضاً ، ولكن هل يفيد الدرس ، وهل يستفيد الزعيم والزعماء ، وكلهم في الإساءة إلى الأمة سواء ؟ أم سأنطح في صخر وأنادي في قفر ؟ وهل سيذهب صوتي صرخة في واد ؟ وعلى أية حال سأؤدى واجباً وطنياً . لقد ضقت ذرعاً بعقلية الزعماء . فهم حينما يكونون في الحكم نراهم يغيرون آراءهم ويتغيرون . وينسون أنفسهم ويتناسون المثل العليا وطنية كانت أو اجتماعية . كان في في ماء أما اليوم فلا ، إن السكوت قد أصبح جريمة وطنية ، لقد آن يوم الجهاد الشاق ، كما حان يوم رحيل عن الدنيا . » . كان الدكتور ثائراً ، وكان عابساً . ولم ير في تلك الحالة ، أو على الأقل لم ير من قبل في تلك الثورة . . . وذلك لأن دار الدكتور كانت قد ازدحمت بالذين جاءوا يهنئونه بحدوث أزمة وزارية . ثم بالزعيم صديق الدكتور الذي سيؤلف الوزارة ، فكان رده على المهنيين موجزاً ، وكان مؤلماً ، وفي نفس الوقت درساً قاسياً ، إذ قال لهم : « بسم التهئة . وعلام الفرح ؟ ما الذي كسبته مصر من سقوط وزارة ، وارتفاع طقم من الناس ، إنكم طلاب صيد لا طلاب استقلال . » . فلما وصل الدكتور كانت دار الرئيس تعج بالسياسيين المحترفين المستغلين .

وكانت غالبيتهم من الذين يغشون ندوة كل من يُظن أنه سيتولى الحكم. وهم الذين يتخذون اختلاق الأنباء صناعة، ورواية الأخبار ديدنا. وإذا لم يجدوا مايروونه لايتعففون عن أن يخلقوا، مستغلين الخلاف الناشب بين الأحزاب، والتنافس المشتجر بين المستوزرين في حزب واحد، هؤلاء الذين يأكلون على موائد الأحزاب جميعاً، ويقابلون كل رئيس حزب بوجه غير الوجه الذى قابل به منافسه، يروى لكل واحد مايرضيه . . .

ظل الدكتور يقول للرسول مستطرداً بعد أن وصل إلى دار الرئيس قبل نزوله : « ها أنا قد وجدت كما تنبأت، وقدّرت الذين ينتقلون من معسكر حزب على وشك أن يغادر الحكم، إلى معسكر الحزب الذى سيتولى الحكم. أو يظن أنه . . . هانحن أولاء قد وجدنا هؤلاء الذين يكونون دائماً فى الطليعة والمقدمة، يحرقون البخور، ويطلبون لكل حاكم، ويجعلون أنفسهم حجاباً لكل رئيس حكومة مادام فى الحكم، أو الحكم فى طريقه إليه. فإذا أحسوا أن نجم الحاكم آيل إلى الأفول سبقوا النجم فى الاختفاء، وإذا لحوا من بعيد نجماً آخر وشيك اللبعان، فسرعان ماتراهم يسبقون النجم بالانتقال إلى معسكر من أقبلت عليه الدنيا ووصل صولجان الحكم إليه . وعجى الذى لايزول أن الزعماء يتقبلون هؤلاء ويستمعون إلى وشاياتهم ويصغون إلى مفترياتهم، ويتأثرون بنفاقهم ويتعامون عن صغر نفوسهم ١. والأعجب أن الزعماء يمعنون فى تناسى أن أولئك الذين أقبلوا عليهم سبق أن أدبروا عنهم حينما أدبرت الدنيا : أى الحكم، وأقبلوا

حينما أقبلت : أى المنصب ، فلا الزعماء يتذكرون ويتعظون ، ولا أولئك يستحيون ويخجلون . . . ولا جدال فى أن أسباب النفاق ، والرياء ، وصغر النفس ، ودناءة الطبع ، تلك الأمراض الاجتماعية التى أخذت تسرى فى جميع الطبقات والبيئات سريان الأمراض الوبائية التى تفتك فى كيان المجتمع المصرى . سببها ومنشؤها تقبل الزعماء لذلك النوع الرخيص من الناس ، والاستماع إليهم . نعم تلك هى الأسباب المباشرة لما نلبسه ونراه من الانحطاط الخلقى ، إن اتخذ الزعماء لهؤلاء بطانة ينظرون إلى الدنيا بعيونهم ، وقد يفكرون بعقولهم قد قلبت نهضتنا إلى كبوة ، ولا مزية فى أن الزعماء هم المسئولون عن تفشى هذه الأمراض ، إلى لاتساءل : كيف فاتهم أن الأمراض الوبائية من المستطاع مقاومتها بالوسائل الطبية الحديثة فيزول خطرهما . أما هذه الأمراض التى تتفشى فى بلادنا ، ويشجع فى انتشارها الزعماء باحتضانهم المرائين ، فلن يكون من السهل على المصلحين مقاومتها ، وعلاجها ، ووقاية البلاد من شرها المستطير ، نعم الزعماء هم المسئولون . وكذلك تقع المسئولية الهائلة على أمثالنا إذا لم ننتهز الفرص ، بل نخلفها خلقاً لمحاربتها والاندثار من النتائج الوخيمة التى ستترتب على عدم محاربة ناشرى عدوى الأمراض الاجتماعية والتغلب عليهم . إن فرائضى لترتد من عظم المسئولية .

ثم قال وهو يرنو بنظره إلى الجهة التى سيجىء منها الرئيس ، وهو يتصفح وجوه الموجودين : « كم من وطنى ، مخلص ، نزيه ، أبى ، عيوف ، مفيد لأمته ، محب لها ، يتقد غيرة ، ويحترق فى سبيلها . وكم من جدير

بأن يتخذ قدوة صالحة . وكم من حرى أن يكون نبراساً للبلل العليا ،
قد نأى بجانبه عن الزعماء ، بعد أن اتعظ بمن أصبحوا ضحايا وشايات
الآدنياء ، وهم الشجعان الذين يجاهرون بآرائهم ، يبذلون نصائحهم
للزعماء خالصة لوجه الله . . ثم لوجه الوطن . . وهم هم الأعفاء الذين
يأنفون أن يجساروا أولئك في وسائلهم ، فتقدم النوع الرخيص
مادياً وتأخر النوع الغالى العالى الذى كان وما زال نار الحركة
الوطنية ووقودها .

فالآدنياء يشبعون ويتخمون ، وعلى كل مائدة يأكلون ، والنبلاء
الوطنيون فى كل عهد يضطهدون ، وفى أرزاقهم يحاربون ، وعن
حقوقهم يذادون ، وكل ذنبهم أنهم أباة الضيم يضحون ويعفون . .
إننا إذا سكتنا على هذه الأوضاع المقلوبة ، وتركنا المتصدرين للزعامة
فى بلادنا يمجزون ما لا يجوز ، ويقرونها ما لا يصح أن يستقر ،
ويضعون الشيء فى غير محله . يرفعون الوضعاء الرعاء الذين لا تخلو
من أمثالهم أمة ، ويخفضون الشرفاء المجاهدين الأعفاء الذين لا يقبلون
الأيدي ، ولا ينافقون ، ولا يحسنون القبائح . . أجل إننا إذا سكتنا على
هذه الحالة وتركنا هذه الأمراض الفتاكة تجدد مرتعاً خصيباً فى أندية
الزعماء ، ثم تأخذ طريقها إلى دور الحكومة ، كما هو الحادث فعلاً
والواقع حقاً ، خشيناً أن يصبح شعار أبناء الأمة ودثار الشباب
« فلننحط لنرتفع ، ولتصاغر لنكبر ، ولنناق لنزق إلى الوظائف ،
ولتندنى لنعلو وتزوج بضاعتنا لدى الزعماء . . نعم إذا سكتنا على
هذه الموبقات ، ولم نجد الشجاعة الكافية لمسكاتها فى إصرار وشدة

مصحوبين بالعزم والحزم ، فالويل لمستقبل هذه الأمة التي عشنا نجاهد في سبيلها ، ونضحي لأجلها .

ظل الدكتور يتحدث بما تقدم إلى أن نزل ذلك الرئيس ، حينئذ قال لرسول الرئيس إليه : « ستسمع الآن مني عجباً » .

ولعل من المفيد أن أوضح كيف كان الدكتور إذ يحارب تلك الناحية من الضعف الخلقى - يمزج الجد بالدعابة ، وفى القليل بالتهكم - ولكنه كان أخيراً يقول كلمة الحق ثائراً ، ويحارب الدس والوقية دائماً . قلت : « إن الدكتور كان قد تنبأ للرسول الموفد إليه أن الدار ستكون حاشدة بالمنافقين والدساسين الآكلين للحوم الغائبين » . ولقد كانت الدار مكتظة - كما توقع الدكتور - بالمتزلفين كما تقدم .

تلك أمثلة من الذين يلتفون حول الأحزاب فى مصرنا العزيزة . وينظر رؤساء الأحزاب إلى الناس بعيونهم ، ويبتون فى شئون الوطنيين المخلصين بما يسمعونه من ذلك الطراز ، من دسّ ووشاية ، ولزماً علينا أن نقول : « إن رؤساء جميع الأحزاب قد يتساوون فى هذا ، أولئك هم الذين كان محبوب يدعو إلى محاربتهم ، ويجعلها فريضة على الأكفاء الأعفاء الشرفاء المخلصين .

* * *

وهكذا حارب محبوب ثابت الدس والوقية ، وجاهد فى سبيل تقويم اعوجاج الزعماء قبل الطغام والدهماء .

هذه صورة دقيقة من جهاد الدكتور محبوب . . . فعلى الأبناء أن يقتدوا به . . وفى هذا فليتنافس الوطنيون المخلصون . . .

مروعات وآراء مختلصة

كانت مرحلة من حياة الدكتور محجوب ثابت قضاها في مجلس النواب كان السباق فيها إلى الانتاج ، والكفاح ، والتبشير ، والدعاية ، تحملها مقترحات له أحاط فيها بكل ناحية من نواحي الاصلاح الوطنى . فكان له أن تضفى عليه صفة الرجل الذى ضرب أعلى رقم قياسى فى النشاط ، والانتاج بين أئداده النواب .

كان محجوب ثابت مبشراً بالإصلاح من طراز عزيز فى هذا الزمن ولا بد أن يذكر له فى دائرة هذا الاصلاح كيف كان الزعيم السليم لحركة العمال ، وعلى حسابها أضيفت إلى شخصيته صفة نائب العمال فى البرلمان وهنا يحمل بنا أن نزيح قناعاً أسدله القدر على صفحة من مآثر الدكتور محجوب فى قيادته للحركة العمالية ، ليشهد الناس كيف تتوارى الحقائق خلف سحب الباطل والاضاليل ، فيمسى الفضل منكوراً على صاحبه .

كان الدكتور محجوب ثابت رئيساً لأقوى نقابة من نقابات العمال فى مصر ، بل أبقاها وأبعدها عن التيارات السياسية والحزبية ، ووضع مشروعاً يرمى إلى إنشاء مؤسسة صناعية يستخدم فيها أكبر عدد من العمال المصريين الذين يزيدون على حاجة المصانع الحكومية والأهلية ، وأن يجمع « رأس مال » المؤسسة من « قرش » تساهم فيه الأمة ، وبعد أن استقرت الفكرة وأعدت لها طوابع تحت قيد التنفيذ

والعمل لأمر ما ، قد أرجئت الفكرة إلى أجل . . . وبقيت
معداتها وطوابعها لدى رئيس النقابة الدكتور محبوب ثابت في عيادته
إلى أن يحين الأوان ، فإذا بدجال يختلس هذا المشروع العظيم .

كان من بين المترددين على عيادة الدكتور محبوب شاب دعى
مشعور يزج بنفسه في زمرة الذين كانوا يحبون الاستماع إلى اقتراحات
الدكتور ومشروعاته التي كان يبشر بها بلا كل ولا ملل ولا سأم .
لأنها رسالة امتزجت بدم الدكتور ، ونادى بها في مجلس النواب كما
أسلفنا . . . ثم نادى بها في عيادته ، وفي اجتماعاته العامة ، وفي كل
جهة مأخوذاً بخير مصر وإصلاح المجتمع . وهي مشروعات أشقته
وحملته أعباء الرحلات التي كان يقوم بها في أوروبا لدراسة ما لهذه
المبادئ الإصلاحية من نظير لها في الأقطار الأوروبية .

كان ذلك الشاب الذي أشرنا إليه ، يجلس أمام الدكتور محبوب
جلسة التليذ من أستاذه يستمع إلى ما يلقي من أفكار ومبادئ .
على أنه كان يحرص دائماً على الانفراد بالحضور دون إشراك
أحد من أبناء بيئته ، ليستأثر بالاستفادة من دراسات الدكتور
وتعاليمه الاجتماعية العامة - وأوسع من ذلك في التعبير - ليكون مستتراً
محتفياً حين ينسب إلى نفسه ما يدعى من مقترحات وأفكار يتلقاها
في ندوة الدكتور الفيحاء . . .

وسمع ذلك الشاب من ضمن أحاديث الدكتور أمنية كانت تجيش في

صدره وهى : ما دام رؤساء الأحزاب قد اتخذوا الوطنية ذريعة يلتمسون بها الوصول إلى الحكم ، مع اتهام كل منهم صاحبه فى وطنيته لينفرد أمام رأى العام بمظهر الوطنى الطاهر بعد أن يشغل الشعب بتلك المهارات ، وتبادل الاتهامات ، الأمر الذى قد حطم السليم من أخلاقنا قبل ثورتنا وقبل نهضتنا الأخيرة التى استحوالت إلى كبوة بسبب هذا التطاحن الحزبى ، ثم نتيجة اضطهاد رئيس كل حزب لمناصرى الحزب المنافس له كان ضعفاً وتخاذلاً أمام الأجنبي ، وتظاهراً بالوطنية خارج الحكم ، وتدجيلاً على الأمة داخل الحكم ، وتقريباً للضعفاء والسفهاء واتخاذهم أنصاراً وأعواناً ، وكلما كان النصير جامعاً لهذه الصفات يكون أكثر حظوة لدى زعيمه ، حتى أصبحنا نقول : إن « رؤساء الأحزاب » بتصرفاتهم قد شجعوا ضعاف النفوس على أن يتخذوا شعارهم : « انحطوا لترفعوا ، وأن يكون دثارهم : « نافقوا لتترقوا أو تُوظفوا » ...

كان ذلك الشاب يستمع إلى الدكتور محجوب مصفقاً ومعجباً ويدون تلك المبادئ التى ظهر بها فى مصر فيما بعد - فى مظهر حزب سياسى له مبادئ - كأنها من عنده وبنت تفكيره ! وهى المبادئ التى كان يبشر بها الدكتور ، وخلاصتها تأليف هيئة من الشباب الذين لم يصابوا باللثة الحزبية . لإرغام الزعماء على العمل الخالص لمصلحة البلاد ، أو لإجبارهم على الانزواء فى عقر دورهم . بعد أن حولوا دفة الحركة الوطنية عن هدفها ، وطريقها المستقيم .

فإذا بذلك الشاب يطلع على الناس بتلك المبادئ المختلطة . مدعياً أنه رب ذلك المشروع الذى كان يبشر به الدكتور ، وهو إقامة مصانع

في مصر لمنافسة الشركات الأجنبية ولتشغيل الأيدي العاملة « بقروش »
تجمع من كل مصرى . نسب ذلك المشروع إلى نفسه ، فكان السارق
للفكرة ، والمستغل لها ، والظاهر بها أمام الرأى العام .

جاء هذا الشاب إلى عيادة الدكتور في خلال الأيام التي تنكرت له
فيها بعض الجرائد المتتمة لبعض الأحزاب . وفي أثناء تلك الحملة التي
كانت تحمل لواءها مجلة مملوكة لشخصيات ماجنة ما كانت لتحترف
الصحافة بعد أن عاشت في بيئة الرذيلة على صورة تتجافى مع الكرامة
وشرف الصناعة الصحفية . ومن هذا الطراز من جعلوا أنفسهم نداى
مجون بهلوانى لرجال السياسة وزعماء الأحزاب ، يمشون في
كل ركاب ، ويأكلون على كل مائدة . . . هؤلاء هم الذين كانوا
يتندرون على الدكتور محبوب ، ويوجهون إليه وإلى غيره من الوطنيين
الأحرار التهم جرافاً ، وهم الذين يابون إلا أن ينظروا إلى الدنيا بعيونهم
زاهدين ، ولا يطمعون إلا في أن يكون الناس لهم منصفين ، أو
على الأقل أن يتركوهم في حالهم ليخرجوا من دنياهم لا عليهم ولا لهم .

إنصاف وطنية الأقباط

في تلك الأيام كانت إحدى المجلات تحمل على الدكتور محبوب
حملات كلها الكذب الخالص والافتراء المحض . وكان يقابل تلك
المفتريات ساخراً بغير مبالاة .

* * *

زعم ذلك الشاب الذى كان يتظاهر بالوطنية المتطرفة ، أنه

يشق سبيلا للزعامة ، وظن أن الدكتور سهل القيادة ، سريع الانخراط والتصديق ... فجاء يحاول أن يدخل في روعه أن الأقباط هم الذين يحضرون عليه الطلاب للنداء بسقوطه في الاجتماعات ، وأنهم يوحون إلى الصحف بالنيل من سمعته والحملة عليه ... فإذا بالدكتور يغضب غضبة جبارة ويقول : « إني لا أقبل أن تُنكر على الأقباط وطنيتهم . . . حد عن هذا الطريق يا قتي ... » .

كان الدكتور قد تنبّه إلى دخيلة نفس ذلك الشاب وخبّه . و فطن إلى أنه يختلس أفكاره ومشروعاته . ومع ذلك فقد أغضى عن مواجهته بإدراك هذه الحقيقة رجاء أن تكون هذه الأفكار قد وجدت سبيلها إلى قلوب الناس ، فعملوا على إذاعتها - ولو عن طريق ذلك الشاب - وما دامت الغاية تُدرك ، فقد تنتهى المسألة بعد نجاح المشروع بإقصاء ذلك المدعى السارق عن الساحة التي لم يدخلها بريئاً ولا مخلصاً . وقد كان هذا الذى رجاء الدكتور محبوب وتسكن بوقوعه فصحت فراسته بعد مضي زمن طويل ، فأبعد هذا الشاب عن المشروع بعد أن ظهرت خبيثة نفسه . وبأن للناس محتلساً سارقاً . لم يكذبته ذلك الشاب من وشايته الصبانية حتى اعتدل له الدكتور وألقى عليه هذا الدرس القاسى قائلاً : « تلك نعمة فى أذن تشبه نعيم البوم ، ونعيق الغربان ، ونباح الكلاب ، وعواء الذئاب هذا كذب يابى ، وهذا الشاب حين يطعن فى وطنية الأقباط أمام رجل كبير النفس عظيم الشخصية كالدكتور محبوب كان لا بد للرد عليه وعلى عبثه الصباني من محاضرة يلقيها علينا ، قال : « اسمعوا يا أبنائى إن

فاخرنا بعروبتنا ، فالأقباط أحوال العرب ، ، ثم أخذ يروى لنا الحقائق التاريخية عن ذلك فقال : « اسمع يا بني ، ماذا يقول شوقي في وصفه لقنال السويس :

هنا وضع للنوبة المهدي وابتدأ بها العهد ، فأقبل صاحب المقام ومحطم الأصنام ، وبناء البيت الحرام ، خليل ذي الجلال والاكرام ، هاجر من مصر أكرم من هاجر ، وانقلب بأمر العرب هاجر . . . ألم تقرأ هذا يا شاب ؟ إذن ما هذه النعمة الكريمة ؟ إن كنا نفخر بأننا أبناء الفراعنة ، فالأقباط هم أبناء الفراعنة ، وإن كنا نفخر بعروبتنا فهم إخواننا . إلخ . اسمع يا هذا ! كيف تبيع لنفسك أن تنقل إلى هذه الوشاية ؟ « لمبلغك الواشي أغش وأكذب » . . أنا لا أفرق بين الشيخ والقسيس ، بل أحقر كل مسلم يطعن في الأقباط ، احتقارى للقبلى الذى يردد هذه النعمة من جانبه . . . أنسيت يا هذا وطنية سينوت حنا ومقاتلاته الوطنية ديننا والاستقلال حياتنا ، ١١٩

لما يتورع ذلك الشاب عن الرد بقوله : « إن سينوت حنا إنما كان « يوقع » ، ولم يكن هو الكاتب » . فرد الدكتور محبوب غاضباً : « هب أن هذا صحيح ، أليس مجرد التوقيع يجمع بين الشجاعة والمواقفة وتحمل تبعه تلك المقالات الرائعات ؟ ألم يوافق عليها أقطاب المجاهدين وعظماؤهم ورجال الدين ؟ أنسيت تلك المقالات في جريدة « الأخبار » ، في أعنف أيام الحركة الوطنية ؟ أنسيت خطب القمص سرجيوس في الأزهر ؟ وكيف كان كل هذا رداً قوياً ودحضاً مفهماً لما زعمته الجرائد الانجليزية وقتئذ من أن الأقباط

لغة البلاد؟ أمثل هؤلاء يطعن في وطنيتهم؟ ما هذه العقلية السخيفة . لا يذكر الانجليز في بلادهم أن هذا مسيحي وهذا يهودي ، ومن رؤساء الوزارات والوزراء عندهم من لا يبحث أو ينظر إلى صبغته الدينية إلا يوم موته للقيام بشعائر الدفن المتبعة .

وما كان ذلك الشاب ليرتدع عن عبثه بل راح يمعن في دسه فذكر اسم الدكتور نجيب اسكندر ضمن من ادعى تحريضهم للجرائد على الدكتور محبوب . ولكن ما أن لفظ الشاب باسم الدكتور نجيب اسكندر حتى ارتفع صوت الدكتور محبوب في غضبة كريمة مصحوبة بالاستنكار وهو يقول : « حتى هذا الملاك الطاهر المفادى بأجلى ما في كلبة المفسادة من معان لا يسلم من وشايتك ؟ يقيناً أنه لن تقوم لهذه الأمة قائمة ما دام فيها أمثالك الذين يتاجرون بالوطنية وبالدين ، يذرون بذور الريب والشكوك والفتنة لا يتعففون وهم في سن مبكرة عن تشويه أسماء الوطنيين الأطهار ، وكان الدكتور محبوب يلقب الدكتور نجيب اسكندر بالقدّيس المظلوم ، وبالمثل الأعلى للخلق الكريم ، وشرف النفس الشفافة ، وبسليم النية .

ولما انتهى الدكتور من هذا ، لاذ الدجال الواشى بالفرار مغادراً المجلس . فاتجه إلى الدكتور قائلاً : « ما رأيك في هذا الشاب ، وماذا تعرف عنه . صفه لي حتى أتبين أنا على حق في حكمي عليه ؟ ولكن قبل أن تدلّ إليّ بمعلوماتك عنه أحب ألا تنسى أني لاحظت عليك شيئاً لم أعوده منك من قبل ، وهو أنك ما كنت تشترك معنا في كل ما جرى من حديث مع هذا الشاب ، وكنت تبسم حينما تراه

يتكلم ابتسامة التضجر والسخرية ، وهي ابتسامة لها معناها ، وكنت تنو
إلى وإليه حينما كان يتكلم وتحملق فيه بنظراتك ، ثم لاحظت أنه يخشاك
خشية الوجمل ، مع أنه صفيق الوجه ، وفي عينيه فجر . أوضح لي هذا ،
وما هي معلوماتك عنه بصراحة ؟ .

فقلت : « رويدك .. استجوبني كأنك وكيل نيابة وأنا أجيـب .
وحدد السؤال وعيّن الاستفهام » .

فقال ضاحكاً ، وأنا مطمئن لهذه الطريقة :

س - ما هي معلوماتك عنه ؟

ج - إني أعلم أنه حينما كان طالباً بالمدارس الثانوية ، كان يجتهد
في أن يتصل بالموسرين من زملائه في الدراسة ، مظهرأ لهم
زائد الود ، حتى إذا تمكن من خداعهم ونيل ثقتهم ، يتوجه إلى
منازلهم زائراً ، مدعياً أن أحد أبناء البيوتات الذين قد أخنى عليهم الدهر
قد توفي ، وخلف أطفالاً لم يترك لهم من حطام الدنيا شيئاً ، وهم
لا يملكون قوت يومهم ، ويزعم أنه جاد عليهم بنفقات مدرسته
ومصروف يومه . كان يقول ذلك بصوت متهدج ، يجتهد أن يشعر
أهل زميل الدراسة بصحة ما يزعم استدراكاً لشفقتهم .

الدكتور محبوب - وى . وى . أتريد أن تقول إنه لم يكن هناك
ميت إنما كان زعمه نصباً وتحايلاً ؟

ج - نعم .

س - وكذلك احتال على واختلس مشروعاتي . زدني بياناً واذكر
لي اسماً ممن لي بهم معرفة .

ج - أستطيع أن أذكر لك شيئاً من قبيل ما تقدم يتصل به بسبب . أنت يا دكتور تعرف الأستاذ حسن صبحي ؟ .

س - نعم . هو زعيم شبان الأحرار الدستوريين ، وما شأنه بخريج كلية الآثار وأبي كليوباترا ؟ لم يكن لي سابقة علم بأن للأستاذ حسن صبحي ابنة سميت بكليوباترا .

ج - توجه هذا المشعوذ إلى الأستاذ حسن صبحي ، متعللاً حذاء باليا . واستدر عطفه بقوله : إنه عاجز عن شراء حذاء ، وعن دفع رسوم المدرسة ، وأنه مهدد بالطرد من المدرسة . ومع أن الأستاذ حسن صبحي لم يكن ميسور الحال في تلك الأيام ، فقد دفعته الأريحية إلى أن يقترض من أحد أصدقائه خمسة جنيهات وأعطاها للشاب لوجه الله . وصادف أن توجه الأستاذ حسن صبحي في نفس اليوم إلى بنك مصر لعمل له ، فما كان أشد دهشته حينما رأى صاحبنا يدفع إلى الخزانة عشرة جنيهات لضمها إلى رصيد له فيها .

- وى . وى ! استمر . . .

- وكما كان هذا الشاب يحتال على الزملاء ليأخذ منهم أموالاً بدعوى المساهمة في دفن موتى مزعومين ، والطواف على أمثال الأستاذ حسن صبحي مدعياً حاجته إلى حذاء وإلى نفقات الدراسة فإنه قد ترقى في فن الاستجداء من الزعماء .. فقد ذهب يوماً إلى منزل محمد محمود باشا ، ملتصقاً بمقابلته ، وكنت موجوداً ، فلما طلب المقابلة وكان جالساً بالسلامك الكبير ، الذى لا يستقبل فيه غير الخاصة من زائريه ، كلفنى استطلاع ما جاء من أجله ، وأن

أتصرف معه لأعني دولته من هذه المقابلة . فلما قلت لذلك الشاب إن دولة الباشا متعب من جهة ، ومن جهة أخرى فهو مشغول . فقد أنابني بأن أتصرف معك فيما جئت من أجله . فألح على إلحاحاً شديداً لتكينه من المقابلة ، وقد حاولت أن أستريح الباشا لمقابلته ولكن دولته أصر على رفض هذه المقابلة . وفعلاً لم يقابل .

- أو لم تعرف السبب الذي حمله على الإلحاح في مقابلة الباشا ؟

- علمت بعد ذلك بأيام بخطاب موجه منه إلى دولة الباشا

يعرض عليه فيه أنه يستطيع بواسطة العمال والطلاب أن يهدم الحزب المعارض له ، وقد ألقى دولته بالخطاب على المنضدة قائلاً : لينذهب وليهدم . وليس لي شأن بهذا .

وفهم دولة الباشا أنه يريد المعاونة المادية من هذه السبيل .

والعجب أن دولة الباشا الذي عرف حقيقة هذا الشاب ولم يقبل

- حتى مجرد مقابلته - في سنة ١٩٢٩ . حينما أن جاء إلى الحكم سنة

١٩٣٨ كان يعطيه من المصاريف السرية مبلغاً كبيراً .

وقلت : « ارجع بنا إلى تاريخ سابق ، لأذكر لك أنه في سنة ١٩٢٨

عندما كان محمد محمود باشا في أوروبا أثناء مفاوضاته المستر هندرسون

كان احمد فطين باشا قد افتتح « مكتباً » في ميدان العتبة الخضراء

« الملكة فريدة » على حساب المصاريف السرية لتجديد طبقات الأمة

من العمال والطلاب للترويج لمشروع المعاهدة ، فتقدم إليه هذا الشاب

وأفهمه بأن في استطاعته أن يقدم له من كل مدرسة ومن كل كلية

طلاباً . فإذا به يتقاضى عن كل شخص يقدمه « عمولة » .

ولما قامت الحرب الأخيرة واعتقل ، ثم هرب من أحد المستشفيات
سأله المعتقلون معه بعد القبض عليه : « لماذا هربت ؟ » . قال :
« لاستقبال الألمان ، وأحكم مصر عن طريقهم » . والعجب العجيب
أن وزارة الوفد بعد ذلك قد أحالت اعتقاله اعتقالاً صورياً لغاية
خاصة ، فأسكنته على ذمة الاعتقال في مسكن أحد مأموري أقسام
البوليس بعد أن أخلاه بأمر الحكومة ، وكانت تلك الوزارة تسمح
له بأن يستقل سيارة على حساب الحكومة يومياً للرياضة مع حرمه
وأولاده ، بلا رقيب ولا حسيب ... كما كان يتقاضى المرتب السنوي
ويتوجه إلى منزل أحد الوزراء ويتناول معه الطعام . فلما أن علمت
بذلك من المرحوم الأستاذ حامد المليجي ، كتبت مذكرة ضافية عن
حقيقته ومدى شعورته وتاريخ حياته ، وبعثت بها إلى فؤاد سراج الدين
باشا متحدياً ومحتجاً ...

وبعد خروجه من المعتقل مباشرة ، أبرز ما خبأه من مال
ويسار ، فاشترى عربة ، وهو الذي لم يعرف له كسب ظاهر في
الحمامة أو غيرها . وهذا دليل على غفلة بعض الزعماء من جهة ، وعلى أنهم
محدودو التفكير من جهة أخرى .

ولما كان هذا المقتنص للمال بكل الوسائل ، يعلم أن حزب الوفد قد
خرج من الحكم وهو متخّم الخزانة : وكان في أول الأمر يهاجمه
ليستفيد من يساره حتى إذا بلغ بغيته هادن الوفد وأغضى عن مهاجمته
في صحيفته ، وقد وضع نفسه تحت إرشاداتهم ، يستخدمونه في كتابة
العرائض والمذكرات طعناً في الحكومة التي تولت الحكم بعد وزارة

الوفد . أما صنوه المعروف ، فقد كان وهو معنا في معتقل الزيتون يحتكر استغلال « مطعم » المعتقلين ، ومطعم قوات المعتقل والبوفيه ويستورد الخدم من الخارج ، ويستغل مزرعة طهاطم وخضر حديقة المعتقل . وكان يجعل من نفسه « عهدة » وخازن أدوية المعتقلين . وفي هذا الخير الكثير في وقت كانت الأدوية فيه نادرة عزيزة المنال . وكانت هذه الوقائع المعتمدة على المساندة الحكومية موضوع تحقيق جرى في ذلك الوقت (١) .

كان المؤلف معتقلا ، فلما رأى أن صنو ذلك الدجال يتاجر بأدوية المعتقل بالاتفاق مع بعض أشباه الضباط ، من ضباط إدارة المعتقل ، قدم شكوى إلى رئيس الوزارة وإلى جميع الجهات الرسمية متحدياً وطالبا التحقيق ، فاضطرت الحكومة إلى إجراءاته بواسطة جلال عبد الرازق بك مفتش البوليس .



(١) هذا حديث يستحق الافاضة وطول الشرح ، وأن يكون محل دراسة وتحليل . ولهذا أوردناه موجزاً وسنتناوله بالتفصيل الكامل في كتابنا « حوادث مصر السياسية » .

الوكيل الأمين

بين مستر جريفز والدكتور محبوب

صفحة من صفحات الأمانة والزهد

والقناعة في أشد أيام الضيق المادى .

قبل أن نبرز هذه الصفحة الزاهية من تاريخ الدكتور محبوب ثابت ، يجب أن نقدم لها بصورة لها حقها من الجلال والروعة ، ترتبط كل الارتباط بهذا الموقف الذى سنكشف عنه ، بين الدكتور محبوب وبين مستر جريفز مدير مكتب العمل (فى ذلك الحين) ، ذلك أن الدكتور محبوب كان قد أوغل فى أريحيته وعطفه على العمال والطبقات الفقيرة إلى حد أنه كان قد آثر مرضاهم بعيادته وصيدليته ، فكانت العيادة موثلاً لهؤلاء فى زحام حاشد أقصى عنها ، الزبائن ، القدامى الذين كان يعتمد عليهم الدكتور محبوب فى عيشه بعد أن ترك الوظائف الحكومية احتجاجاً على تفضيل الأجنى على المصرى فى مستهل عهده بالوظائف .

وماهى إلا بضع سنين حتى أفنى فى هذه السيل ما كان عنده من مدّخر ... علاج بغير مقابل ، ودواء من صيدليته بغير ثمن . . . ودخل آخر لا وجود له . . . إذن ذهب المال ، وبجز الدكتور محبوب عن مواصلة صرف الدواء ، مكثفياً بمجرد العلاج ، وهو يعتذر

لمرضاه - في حياه - بعدم وجود الدواء بعد وصف العلاج . . وليتها كانت كل التضحية من جانبه ، فقد لاحقته الضائقة من جراء هذه الأريحية فتوقف عن دفع إيجار عيادته ، ومسكنه ، وصيدليته المغلقة ، وكلها في عمارة واحدة تملكها وزارة الأوقاف ، ولم يتجمل معه قسم الإيجارات حينما أوقع الحجز على محتويات العيادة والمسكن من أجل ما تجمع عليه من إيجار في عمارة يقيم فيها منذ سنة ١٩١٠ ، دفع ما يساوي ثمنها أو يزيد في مجموع هذه السنين التي قضاه (في شارع الكومي بالسيدة زينب) حتى لاقى ربه .

وهنا يحمل بنا أن نعقب على هذه الصورة بحديث قديم كان قد أفضى به إلينا الطيب الذكر والصدیق الحميم ذو الخلق الكريم « داود بركات بك » شيخ الصحافة ورئيس تحرير الأهرام فقد حدثني قائلاً : « إن الدكتور محبوب الذي يعاني هذا العسر ، كان لا يجد وقتاً لتناول الطعام ، من نزاحم المرضى على عيادته ، ومن طلبات المحاكم والمجالس الحسينية لتقاريره الطبية الشرعية . وكانت هذه العيادة تدر عليه ما يزيد على خمسين جنيهاً يومياً ، وحينما كان يقضى السهرة معنا في « الأهرام » أو في « بار اللواء » قبل سنة ١٩١٩ ، كانت أسلاك التليفون تهتز من كل جهة تطلب الدكتور محبوب لعيادة مرضاه في منازلهم من جميع أنحاء العاصمة . وكان يعود إلينا أثناء السهرة و « همياته » متنفخ بالنقود . . وكثيراً ما كان يقيم لنا المآذب في عيادته . فإذا اجتمعنا حول مائدة الغداء ، كان قلباً يجد من وقته متسعاً كافياً لمشاركتنا في الطعام . كانت « زبائنه » من الأغنياء في وفرة واسعة يجمع منهم المال

لينفق منه على فقراء المرضى والعمال ، ويدخر ما يتبقى . فلما قامت الثورة المصرية سنة ١٩١٩ خرج الدكتور محبوب إلى شوارع القاهرة بعربته التي كان يجرها « مكسويني » حصانه العزيز المستحضر (١) ،

(١) كان للدكتور محبوب عربة يجرها جواد أصيل خاض معه المعركة الوطنية تحت وابل من الرصاص ، وكان إذا جن الليل ، عرج الدكتور محبوب على محل (صولت) الحلواني لتمضية السهرة مع صفوة أصدقائه ، وكان من بينهم محمود فهمي النقراشي باشا وشوقي أمير الشعراء ، وكان الحصان يقضى ليلته رهن انتهاء السهرة بغير طعام انتظار الأوبة إلى الاسطبل . . . وقد أطلق المرحوم الشيخ عبد العزيز البشري على حصان الدكتور محبوب لقب « مكسويني » تشبهاً له بمستر « مكسويني » الايرلندي محافظ (كورك) الذي أضرب عن الطعام شهرين احتجاجاً على السلطات البريطانية .

قال شوقي مداعباً الدكتور :

لکم فی الخط سياره	حديث الجار والجاره
« أوفرلاند »	به القنصل طاره (*)
كسيارة	على السواق جباره
إذا حركها	على الجنين مناره
وقد تحرن أحيانا	وتمشى وحدها تاره
ولا يشبعها عين	من البنزين فواره
ولا تروى من الزيت	ولان عامت به الفاره
ترى الشارع في ذعر	إذا لاحت من الحماره
وصياناً	كما يلقون طياره
وفي مقدمها بوق	وفي المؤخر زماره
وقد تمشي متى شامت	وقد ترجع مختساره
قضى الله على السواق	أن يجعلها داره

* الشيخ حلمي طهارة إمام مفوضية مصر بامريكا .

يخوض بها المعمعة تحت وابل من رصاص البنادق والرشاشات
الإنجليزية يصم أزيها ودويها الأذان .. فكنت تراه هنا للطلاب
ولشباب الأمة مداوياً، ولجراحهم مضمداً .. وهناك لقلوب المجاهدين

يقضى	يومه	فيها	ويلقى	الليل	مازاره
أدنيا	الخيـل	يامكسى	كدنيا	الناس	غـداره ١٩
لقد	بدلك	الدهر	من	الاقبال	إدباره ١
فصبراً	يا فقى	الخيـل	فنفـس	الحر	صـباره
أحقاً	أن	محجوباً	سلا	عنك	بفخاره
وباع	الأبـلق	الحر	(باوفرلاند)		نـعاره
ولم	يعرف	له	الفضل	ولا	قـدر
قد	اختار	لك	الـشـلـح (١)	وما	كنت
فسـله	ما	هو	الـشـلـح	عسى	يلبيـك
كأن	لم	تـحـمـل	الـرا	ية	يوم
ولم	تركـب	إلى	الـهـول	ولم	تـحـمـل
ولم	تـعـطـف	على	جـرحى	من	الصـيـة
فـمـضـروب	برشاش	ومـقـلوب			بـغـداره
ولا	والله	ما	كـلـفـت	محجوباً	ولا
فـسـلا	البرسيم	تـدريـه	ولا	تـعـرف	نـوارـه ١
ولا	تـروى	على	صـولـت	إذا	نـادـمـت
وقد	تـسـكر	من	خـود	وعلى	الـافـريـز
وقد	تـشـبـع	يا	ابن	الـليـل	من
عسى	الله	الذى	ساق	إلى	يوسف
وكانت	خلفهم	دنـيا	لهم	فى	الأرض

(١) يقصد أن يقول للدكتور : إنك شلحت الحصان كما شلحك الوفد .

خطياً مغذياً يحفز الهمم ، ويبعث الحماس ، ويثير الشعور . فإذا بالمرتدين على عيادته لا يجدونه لانشغاله عنهم في ساحة الجهاد الوطني ، والذين يسألون عنه من منازلهم لا يجدونه لاشتغاله ليلاً بالكتابة في الصحف - وبنوع خاص - جريدة الأهرام ، يغذى القلوب بيراعه كاتباً ، فإذا أخرج أحدهم من ذوى المرضى وذكره بأنه طبيب العائلة الخاص ، وأن الوالد والوالدة قد اعتادا طبه لأنه أعرف بتاريخ الأسرة متبع لما هو متداول وموروث فيها من أمراض استعان بطبيب آخر يدل إليه بتاريخ العائلة ، ويكلفه بأن ينوب عنه في عيادة المريض ، متنازلاً له عن أجر هذه الزيارة ، .

يحيى لك هواراً كريماً وابن هواره
 فان الحظ جوال وأن الأرض دواره
 هذه دعابة من دعابات المغفور له شوقي أمير الشعراء صاغها لمناسبة عزل الدكتور محجوب لجواده مكسويني حين اقتنى سيارة فاخرة من ماركة أوفرلاند (Overland) . ثم حدث بعد ذلك أن انطلق الجواد مكسويني من (الاسطبل) في البغالة وأخذ يعدو ولم يستطع أحد الوقوف في وجهه حتى صعد فوق تلال زينهم فكان أن سقط في حفرة عميقة فشق عنقه . وقد اتخذ أصدقاء الدكتور محجوب من هذا الحادث مادة للدعابة فقالوا إن مكسويني قد عزت عليه نفسه فانتحر . . . والحقيقة أنه نفق ضحية الهوى إذ كان يقصد اثني من نوعه في خيل تملكها امرأة صاحبة عربات وكانت مرابطها فوق تل (زينهم) . . . وكان الدكتور يقول إن حصانه العزيز قد انتحر بسبب العشق بعد أن برح به الشوق والهيام بصاحبه ومعشوقته الفرس التي كانت تملكها « ربة اسطبل حي زينهم » .

ويسترسل المرحوم « داود بركات » في حديثه معي فيقول :
« إنه كان يخاطب الطبيب الذي ينتدبه تليفونيا فيسرد له حالة المريض
في الأيام السابقة حتى ليحتسب الطبيب المنتدب نفسه في وضع من
يتلقى درساً بل دروساً في الطب » . وختم المرحوم داود بركات
كلامه « بأن الدكتور محبوب محجوب مرضاه والمترددون على عيادته
في سبيل الحركة الوطنية ، وها هو يعاني العسر المادى بعد أن كان
ملئ الجيب موفور الرصيد في البنك » .

هذا حديث المرحوم « داود بركات » رواه لنا منذ سبعة عشر
عاماً ، ساعة أن كان الدكتور محبوب يعاني محنة الفاقة وبلاء الدين ،
والعجز عن أداء المسكرات لمطلبي عونهم وملتمسى رفقته من العمال
الفقراء وهو المحجوز على عيادته .

محبوب ثابت ومستر جريفيز

فإذا ترجو أن يكون بين الدكتور محبوب ثابت وبين مستر جريفيز
الذى يبسط أمامه — وهو الغريم المعسر — صفحة من الأمل ،
بل فسحة من الغنى واليسار ؟

في سنة ١٩٣٠ كان مستر جريفيز مديراً لمكتب العمل في مصر ،
دعا إليه الدكتور محبوب ثابت ، فلما اجتمعا قال له مستر جريفيز :
« نريد أن نتكلم في شئون العمال بعد أن تهيأت مصر للنهوض
بعمالها إلى مستوى عمال الأمم الأخرى » .

ودار الحديث بينهما حول محور معين أدرك منه الدكتور محبوب إلى

أى هدف يرمى إليه مستر جريفز وإلى أية غاية يهدف ، يريد أن يتخذ من الدكتور محجوب آلة يستغلها في تجنيد العمال لتأييد الحكومة ، ظاهراً ، ولمصلحة السياسة الانجليزية في الحقيقة ، واستغلال الدكتور محجوب نفسه . وكان الدكتور محجوب وقتئذ هو الزعيم الحقيقي المصلح المخلص للعمال في مصر .

ولهذه الرواية مصدر آخر ممن يعتد برواياتهم وهو موظف مصرى كبير عمل ثلاثين عاماً مع المستشارين الانجليز في الحكومة المصرية في عهد الاشراف الأجني ، يصف هذا الموظف الكبير موقف الدكتور محجوب ثابت مع مستر جريفز بأنه كان رائعاً في رده ، وكان مثال الإباء والوطنية والاعتزاز بالكرامة وأمانة الوكيل حيال موكله . ولا يزال هذا الموظف محل احترام كبار الانجليز الذين تركوا خدمة الحكومة المصرية لأنه كان يحترم نفسه ووطنيته معهم فقد كان يؤدي واجب عمله بالنزاهة والأمانة مضافاً إليها المقدرة ، وهو يصح أن يكون قدوة يقتدى بها .

كان مستر جريفز يعلم حق العلم أن الدكتور محجوب ثابت في حالة مادية سيئة ، وأن رصيده في البنك قد تلاشى ، وأن عيادته لا تكاد تفي بنفقاته ، وأن قسم الإيجارات بالأوقاف ظل يرسل إليه الإنذار تلو الإنذار . . . فرآها مستر جريفز فرصة سانحة لاستغلال ضائقة الدكتور ومساومته ، فذكر له مستر جريفز (عارضاً مغرياً) بأنه على تمام الاستعداد لقضاء ديونه وإعطائه إعانة دائمة مع تعيينه في منصب حكومي ، على أن يظل حراً غير مقيد بقيود الوظيفة ،

منصب يديح للحكومة أن تحوّل إلى عيادته من يمرض من عمال الحكومة وموظفيها (كذا) ١ وهذا سيدر على الدكتور محجوب المال الوفير والخير الغزير ...

ظل الدكتور محجوب يستمع لعبارات المساومة والإغراء يلقيها بين يديه مستر جريفز في سخاء ورخاء والدكتور محجوب ينظر إليه في صمت تغالبه ابتسامة لها معناها ، ولا تنفك أنامله تعبت بلحيته . حتى أتى مستر جريفز على آخر حديثه ، فرد الدكتور بقوله : « سمي وكلا أو نقيياً أو مرشداً أو معلماً أو محامياً للعمال ، المهم إنني أصبحت موضع ثقتهم . وأمانة الوكيل تقضى عليه أن يعمل لمصلحة موكله ، وإلا كان غير أمين ولا نزيه ، بل يكون ميت الضمير . فيا مستر جريفز أنا أطلب سن تشريع للعمال يحميهم من الشركات وأصحاب رؤوس الأموال ، تشريع يكفل لهم المعاش بعد أن تتقدم بهم السن ، تشريع يقضى بتعويض العامل إذا ما أصيب بعاهة أثناء العمل ، تشريع يلزم أصحاب الأعمال بأن يصرفوا للعامل لباساً خاصاً (العفريّة) (١) فيه وقاية لهم من خطر الآلات . تشريع يحتم على أصحاب المعامل والشركات التكفل بمعالجة المريض من العمال . هذا هو الذي أطلبه لمن نصبوني عليهم زعياً وعنهم مدافعاً . أما ما تعرضه على من معاونة ، فإنني في غنى عنها . هذا من جهة . ومن جهة أخرى فإن هذه المعاونة لا يصح أن تجيء على حساب « العمال » . ومع ذلك فإن الذي لا تنفذونه اليوم من المطالب الحقّة ، ففي سبيله

(١) البدلة ذات القطعة الواحدة التي يلبسها العمال .

سأقف منكم موقف المقاوم المطالب بالوسائل المشروعة في دائرة القانون وإلى سأخاصم الجهة التي أطلب منها حقوق العمال عند تمنعها عن تنفيذ طلباتي العادلة ، وإذا ليس من الأمانة يامستر جريفز أن يقبل مثل أية معاونة تجيء من الحكومة في أية صورة من الصور وبأية طريقة من الطرق ، على أني أستطيع أن أقول إن الحكومة مهما تلكأت أو أهملت ، فإنها حتما ستنفذ هذه المطالب عاجلاً أو آجلاً .

وإلى هنا تنتهى المحادثة ويستأذن الدكتور محجوب في الانصراف مرفوع الهامة متغنياً بقول الجرجاني :

وما زلت منحازاً بعرضي جانباً	عن الذل أعتد الصيانة مغماً
إذا قيل هذا منهل ، قلت قد أرى	ولكن نفس الحر تحتمل الظما
وإني إذا ما فاتني الأمر لم أبت	أقلب فكري إثره متندماً
ولكنه إن جاء عفواً قبلته	وإن مال لم أتبعه هلاً وليتما
وأقبض خطوى عن أمور كثيرة	إذا لم أنلها وافر العرض مكرماً
وأكرم وجهي أن أضاحك عابساً	وأن أتلقى بالمديح مذمماً
وكم طالب رقيّ بنعماء لم يصل	إليه ولو كان الرئيس المعظماً
وكم نعمة كانت على الحر نقمة	وكم مغنم يعتده الحر مغرماً
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي	لأخدم من لاقيت لكن لأخدماً
أشقى به غرساً وأجنيه حنظلاً ؟	إذن فاتباع الجهل قد كان أحزماً

ثم يأخذ سبيله هابطاً من (سلم الوزارة) مسترسلاً في تغنيه بنغمته الخاصة حين يتمثل بالشعر الرصين الذي يصور عزة النفس وكرامة العلم فيردد قول أبي الحسن الجرجاني :

على مهجتي تجنى الحوادث والدهر
 كأنى ألقى كل يوم ينبؤني
 فإن لم يكن عند الزمان سوى الذى
 وقالوا توصل بالخضوع إلى الغنى
 إذا قيل : هذا اليسر أبصرت دونه
 وبينى وبين المال بابان حرما
 إذا قدموا بالوفر قدمت قبلهم
 وأخيراً يقول : « لن ألوث هذه اليد بمال حكومى غير مشروع » .
 وما أن يصل إلى بيته حتى تتراعى له المناسبة التى يراها للرد العملى
 على مستر جريفز ، وهى وجود (مستر بتلر) مندوب مكتب العمل
 الدولى فى زيارة مصر قادماً من جنيف (وقد أعد له العمال حفلة
 تكريم فى دار سينما « الكوزمو » لم تشهد مصر لها مثيلاً من قبل
 فى إبراز قوة العمال المصريين) .

طلب الدكتور محبوب سكرتيه الخاص ، وأخذ يملئ عليه خطاباً
 بالإنجليزية يدعو فيه مستر جريفز وأحد كبار الموظفين المصريين
 لحضور حفلة للعمال لتكريم «مستر بتلر» . . . فلبى مستر جريفز
 الدعوة ومعه ذلك المصرى الكبير الذى يشغل الآن فى الحكومة
 المصرية مركزه الممتاز (وهو مصدر هذه الرواية وهذه المعلومات
 التى كنت أعرفها من قبل) .

وبعد خروج مستر جريفز من الاحتفال ، إذا به يقول لذلك
 الموظف الكبير : « لم أر فى مصر رجلاً قابضاً على مقود الزعامة

وهو محل الإجلال والثقة من الجماعة التي يتزعمها مثل الدكتور محبوب ،
 فما أعجب هذا الخلق الإنجليزي ! فهؤلاء الانجليز قد يحتضنون
 من يتساهل في حقوق بلاده لحسابهم ويكافئونه ويملاؤن يده ،
 ولكنهم في نفس الوقت يحتقرونه ، وإلى جانب هذا فهم يحترمون
 المخلص لبلاده ويحبلونه ، ولو أنهم يحاربونه ، مع توقيهم له واحترامهم
 لوطنيته والاعجاب به في داخل نفوسهم .
 وعقب انتهاء الحفلة قال مستر جريفز لمرافقه - المصرى الكبير - مرة
 أخرى : إنى أجل هذا الرجل - الدكتور محبوب - إنه من القلائل
 في هذا البلد الذين يعفون في أوقات ضيقهم المادى .

هذا هو الدكتور محبوب ثابت ، الوطنى للوطنية ، والوكيل الأمين
 للأمانة ، والنزيه العيوف للنزاهة . . . وتلك صفحته الناصعة في الزهد
 والقناعة في أشد أيام الضيق .

لقد حاول بعض رجال السياسة تسميم أفكار العمال ، في الوقت
 الذى كان فيه الدكتور محبوب يرفض بشمم وإباء واحتجاج مهذب
 لطيف ، ذلك العرض السخى وهو يعانى الضيق والمعسرة .

اعتصم بأمانته للعمال ، وصان كيانهم ، وجنبهم أعاصير السياسة ،
 حتى غادر الدنيا إلى جوار ربه وفي مصر نقابة (١) قوية الدعائم ،
 لها رصيد من المال يبلغ ستة آلاف من الجنيهات ، هى النقابة التى
 مات محبوب ثابت وهو رئيس لها تعذبذكراه وتحفظ له الجليل .

(١) نقابة عمال القطر المصرى وشركتها التعاونية ومستوصفها الخيرى
 ووكيلها الدائم منذ ٢٥ عاما هو الاستاذ على حسن فرحات .

الدكتور محبوب ثابت

المصلح الجامعى

هو المجاهد الباذل النفيسين « النفس والمال » العالم الجامعى ،
الاستاذ الموجه ، المربي الاجتماعى ، الأب الشفوق ، الوالد المصرى ،
السكرىم الأريحي ، المحلل النفسى ، المدرب العسكرى ، الباذل الجهد
والوقت فى سبيل الوطن ، ثم مطعم الطعام فى سبيل الأجاويد .

* * *

كانت عاطفة وفاء من اسماعيل صدق باشا - الذى يعرف وطنية
محبوب ثابت من عهد صديقه المغفور له مصطفى كامل باشا (١) مؤسس
الحزب الوطنى - أن عين الدكتور محبوباً طبيباً لجامعة فؤاد الأول
سنة ١٩٣٠

ولقد كان التوفيق الإلهى رائده ، وكان من حسن حظ مصر والجامعة
المصرية أن كان مراد سيد احمد باشا (٢) وزيراً للمعارف فى ذلك
الوقت ، وهو الذى اقترح على اسماعيل صدق باشا تعيين الدكتور
محبوب طبيباً لجامعة فؤاد الأول ، فوافق صدق باشا على هذا الاقتراح

(١) ويحسن أن نذكر أن صدق ومصطفى كامل كانا صديقين فى الوطنية
(٢) كان مراد سيد أحمد زميلاً للدكتور محبوب فى الدراسة بمصر
وبجامعات سويسرا ويعرف لمحبوب قدره فى الوطنية ومكانته العلمية .

في ترحيب ملؤه الرضا والسرور ، ثم اتصل مراد سيد احمد باشا بالمرحوم داود بركات بك رئيس تحرير الأهرام وقتئذ - وهو صديق محبوب الحميم - وكشف له عما اتتوى عمله للدكتور محبوب . وتناولت المحادثة موضوع المرتب فرآه داود بركات من التواضع بحيث لا يوازي قدر محبوب العالم الكبير ، والمجاهد الوطني ومكاته العلية . فلما أن ذكر مراد باشا أن هذا المرتب هو المحدد في ميزانية الجامعة عن تلك السنة ، وأن المسألة مؤقتة ولا بد لها من تعديل مرض في أقرب فرصة ، اقتنع داود بركات بوجهة نظر مراد باشا ، وكل هذه المباحثة كانت في غيبة الدكتور محبوباً ، وعلى غير علم منه . فلما أن أبلغ المرحوم داود بركات صاحبه محبوباً بالامر ، وجد منه إعراضاً وتعففاً ، ولكن داوداً كان يلس دقة الموقف ويدرك اتجاه المرمى ، فرأى أن يضع الدكتور محبوباً أمام الامر الواقع ، ففاجأه بإذاعة خبر تعيينه طبيباً للجامعة بجريدة الأهرام قبل موافقته النهائية . وكانت بين داود بركات وبين محبوب في مساء ذلك اليوم مناقشة حادة (بين الصديقين الحميمين) فاستطاع فيها داود بركات أن يقنع الدكتور محبوباً بأنها الفرصة التي تهيأت له لأداء رسالته التي يعمر بها قلبه وينادي بمبادئها السامية فوجوده في الجامعة هو السبيل لأداء رسالته .

ثم قال له داود بركات : هذه هي الفرصة الثمينة التي بواسطتها تتصل الاتصال المباشر بزهرة شباب الوطن وهم طلاب الجامعة فتبث فيهم الوطنية وتغرس في نفوسهم تلك المبادئ الرفيعة التي طالما ناديت

بها كتابة في الصحف وخطابة على أعواد المنابر وحديثاً مروياً قوياً
في المنتديات العامة... ولتكن مفاداة من محبوب الذي مرّن على
التضحيات وتعشق الأداء السخي في سبيل أمته .

وعندئذ هدأت غضبة الدكتور محبوب ، فأغض عينيه ثم فتحهما
مبتسماً ابتسامة الرضا والقبول ، وقبض على راحة داود بركات
وهزها هزاً فيه معنى الموافقة ، وقد كانت كما رغب داود بركات إذ أدى
محبوب رسالته على الوجه الأكمل كما سيحيى .

ولقد كان قبوله — رحمه الله — لهذا المنصب بمرتبه الضئيل
موضع تساؤل وعجب عند الذين يعرفون لمحبوب تاريخه الوطني
وماضيه في الجهاد الخالص البرى . . . ولكنهم قد أکبروا فيه
هذه التضحية التي ارتضاها لأنها سبيله إلى إنشاء جيل جديد من
شباب الوطن في أرجاء الجامعة وساحاتها الفيحاء (١) .

فلما عين محبوب ثابت طبيباً للجامعة — وكبيراً لأطبائها —
لم يقتصر على تأدية مهام وظيفته كما ينبغي ، وفوق ما ينبغي ، فقد
أرضى الله وأرضى الوطنية ، وأدى الأمانة أوفى أداء .

(١) وما هي إلا بضعة من الأشهر حتى وفي صدقي باشا بما اعتزم في
نفسه لمحبوب فأضاف إليه منصب مستشار مكتب العمل ثم أراد ترشيحه لمجلس
النواب عن دائرة بولاق لولا أنه تنحى لأسباب لا محل لذكرها هنا الآن . وقد
ذكرنا رأى الدكتور محبوب في صدقي باشا في « الفصل » (بين محبوب
ومحمد محمود باشا)

لقد حمل محبوب ثابت في الجامعة لواء الوطنية عالياً خفياً فإذا
بطبيب الجامعة، يصبح مدرساً للوطنية فيها يؤدي رسالته قولاً وعملاً.
لم يكن محبوب يؤدي وظيفة كبير أطباء الجامعة فحسب، بل كان
ينتهر فرصة توقيعه الكشف الطبي على الطلاب، فيوجه إلى الطالب
« أسئلة العالم النفسى المخلص »، ويظل يناقش الطالب ويستمع إليه ويغمر
مفاصله (١) دون أن يشعر الطالب أنه يتفهم عقليته ومدى استعداداته
ومبلغ ذكائه الذهني وكل ذلك في موقف الكشف الطبي .

فكان محبوب من هذه الناحية نعم الأب ونعم الموجه ونعم
الوطني المصري البعيد النظر الثاقب الفكر القوى الفراسة، المخلص
لأتمته الاخلاص الذي ليس بعده إخلاص .

من قبيل إعطاء الفكرة لا الحصر

أذكر أن الكثيرين من الطلاب الذين تقدموا للكشف الطبي
للالتهاق مثلاً بكلية الزراعة، كان الدكتور ينصحهم بالالتحاق
بكلية الطب لأن استعدادهم للزراعة ضئيل، فكم من طالب كاد
يلتحق بكلية الطب فإذا بالدكتور محبوب يوجهه إلى الكلية الحربية
أو البوليس، وكان إذا قامت في سبيل الطالب عقبة ذلها وأزأها.
جاء إليه الطالب عبد المنعم أفندى السيد رشوان سنة ١٩٣٦
للكشف الطبي عليه توطئة للالتحاق بكلية التجارة، فقال له الدكتور
محبوب: « لماذا تريد الالتحاق بكلية التجارة يا بني ؟ أنت رائع

(١) كما يقول الشاعر :

ولإن تغمر مفاصلنا تجدها غلاظاً في أنامل من يصول

العضلات وتظهر على وجهك آيات الشجاعة ، أنت قوى النظر ، شديد البنية ، لماذا لا تتحقق بالكلية الحرية لتتفع الوطن . ويفيد منك الجيش وتساهم في رفع مستواه . يا بني اسمع نصيحتي ! سيكون لك مستقبل عظيم في الجيش المصرى وارث مجد الفراعنة وعظمة العرب ... يا بني لن تنجح تاجراً ، إنما ستفيد أمتك جندياً ، ومثلك قمين أن يكون القدوة الحسنة في الجيش . .. فإذا بالطالب يقول : « إنى أرغب فى الالتحاق بالجيش وأنا كما تقول يا دكتور أحب الجيش من صميم قلبي . ولكن الكلية قد استوفت وليس بها مكان ، فصاح الدكتور بحجوب صريحة مبتهج كأنه ظفر بشيء ثمين : « سأوجد لك مكاناً ، سأخرج من الكلية الحرية غير الجدير بها وألحقه بالكلية التى تلائمه عقلاً ، واستعداداً . أنت يا بني أولى من غيرك أن تنتظم فى سلك جيشنا .. هيا يا بني ، .. وقد كان .. فلم يهدأ لمحبوب الوطنى بال إلا بعد أن ألحق الطالب عبد المنعم السيد رشوان بالكلية الحربية ، وعبد المنعم هذا هو الآن ضابط فى سلاح المدفعية بالسكتية الجوية .

وهناك ضابط من طيارينا البواسل وهو الطيار الأول ، محمد الدمرداش ، الذى أخرجه الدكتور من معهد التربية وحول اتجاهه إلى سلاح الطيران فكان فيه من البارزين لأن الدكتور محجوباً كشف فيه هذا الاستعداد الملائم للطيران دون معهد التربية .

هذا قليل من كثير من جهاد محجوب ثابت فى توجيهه الشباب وقد حدثنى الضابط المدفعى عبد المنعم السيد رشوان فقال : « إنه لما علم الطلاب

بما عمله الدكتور محبوب معى ومع غيرى كانوا إذا صادفتهم عقبة
 فى طريق التحاقهم بالكليات الجامعية التى تتفق مع استعدادهم يلجأون
 إلى الدكتور محبوب حصنهم الحصين^(١)، وحينئذ كنت ترى محبوباً
 يدأب على الاتصال بأصحاب الشأن ولا يهدأ له بال إلا إذا انتظم
 الطالب فى الكلية التى تلائم طبيعته واستعداده، فيعود قرير العين،
 وكثيراً ما كان يزأر زئير الأسد فى وجه أى موظف يصعب السهل
 من الأمور ليتظاهر بأنه يستطيع أن يحل أو يربط، وهذا مرض
 اجتماعى فى بلادنا يجب أن نعالجه، ولو بطرد المرضى من عداد
 موظفى الحكومة، على اعتبار أنهم ليسوا سادة للشعب بل خدامه،
 فمن لا يريد أن يفهم ذلك يجب أن يستأصل استئصالاً وذلك
 لأن بعض الموظفين فى وزارة المعارف وفى المصالح والوزارات
 الأخرى يصعبون السهل من الأمور ليفخروا بتلقى الشفاعات
 والوساطات، فكان الدكتور محبوب يصرخ فى وجه هذا النوع
 الرخيص من الناس، وقد كان فى مثل هذه المواقف نعم الوطنى
 ونعم الموجه ونعم الثائر للحق والإصلاح، ثم قال: «كم من طالب
 انقطع عن مواصلة الدراسة أو عن التقدم للامتحان لعجزه عن دفع
 ما يطلب منه من رسوم لفقره أو ضيق ذات اليد عند أهله.
 وحينئذ كان محبوب — إذا لم يكن ملئ الجيب — يتصل اتصالاً

(١) على أنى كنت أعلم هذه الحقائق قبل أن يذكرها لى الضابط

عبد المنعم السيد رشوان وغيره.

مباشراً بمن ييدهم الأمر ، فلا يهدأ باله حتى يعنى الطالب
ما يطلب منه ، فيستأنف دراسته مطمئناً . ولطالما غير
محجوب مجرى دراسة كثير من الطلاب فنجحوا في
العملية والعلمية .

أريحية

كان الدكتور محجوب قد افترق أحد الطلاب الأذكياء
استئناف الدراسة . فلما قيل له إن الطالب انقطع عن ا
لعجزه عن دفع القسط المطلوب منه لأن والدته في عسر
للطالب قريباً من الوزراء اعتصمت الوالدة بعزة نفسها عز
إليه أو اظهاره على ضيقها . هزته روعة الإعجاب بإباء
وشمها وأخذت الدكتور الأريحية فأشفق على مستقبل هذا
الآية والدته ، وأخذ يترنم ، على لسانها ، بقول الشاعر :

أعف لدى عسرى وأبدي تجملا

ولا خير فيمن لا يعف لدى العسر

واني لأستحي إذا كنت معسراً

(صديقي) واخواني بأن يعلوا فقرى

واقطع اخواني وما حال^(١) عهدهم

حياء وإعراضاً وما بي من كبر

ثم قال : داني أعرف نفسيات العناصر الكريمة الطية

تنزل بهم النوازل ويتعرضون للعسر المادى وهم الكرماء

(١) حال : أى تغير .

يعفون ويتجملون في أيام العسر ، وضيق ذات اليد ، وهؤلاء يجب أن يجدوا من أمثالهم العنصر الطيب من الناس من يأخذ بأيديهم ويتحایل على اقالة عثراتهم مع حفظ ماء وجوههم .

فما كانت أعظم فرحة الطالب حين تلقى البشرى من الدكتور محبوب بدفع القسط وبقرار الجامعة بإعفائه من المصاريف حتى يتخرج . فما أنبل مشاعر الدكتور محبوب وما أبعد نظره ، ولا عجب ، فهو المحلل النفسى والطبيب الشرعى حقاً .

لم يكن الدكتور محبوب يؤدى مهمة الطبيب الذى يوقع الكشف الطبى على الطلاب ليقرر قبولهم بالجامعة أو عدمه ، بل كان فى نفس الوقت ، يعالج المريض منهم . وإذا وجد أحدهم من المعوزين ، كان يعاونه مادياً ، ويسر إليه فى أذنه بأن يتناول الأغذية الرخيصة الثمن المفيدة للصحة ، والمقوية للجسم (كالقول والعسل والطماطم والكبد المشوى . . . وهكذا) الخ .

كان محبوب ثابت للطلاب الطبيب المعالج والاب الشفوق والمعلم المخلص فى تلقينه وإيحائه وتوجيههم إلى ما يفيدهم ليفيد منهم الوطن .

منشئ التدريب العسكرى

ظل الدكتور محبوب يدعو إلى تدريب الطلاب تدريباً عسكرياً سنين عديدة ، ولم يهدأ له قلب حتى أجابت دعوته ، ونفذت فكرته ، وأصبح ضابط اتصال بين المدرسين العسكريين للضباط الاحتياطيين

الجامعيين، وبين الجيش ، فوق وظيفته . وظل يرعى حركة التدريب ويفخر بها وبالطلاب الجامعيين إلى يوم وفاته . وكان مثله مثل الوالد الشيخ الذى أنجب أبناء فبارك الله فيهم ووفقهم وأقر بهم عين والدهم . كان ذلك شعور محبوب حيال حركة التدريب العسكرى .

حدثنى أحد طلاب الجامعة أن ستين فى المائة (٦٠ ٪) من طلبتها انضموا إلى التدريب العسكرى تلبية لدعوة الدكتور محبوب ودعايته وتشجيعه ، وكثيراً ما كان يوحى إلى الطلاب المؤسرين بإقامة الحفلات للترفيه عن المؤسرين من زملائهم دون أن يشعروا حتى يحفظ عليهم ماء وجوههم .

موجد الوحدات العلاجية

وللدكتور محبوب الفضل فى إنشاء الوحدات العلاجية التى عادت على الطلبة بحجم الفوائد ، هذه الوحدات التى كانت دائماً على أهبة واستعداد لمعالجة الطلاب من مختلف الأمراض ، يشرف عليها جهابذة رجال الطب وأقطابه . ونحيل القارئ إلى تقارير إدارة الجامعة عن الفوائد التى حصل عليها الطلاب وجنتها البلاد من سلامة أجسام شباب الجامعة ، شباب اليوم ورجال الغد .

الممتحن الجامعى

الكلام على الدكتور محبوب فى هذه الناحية يطول شرحه وتفصيله فيحسن إيجازه . كنت تراه وهو يمتحن طالب « علم النفس

الجنائي ، في موضوع من الطب الشرعي مثال العالم الوالد الذي يتحدث مع ولده ، فكان امتحانه الشفوي في الواقع مناقشة رسالة صغيرة ، وهذه بغير شك هي الروح الجامعي الحق ، وهي الطريق المجدية لتلقين العلم على غير طريقة من يمتحنون لتعجيز من يمتحنونه .

المناظرات الجامعية

لما أقيمت مناظرة في ردهة الاحتفالات الكبرى بجامعة فواد الأول كانت المناظرة تبحث في : هل الأفضل أن يتعلم طلبة الجامعة التعامل العسكرية أم لا ضرورة لها ؟ وبعد الانتهاء من المناظرة والتصويت لأحد الرأيين ، رأى الدكتور محبوب أن كفة الجامعيين ضد الفكرة العسكرية بنسبة (٥٥ ٪) فثار في حماس وغضب ونهض في الحاضرين خطيباً شارحاً لهم المزايا العسكرية في الأمم وشدة حاجة مصر إلى المتدربين تدريباً عسكرياً من المثقفين ، فسرعان ما تجلى الرجحان في كفة المؤيدين لفكرة التدريب العسكري وعندئذ تهلل وجه الدكتور محبوب بشراً وسروراً ، وكان مثله كالقائد الذي عاد من ساحات القتال بعد أن أدى واجبه كاملاً . هذا هو محبوب العالم وراعي الجندية والداعي إلى إشاعتها في كل قلب وعند كل طبقة في الأمة وإنه لمن الخالدين .

المعلم المربي

لم يكن نشاط الدكتور محبوب مقصوراً على العناية بالطلاب ، داخل الجامعة ، بل كان يرافق الطلبة إلى زيارة المستشفيات والسجون والإصلاحات

ويشرح لهم خلال استجوابه للمحبوسين والسجناء ، الحالات المتباينة من طبائع المجرمين مفرقاً لهم بين حالة المجرم الذي ارتكب الجريمة اضطراراً ، والذي ارتكبها عن طبع فيه ، وكان حينما يشرح لهم هذه الحالات المختلفة ، كأنما يقرأ لهم في موسوعة علمية أو كتاب مفتوح .
وإذا أكتب عن الدكتور محبوب صاحب المواقف الوطنية العديدة أقول : إن للدكتور محبوب نواحي متعددة جدية بالاهتمام والدراسة ليتخذ قدوة ، وكم أود أن يعلم الناس أنى أوجز حتى لا أمل ، ولا أجد غضاظة أن أقول : إنى إذ أضع هذا الكتاب ، أرى أنى أجتاز صعباً وعرة من صعاب الحياة ونضوب الاقتدار المادى واقتعاد المعين .



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
General Secretariat

العالم اللغوي

يطول الكلام على الدكتور من نواحيه الكثيرة الجوانب ، الغزيرة بالمواد اللغوية ومتونها وغريها .

* * *

أخبرنا الأستاذ حسن السندوي^(١) وهو من الأدباء النابهين قال :
« كان الدكتور محبوب ثابت عضواً في لجنة الاصطلاحات الطبية
بمجمع فؤاد الأول للغة العربية سنة ١٩٣٤ ، فأراد أحد الأعضاء
- وقد كان سمجاً - أن يتندر في أول جلسة على الدكتور ، لزعمة أنه إنما
اختير لأنه الدكتور « محبوب ثابت » ، الصديق والزميل للزعماء
لا لقدره العلي وما يتعلق بفنه واللغة العربية ، فأغضى^(٢) الدكتور
عما قصد إليه ذلك العضو ، وانبرى يتدفق من عليه بفيض غزير ،
ومعلومات خصبة واسعة ، وملاحظات دقيقة ، فيما يربط اللغة العربية
بعلم الطب ومتفرعاته ومصطلحاته ، حتى بهر الأعضاء ، وهم من الجهابذة
الأعلام ، فصاروا أمامه كتلاميذ يتلقون ما يفيدهم من علم أستاذهم

(١) وكان إذ ذاك أميناً لمجمع اللغة العربية .

(٢) كان الدكتور يقبل التندر والدعابة من الأنداد الطرفاء بصدر رحب
ويبادلهم تندرأ بتندر ، ودعابة بدعابة . أما إذا بادره أحد الثقلاء المتطرفين
بالتندر وابتدعه بالدعابة ، فكان يغضى عنه ، وكان عضو اللجنة من هذا النوع الثقيل

المخلص في تلقينه ، ومن تلك الساعة انتهى إليه زمام قيادة اللجنة . .
والقبض على ناصيتها ، متجهاً بها نحو الغاية المرجوة ، وإذا هو بعد ذلك
هدف النظرات المأخوذة إعجاباً به ، تسترق التطلع إليه في رهبة
ولإكبار وإجلال . .

القضاء والفصل بين قطبين في مساجلة لغوية

كان العلامة محمد مسعود بك من مشاهير رجال اللغة في مصر ،
بل في العالم العربي كله . وكان نابه الذكر ، عالي المكانة ، قوى
المعارضة ، شديد المراس ، مرهوب الجانب ، وله بحوث لغوية
كونت مادة دسمة تداولتها الصحف والمجلات العلمية الكبرى ، ثم
تناولتها المجتمعات والأندية الأدبية ، فاقبس منها كثير من علمائنا
وأدبائنا . وكان لشيخ العروبة ، أحمد زكي باشا ، نفس هذه المنزلة
العالية التي كانت لمحمد مسعود بك ، وكان له نداءً وصينواً وقريعاً .
كان هذا في الوقت الذي كان فيه الدكتور محجوب ثابت يملأ
سمع الدنيا بمواقفه الوطنية وخطبه السياسية ، وبحوثه الاجتماعية ،
ومشروعاته ، واقتراحاته الإصلاحية ، ونقدهاته التي كان يوجه بها
الرأى العام ، ثم يوجه إلى تنفيذها ولاية الأمر في الدولة .

وربما كان الناس يعلمون عن الدكتور محجوب أنه الطبيب
النطاسي ، والخطيب السياسي البار ، والوطني المجاهد . وربما كان
القليل من غير خلاصة الخاصة هم الذين يعرفون ناحية أخرى للدكتور
له فيها قدم راسخة وأعنى بها تضلعه في اللغة ، وفقهها ومنتها ،

واختلاف لهجاتها ، وإطلاع واسع على فصيحها وعامها .
 فإذا بالمساجلة التي حدثت بين القطبين اللغويين تكشف للناس
 جميعاً أن الدكتور محجوباً حجة في اللغة ومن أبطاها وفرسانها .
 وذلك أن محمد مسعود بك نشر بحثاً لغوياً ، جاء فيه بكلمة « السباهى »
 في لهجة المغاربة الدارجة — أوردها محمد مسعود بك على غير
 المعنى المقصود — وبطبيعة الحال كان موقف مسعود موقف العالم
 المجتهد الذي قد يخطئ قليلاً ويصيب كثيراً « هفوة العالم وكبوة
 الجواد » . فإذا بالدكتور محجوب يدخل في المعركة مناظراً ومساجلاً
 ثم حكماً وفيصلاً . وكان ميدان المساجلة هو كبرى الجرائد ، والأندية
 الأدبية ميادين فرعية لها . فإذا بالدكتور فارس الميدانين المنتصر
 المجلي المشار إليه بالبنان وهدف نظرات المحبين والحاسدين .
 يشار إليه في النادى ويرمى بعينى من أحب ومن تعاضى
 لقد أثبت الدكتور صحة نسب كلمة « السباهى » ، وحقيقتها ،
 ثم أصلها العربى الذى اشتقها منه الفرنسيون ، وهى « الإصباحى »
 وأطلقوها على فرقة من المجندين أو الجنود التونسيين أو الجزائريين .
 أخيراً انتهت المناظرة بأن جاء محمد مسعود بك لدى الدكتور
 زائراً وشاكراً وألقى سلاحه ، معلناً أن النصر حليف الدكتور . .
 فإذا بالدكتور يكشف بسعة علمه ومعلوماته وتفوقه فى التاريخ ، تاريخ
 المغرب والعوامل الاستعمارية التى عبثت بلغة العرب فألقت عليها
 رداء قائماً مشوهاً من اللهجة الأجنبية الدخيلة . . .
 ومن المعلوم أن محجوباً كان يدأب على إزالة الصدأ عن الألفاظ

العربية الجميلة من الألفاظ الأجنبية الدخيلة « وقبح الله كل دخيل ،
ويبعد العبارات المشوهة الغريبة . ثم كان يزيل ما تراكم على الألفاظ
العربية السكرية من التحريف والأخطاء ، فكم من كلمات عربية
وتعابير قوية كانت مطمورة كشف عن كنوزها ، ولطالما أحيا
ألفاظاً عربية غضة كانت مدفونة مهملة في زوايا النسيان وفي بطون
الكتب ، فأشاعها وبين جمالها كتابة وتلقيناً في أحاديثه ومسامراته .
ورحم الله شيخ العروبة أحمد زكي باشا ، فقد التقى بالدكتور
عقب هذه المناظرة وبادره قائلاً : « يا محجوب يا أخى وأستاذى لانت
الجدير بشياخة العروبة ، لأنك فارس لغة العرب والمؤرخ الثبت ،
أنت أولى بها منى وأحق . أقول ذلك مخلصاً ومنصفاً » . فأجابه الدكتور :
« لست والله بالطامع ولا بالمتطاول على سلطانك ، لأنك أنت حقاً
وصديقاً شيخها وماجدها وركنها وفارسها المغوار » . فالتفت أحمد زكي
باشا متأثراً إلى من كان حوله وقال : « أشهدكم أننى إن كان لى أن
أبايع أحداً بشياخة العروبة وأمارة الأدب العربى وسلطنة التاريخ ،
فلأخى ، بل مرشدى محجوب ، هذه البيعة فهو ابن سينا عقلاً وعلماً
ولغة وفلسفة وطباً وأدباً . ومن الإنصاف أن أقول لكم يا إخوانى
إن محجوباً يدأب على إرشادى وتوجيهى إلى أكثر ما تشهدونه
منسوباً لى ، وإنه ينسكرك ذاته ويؤثر غيره ، وإن محجوباً من حسنات
جيلنا هذا » .

رحم الله زكياً ومسعوداً ومحجوباً ، ورحمنا نحن الذين نعمنا بعشرة
تلك الشمس الغاربة والنجوم الآفلة ، نخصهم بالذكر العاطر ، مسجلين

حسناتهم وجهادهم وإخلاصهم ليقبلى بهم رجال المستقبل .
 وإذا تحدث عن الدكتور محبوب العالم اللغوى ، يحسن أن نذكر
 له لمحة بارقة فى مجلس النواب ، وهى أنه لما اعترضه أحد الزملاء
 من المتعلمين فى أثناء إلقائه إحدى خطبه البرلمانية فى كبة أنكر صحتها
 اللغوية وردت على لسان الدكتور .. - طبعاً جهلاً من المعارض
 المتعلم - فكانت مساجلة سمعنا فيها صوت الدكتور المتمكن من علمه
 وهو يقول : « إذا تحدثت متحدث عن اللغة فأنا من فرسانها » ، وكان
 صادقاً فى اعتزازه وثقته بنفسه وعلمه إذ أيدته العلماء من النواب .
 وكان الدكتور قد فطن إلى أن النائب المعارض أراد أن يفهم
 الناس بأنه متمكن من اللغة إلى حد أنه ندد للدكتور ، كان هذا
 النائب من طراز المتعلمين الذين ينسبون إلى أنفسهم ما ليس فيهم من
 علم وحذق وإطلاع .

من أجل ذلك قال له الدكتور ساخراً ضاحكاً : « اللغة بحر
 خضم تغرقك أمواجه وتبتلعك حيتانه ، على إنك إذا حاولت أن
 تصحح الألفاظ اللغوية لمحبوب فإنك عن اللغة لمحبوب ، فتفصح
 نفسك وتكشف عن جهلك وتكون أشبه الناس بمن نزل البحر ليلارى
 السباح الماهر فغرق ، فنصيحتى لك ألا تعود إلى مثلها ، قل : موافقون » .
 وكانت غمرة .

وحدثنى المواطن الأستاذ « توفيق أحمد البكرى » الكاتب الشاعر
 المؤلف السودانى الوطنى أنه كان ذات يوم فى مجلس الدكتور ، فأقبل
 طبيب مصرى يتحدث إلى الدكتور فى خصائص جرثومة من الجراثيم

لولية ذات «شراشير» - باللغة العامية - وفي النهاية أراد لها تعبيراً عربياً صحيحاً دقيقاً فلم يعثر عليه ، فأثر أن يتحدث في ذلك إلى الدكتور لعلة يمدّه بمعنى من هذه المعاني الدقيقة يصلح لأن يكون وصفاً دقيقاً شاملاً لتلك الجرثومة ، فأطرق محجوب وأغمض عينيه قليلاً وهو يعبث بلحيته ، ثم فتحهما وابتسم ورمى برأسه إلى الخلف وقال : « نعم ياسيدى .. نعم لأنها تماماً كما يقول الشاعر الجاهلي :

«كهدّاب الدمقس المقتل» .

وفي الحق أنه المعنى الدقيق الشامل .



الدكتور محبوب

الوطني • السياسي • الكاتب

أنموذج مما دبحه يراعه في السياسة الانجليزية

في السودان

للذكرى والحقيقة والتاريخ

من المهيمن على مياه النيل

بحيرة تسانا وأوغندا منابع النيل الاستوائية
الحرب القطنية بين أمريكا وإنجلترا وموقف السودان حيالها

(الأهرام في ٧ نوفمبر سنة ١٩٢٨)

- ١ -

تقوم حرب ضروس وتطاحن بين دول العالم الكبرى وأمم شتى
يتوالى تأجج نيرانها في الجبهة الاقتصادية ، ويحول دون الاتفاقات
العادلة التي لا تنكر فيها الحقوق الشرعية التاريخية ، كما حاول الإنجليز
في كل مشروع لاتفاقيتهم ، وكما ظهر بجللاء في كل مفاوضاتهم مع
زعماء مصر ورؤساء حكوماتها ، ومن بين تلك الحروب الاقتصادية
الحرب الكبرى القائمة الآن بين الإنجليز والولايات المتحدة على
التحكم العالمي في الإنتاج القطنى والبتروى والكاشوك . . .

وليس ما قامت به إنجلترا من طرد جيشنا المصرى والضباط
السودانيين في ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤ والاستئثار بمليون ميل مربع
تقريباً لجعل السودان مزرعة قطنية لمصانع لنكشير ، إلا ظاهرة من
ظواهر هذه الحرب الاقتصادية .

ولذلك إحصائية عن محصولات قطن السودان من نوع السكلارىدى
لسنة ١٩٢٧ - ١٩٢٨ نقلا عن جريدة حضارة السودان التى تصدر

في الخرطوم في أحد أعدادها وهي كالآتي :

في الجزيرة — ٣١٥,٠٠٠ قنطار إلى ٣٦٠,٠٠٠ قنطار

في طوكر — ٥٠,٧٩٣ قنطاراً

في كسلا — ٥٣٠,٠٠٠ قنطار

وفي شبات والكاملين — ١٤٩٥ قنطاراً

وفي مديرتي بربر والخرطوم — ٥٢٨٢ قنطاراً

فيكون المجموع ٤٢٥,٥٤٠ أو ٤٧٠,٥٤٠ قنطار ١١١

وليس ما تتمسك به انجلترا من إنكار حقوق مصر الطبيعية والشرعية في السودان برفضها تغيير الحالة التي أصبح السودان عليها واعتدائها الصارخ على قلب الوطن المقدس ، إلا ترميها لوضع يدها على السودان بسكوتنا الذي إذا دام ولم تحدث له غير عد الغاصب قبولاً للحالة الحاضرة ورضا بالأمر الواقع .

وهاك في البيان الآتي ما يرفع لك النقاب عن بعض أوجه تلك المعركة القطنية تتقدم به لمواطنينا أبناء وادي النيل الأعزاء .

في أوائل نوفمبر الماضي حمل البرق إلينا أن حكومة الحبشة فكرت في أن تعهد إلى شركة أمريكية ببناء خزان على بحيرة تسانا عند خروج النيل الأزرق منها لحجز مياهها وبيعها لمصر والسودان . وكانت لإذاعة الخبر هزة في البلاد ، وذعر في الرأي العام المصري ولكنه لم يقابل بالاستغراب من الرأي العام الدولي الذي هو بطبيعته ميال للإعجاب بأمثال هذه المشروعات الهيدروليكية (مشروعات الهندسة المائية) وغيرها من المشروعات الاقتصادية

الكبرى وعلى الخصوص ما كان منها في البلاد البكر .

ولقد كانت الحبشة في الواقع هي إحدى الحكومات النادرة التي تتمتع باستقلالها الكلي في افريقيا ، بل الوحيدة المحاطة بامتلاكات الدول العظمى . ولقد حافظت على استقلالها في معركة (عدوة) في وسط تلك الدائرة الاستعمارية ، كما حافظت على كل حريتها السياسية . فقد جرت اتفاقيات دولية أمضيت في ١٣ ديسمبر سنة ١٩٠٦ بين إنجلترا وفرنسا وإيطاليا اعترِف فيها باستقلال الحبشة وبمقتضاها دخلت عصبة الأمم بمساعدة فرنسا التي عقد ممثلها (لاجرد) مع النجاشي (منليك) معاهدة في سنة ١٨٩٧ ودافع فيها المسيو (هنري دي جوفيل) الذي فضل سياسة التعاون الودية على سياسة الفتح والإذلال الاستعماري ، رغم محاولة إنجلترا منعها من الالتحاق بعصبة الأمم ، وحملة اللورد كرزون في استجواب من الكونت (بوشان) ورمى حكومتها بالضعف وتساهلها في تجارة الرقيق وعدم مراعاتها معاهدتي برلين وبروكسل الخاصتين بمنع هذه التجارة . وأخذت تخطو خطوات كبيرة موجهة في طريق التقدم ، ونشر العمران في داخليتها بفضل أهلها « الرأس طفرى » ما كوين ، ذلك الأمير النجيب ، والمحبة لاعتناق وترويج المدنية الحديثة .

ولكن الحبشة التي صدت بكل بسالة هجمات الجيوش الإنجليزية والمصرية والإيطالية من أعلى جبالها وهضباتها شمالا وجنوبا ، وحفظت كيانها السياسي بمعاهدة ١٨٩٦ مع الدول المحيطة بها ، وبمعاهدة سنة ١٨٩٧ التي أمضاها (السير رتل رود عضو لجنة ملنر المعروفة) عن إنجلترا مع النجاشي (منليك) لتحديد التخوم ولتوثيق الروابط التجارية والودية

وفتح زيلع وبربره للتجارة الأثيوبية أى الحبشية . وكانت هذه المعاهدة
لفسخ ما جاء فى اتفاق ٢٤ مارس و ١٥ ابريل سنة ١٨٩١ الذى عقد
بين إيطاليا وانجلترا ، وأرسل إذ ذاك الامبراطور منليك منشور
احتجاج عليها ، تجدد مع ذلك صعوبة فى التخلص من النفوذ الاقتصادى
للدول التى تحيط بها أو من تلك الدول التى تدافع عن سياسة (الباب
المفتوح) فى المسائل التجارية والاقتصادية .

فإذا ما ألقيت نظرة على تلك المملكة الحبشية (سويسرة افريقيا)
تجد سكة حديدية أنشئت بالفرنسيين تتسلق جبالها من ثغر
(جيبوتى) لتصل عاصمتها (أديس ابابا) بالبحر الأحمر لتصرف
فيه أغلب التجارة الحبشية (٨٢ ٪ منها) .

وترى الانجليز يهتمون بجلب تلك التجارة أو جزء منها إلى
النيل والسودان بواسطة خطوط حديدية بين بحيرة تسانا وبعض
خطوط شرق السودان الحديدية فى منتهى فروعها بسكة كسلا -
القلابات - القصارف سنار ، التى مدت حديثاً وأوصلت إلى مكوار وسنار .
فى حين أن إيطاليا الفاشستية تهتم وتوجه قواها نحو الاستثمار
كما كانت فى عهد وزيرها الشهير (السنيور كرسى) الذى أهدت
إليه انجلترا من أرض مصر الأريتيرية وثغر مصوع والصومال المصرى
المعروف بالصومال الايطالى الآن ، مقابل سكوتة على احتلال
وادی النيل بانجلترا وأخذها زيلع وبربره و (هرر) التى أعطيت
فيما بعد للحبشة بمد خط حديدى داخل الحبشة ليصل الأريتيرية
بالصومال ويوصل البحر الأحمر بالمحيط الهندى بواسطة خط حديدى

يخترق قلب الهضاب الحبشية بين « مصوع » و « قسايو » على مصب « جوبا » الذي صعدته ورفع عليه (شابى لونج) العلم المصرى عام ١٨١٥ ، كما رفعه أيضاً على (موجادتش) ضابط البحرية المصرية (ماكلوب) وتنازلت إنجلترا للحكومة الفاشستية عن (الجوبالاند) وقسايو ، كما ساعدتها فى جغوب مقابل سكوت السنيور موسولينى عن تصرفات إنجلترا وموقفها حيال مصر فى سودانها .

ولقد طلب الطليان بعد اتفاقهم مع الإنجليز ، الحصول من حكومة الحبشة على منطقة نفوذ اقتصادى لتنفيذ مشروع سككهم الحديدية (سكة الأريتيرية إلى الصومال) .

ولقد تطلعت روما الفاشستية إلى أن ترى مهاجرها يستوون على هضبات (النجرة) المعتدلة المناخ لينقلوا الماشية الحبشية إلى الثغور الايطالية .

وليس للحبشة فقط تلك الأهمية التجارية ومطامع اختراقها طرق المواصلات الحديدية والتطلع إلى الهجرة إليها وإقامة الصناعة فيها ، بل لها أهمية حقيقية فوق ذلك وهى أهمية الساعة الحاضرة ، وهى أنها خزان كبير للياه ، بل قلعة مائية مهيمنة على مصر ، فجبالها التى يتجاوز ارتفاع بعض قممها أربعة آلاف متر ، هى فى الواقع مركز لتجمع المياه وخزان مائى طبيعى كحالة سويسرا التى يخرج منها الرين والرون .

منطقة تجمع المياه الحبشية

قلعة المياه الحبشية المسيطرة على نيل مصر المنصب

يسيل من هذه السويسرة الحبشية جملة نهيرات بل أنهر لتصب في النيل أو متجهة نحو البحر الأحمر أو المحيط الهندي ، وأن هذه الأنهر والنهيرات ليست صالحة للملاحة ، ولكن الأنهار التي تتجه نحو السودان تعوض هذا النقص المهم في قيمتها الاقتصادية بسبب الطمي المحمول بمياهها إلى نيل مصر .

فيبنما نرى نهر (بركة) يسيل من الهضاب الحبشية ليخترق الأريتيرية كي ينعش منطقة (أغوردات) في الأريتيرية ثم أراضى طوكر جنوب سواكن ويسقى قطنها ، نرى نهر الجاش المار بأبواب كسلا قبل أن يفقد في الصحراء أو يصب في الأريتيرية يتفرع منه بعض الفروع ليكون دلتا داخلية ، يسمح بزرع القطن في السهول الشرقية لنهر عطبرة الذي يبلغ طوله ٨٠٠ كيلو متر قبل أن يصب في النيل ، والهابط من الهضاب الحبشية غربى غندار (إقليم الامهرة) الذي عليه مدينة القلابات عند تركه الحدود الحبشية السودانية على بعد ١٦ كيلومتراً شمال تسانا .

ولكن أهم أنهار هذه السويسرة الأفريقية هو النيل الأزرق والدندر والرهذ اللذان يصبان فيه خارج الهضاب الحبشية الذي يسيل من بحيرة تسانا من ارتفاع ٢٧٦٠ متراً في رسم منحنيين ليصب بعد ذلك في النيل الأبيض حيث في ملتقاهما تقوم مدينة الخرطوم ، وهذا النهر إبان فيضانه صيفاً يحمل مقادير عظيمة من الماء مختلطاً بمختلف ذرات من الصلصال ، وأخرى معدنية من الهضاب الحبشية . وهذا النهر هو الذي يحفظ

منسوب النيل عالياً مدة الصيف، ويعطى هذا اللون الأحمر للنيل مدة الفيضان في ذات الوقت. ومن سنة ١٩٢٥ بعد بناء خزان مكوار يقوم هذا النهر برى السهول العظيمة الواقعة بينه وبين النيل الأبيض المعروفة بأرض الجزيرة، حيث اهتم الإنجليز بزراعة ثلاثة ملايين فدان بواسطة شركات غنية أعظم من أى شركة أو نقابة زراعة قطن بأمريكا. ومن هذا يمكننا أن نستنتج أن بحيرة تسانا والمنحنيين للنيل الأزرق وكلها واقعة في الأراضي الحبشية، تكون الخزان الطبيعي للياه اللازمة لمصر والسودان إذ يتوقف على فيضان هذا النهر وكمية الماء السائل فيه والطمي المخصب المأخوذ من تربة جبالها البركانية، ثروة وادى النيل القطنية في مصر وسودانها.

وفي الحقيقة يرى أن الرأس طفرى عاهل الحبشة يهيمن على هذا الخزان الطبيعي الهائل، بل بيده (مفتاح الرى) أو (مفتاح الحياة) لهذه الاقطار، كما كان بيد فراعنة مصر الذين كانوا قياصرة الودى دون شريك. ولا يزال رمز ذلك المفتاح شاخصاً للأبصار بأيدي أولئك الفراعنة العظام بمختلف المعابد والآثار. وإن الخزان الذى يعمل عند مسير النيل من بحيرة تسانا يسمح بحجز جزء عظيم من مياهه، كانت تذهب بدون الارتفاع بها، وتذهب سدى دون أن يفيد السودان أو مصر منها. فهذه الأعمال الهندسية الادروليسية تزيد من أهمية تلك القلعة الحبشية المائية، وتقوى سلطة رقابة من بيده ذلك المفتاح «مفتاح الأمن والحياة» - أى الرأس «طفرى» مكونين الذى يكون بيده حياة القطن المصرى.

وسيشمل المقال التالى العراك القائم على بحيرة تسانا بين غزالى
مانشستر ونيويورك وكلمة عن هيمنة أوغندا أو منابع النيل الاستوائية
على مياه النيل .

من المهيمن على مياه النيل؟

بحيرة تسانا بين غزالى مانشستر ونيويورك

(الأهرام ٨ نوفمبر سنة ١٩٢٨)

- ٢ -

لا تقبل إنجلترا مركزاً كهذا ، وأن تكون بحيرة تسانا وما
يعمل عليها من أعمال ادروليكية بغير هيمنتها . وأن وضع
إنجلترا مصر تحت شبه وصاية كما يقول الكتاب الفرنسيون
ورجال السياسة بالرغم من تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ المقول فيه
باستقلال (مقيد بتحفظات) مما جعله فى حكم السيادة والسيطرة ، وتقيد
حرياتها ، حتى أن حاكم السودان رفض إعطاء أى بيان عن شبه
الضريبة التى ضربتها إنجلترا على مصر لقوة الدفاع السودانية وتدرج فى
ميزانية وزارة الحرية البالغ قدرها ٢ مليون جنيه تنفيذاً البادة (١٧)
من مشروع اللورد كيرزون المقدم لصاحب الدولة عدلى يكن باشا
فى ١٠ نوفمبر سنة ١٩٢١ مقابل تعهد بريطانيا بضمان نصيب مصر
فى مياه النيل كأنها تدفعنا ثمناً لمياه النيل أو على الأقل (جمرك ترانسييت)
لمرور المياه الواردة إلينا من السودان أملاك أجدادنا الفراعنة
والعرب حرة !!!

الماء ماء أبي وجندى ونبعى مذ حفرت ومذ رويت
فكأنها ضمت السودان فعلا إليها بإلغائها الحكم الثنائى لصالحها
وما كانت مصر ولا تركيا ولا الدول المختصة أقرت معاهدته الباطلة
(اتفاقية سنة ١٨٩٩) فأقامت من الأعمال الهندسية الكبرى بمختلف
جهات : نجران مكوار على النيل الأزرق وقناطر كسلا على نهر الجاش
والخط الحديدى الذى مد عام ١٩٢٤ بالجيش المصرى قبل إخراج
ووصل كسلا (بتاييم) على خط السكة السودانية بين بور سودان
وعطبرة على سكة الحديد النيلية التى مدت جميعها بفلاحى مصر
وأموالهم ، والتى كلفت مصر مع مرفأ بور سودان أربعة ملايين ونصفاً
من الجنيهات ، وتلك المنشآت فى المناطق القطنية لزيادة عمارتها وإنمائها
ونقل محصولاتها والمشروعات الكبرى التى تدرس لعمل خزان على
بحيرة (ألبرت) والنيل الأبيض وغيرها من المشروعات لتحسين
حالة الرى ، كل ذلك من خزينة مصر ، ترى منه أنه لفائدة لنكشير
الساعية إلى تحويل السودان بإكثار مساحات القطن فيه لتغذية مغازلها ،
إلى مصر أخرى قطنية .

ولما كان خزان (تسانا) يقضى على هذه الآمال إذا لم تتول
انجلترا الرقابة عليه ، لذلك فكرت انجلترا فى ضرورة هذه الرقابة إذ
عقدت من ربع قرن (١٩٠٢) مع الإمبراطور (منليك) معاهدة تنص
على أن الأعمال الهيدروليكية (الأعمال الهندسية المائية) التى يفكر
فى عملها فى أعالي النيل الأزرق ، يلزم أن تكون باتفاق الحكومة
الحبشية والسلطات الإنجليزية والمصرية . ولما كان الإنجليز ليسوا فقط

هم الذين يحتاجون إلى قطن المنطقة الشمالية الشرقية بإفريقيا ، ولكن هناك أيضاً أمريكان الولايات المتحدة التي بلادهم أكثر بلاد العالم زراعة للقطن ونساجيه ، يطالبون أيضاً بنوع القطن المصرى ذى التيلة الطويلة ، إذ من هذا النوع فقط يتسنى لهم نسج الأقمشة القطنية العالية ومنسوج قماش الكريب ، وخصوصاً غلافات الأنابيب الهوائية لعجلات الأتومبيل وغلاف أجنحة الطيارات التي تتطلب نوعاً جيداً من نسيج القطن يعمل على مقاومته ، وأن الصناعات القطنية وصناعة الأتومبيلات بالولايات المتحدة تتوقف إلى حد ما على محصول القطن بوادى النيل .

لأجل ذلك نرى أن مصالح الأمريكان الخاصة تقضى عليهم بأن يتبوأوا مكاناً عالياً على بحيرة تسانا مساعدين الرأس طفرى على صنع « المفتاح الحبشى للرى » فى السودان ومصر ، ليتحكموا بذلك دون انجلترا الفاصبة فى حق مصر فى ذلك فى مختلف الحيوانات والسدود المقامة من مكوار إلى القناطر الخيرية وبذلك يضمّنون القطن ذا التيلة الطويلة الذى يحمله النيل الأزرق فى ثنايا مياهه من مبدأ ينبوعه الحبشى .

لهذا كانت بحيرة تسانا كذلك منبع النزاع بين القوتين الصناعيتين الهائلتين لمنشستر ونيويورك ، ولا بد أن يتقابل ملوك القطن من وراء الاطلسنطيقى والبحر الأبيض المتوسط لتتشب موقعة يتقاذفون فيها بملايين الدولارات والجنيهاً والامدادات السياسية الدبلوماسية الكبرى لإقامة صرح بمرد (مائى) على تلك البحيرة التي يحكمها ومفتاح قلعتها المائية بيد أمير حبشى .

ومن هنا يتبين أن المسألة المصرية ازدادت عقدة بالتنافس
الأمريكي الانجليزي للهيمنة على خزان تسانا ، وأن انجلترا لا محالة
واصلة إليه تمسكا باتفاقية سنة ١٩٠٢ ولو كلفها ذلك التنازل للحبشة
عن مرفأ يوصلها إلى البحر وتسليمها ثغر زيلع في الصومال على
خليج عدن (الذي أخرجت منه الجيش المصرى سنة ١٨٨٤)^(١)
واحتلته مع ثغر بربرة وأنزلت العلم المصرى ورفعت العلم البريطانى)
مقابل هيمنتها على منبع النيل الأزرق ، كما هى مهيمنة على منبع النيل
الابيض فى أوغندا التى احتلتها وباقى مديرية خط الاستواء
سنة ١٨٩١ بعد أن أخرجت قوة أمين باشا مديرها باسم الشركة
البريطانية الشرقية الافريقية لتتحكم فى مصر أبداً ولا ينجلي جيشها عنها .
ولقد تنبأ المسترديبوى إلى تلك المشكلات السياسية وما يلزمها
من مختلف الوسائط الدبلوماسية وغيرها وأشار إلى متعدد الصعوبات
التى تعترض تنفيذ هذا الخزان الذى به تسع البحيرة ثلاثة آلاف
مليون متر مكعب حينما يكون مطرها معتدلاً . وإليك ما يقوله
عن المشكلات والمصاعب السياسية فى مقاله عن بحيرة تسانا وأنهار
السودان الشرقى ضمن كتاب السير ولیم جارستن مستشار نظارة
الأشغال العمومية (كتاب الدليل فى موارد أعالي النيل ص ٦٠٩) :
« إننا قد ألمعنا فى هذه المذكرة من وجهة التصميم إلى المشاكل السياسية
التى تعترض سبيل إقامة وصيانة عمل من الأعمال يراد منه إدارة
أو تحكم فى استخدام مياه البحيرة والارتفاق بها ، وعند التخصيص
(١) السنة التى غادر فيها محبوب وهو طفل مسقط رأسه فى السودان كما قال للوف

والتفصيل يقتضى التيقظ والانتباه الكلى لئلا تبأشر مثل هذه الأعمال قبل تسوية المفاوضات التى تقوم فى سبيل إجرائها تسوية سياسية ، ولا أظن أنه يصح الاعتماد والتعويل على موالاته الأهالى وميوهم ولا يؤمل بمؤازرتهم . ولا خفاء أن تلك الأصقاع قليلة العارة وأهلها ذوو استقلال وأنفة لا يحفلون بالنزلاء إذ ينظرون إليهم بعين ملؤها الريب والظنون . أما الحاجات من الميرة والمؤونة إذا كانت بمقادير جزئية فهى رخيصة متى أراد القوم أن يبيعوها ، وأما جلب عملة فقد يكون غير ميسور فى تلك الأرجاء وبغير مؤازرة النجاشى ودياً ومناصرة الرؤوس المحليين ، وتأيد ذلك بشيء من القوة ، يكون العمل مستحيلاً على الإطلاق ، ولا يكون من الحزم والسداد النزوع إليه إلا بعد الاتفاق على الأمر من جميع وجوهه ونواحيه ،

وصرح « بأن الأمر يكون موجباً للأسف العظيم أن تخصص مصر لنفسها وسائل طبيعية يكون من ورائها إحياء أراضى السودان الذى يهم مصر كثيراً بدون الاستفادة من هذه الوسائل حق الفائدة » « دليل النيل للسير جارستن ص ٦٠٧ »

وهناك مفتاح آخر طبيعى للنيل موجود « بأوغندا » « أى بحيرات منابع النيل الاستوائية » أفضنا فى التسكلم عنه فى افتتاحية الأهرام فى ٩ يوليو سنة ١٩٢٠ تحت عنوان - للذكرى والتاريخ - مصر والسودان . أوغندا مفتاح النيل الطبيعى . دحض نظرية القائلين بأحقية ملكية بريطانيا لأوغندا وأعلى النيل ، دفع الإشكال بالمطالبة بـ منابع النيل الاستوائية ، نسكتفى منها الآن بتذكير مواطنينا بما قاله السير جريالد

بوزنال عن أوغندا بالكتاب الأزرق المنشور في ١١ أبريل سنة ١٨٩٤
 أى بعد إجلاء الجيش المصرى عن مديرية خط الاستواء بأربع سنين
 تقريباً حيث يقول: «أوغندا من الوجهة السياسية هى أقوى إقليم فى
 إفريقيا الشرقية إذ أن منابع النيل فى قبضتها وتحت رحمتها (ومسألة
 أوغندا ومركزها فى مصر لا ينفصلان عن بعضهما)، إذ أن كل من
 يكون فى قبضته أعلى النيل يتحكم بالتالى فى مصر كما يشاء ويختار، فيجر
 عليها الويل والدمار بمنع الماء عنها، ونظراً لتطور إفريقيا الحالى ليس
 من السهل التسليم بأن أوغندا، وهى المفتاح الطبيعى لوادى النيل، ومن
 أغنى أقاليم إفريقيا الوسطى، تبقى بدون بسط حمايتها عليها»

وليك ما قاله الكولونيل السير كولن منكريف وكيل نظارة
 الأشغال العمومية سابقاً من خطاب له فى المجمع اللغوى المملوكى (أول
 أكتوبر سنة ١٨٩٥): «إذا ما وضعت أمة متمدينة يدها على أعلى النيل
 فبطبيعة الحال ستقيم سدوداً فى سدود فكتوريا نيانزا (النيل) لتنظيم
 مائه وضبطه، كما تنظم منشستر قناة (منشستر - ليفربول) إلى
 ليفربول. وتلك أعمال سهلة الاجراء إذا ما حققت مرة فما يجرى
 فى النيل من الماء يكون وفقاً لرغبة هذه الأمة المحتلة فإذا ما جَرَّ سوء
 الحظ مصر التعسة لحرب مع هذه الأمة، فإنها تكون عرضة للفرق
 أو للجدب والقحولة حسب ما يشتهى خصمها وغريمها».

وأختم أقوالى بأبيات استدعاها ونطق بها لسان الحال
 التى نحن فيها الآن وماعرض أخيراً وقبل ذلك فى السنين الأخيرة
 من الانجليز بالاكْتفاء «بضمان الماء» والسكوت عن السودان فى

مشروع اتفاقياتهم المعروضة كسأ لأفواه المتخربين (١) والمتقولين
علينا الأباطيل بأننا تفاضينا عن ذكر السودان في حين أن مضابط
مجلس النواب تدحض تقولاتهم ومهازل مفترياتهم بتلك الآيات
الآيات .

يقولون إني قد تناسيت ذكرها
لعمري هذا في الفروض بعيد
وكيف التناسي واعتقادي أنني
إذا صح هذا غادر وجود
ولو قلدوني دون ذلك إمارة
لأنقض عهدي قلت لست أريد
فكيف وشريان الحياة « بحلفة » (٢)
وفي « أم درمان » لمصر ويريد
« فكتوريا » و « ألبرت » بعدها
هما « جبال الأولياء » « سدود »
وفي أرض السودان كرام أعزة
أعاريب بيض أو أشاوس سود

(١) يقصد أولئك الذين كانوا يحملون على الدكتور من الصحفيين
المأجورين من بعض الزعماء الذين ارتفعوا على أكتاف الدكتور، وأمثاله
من الوطنيين، ومن هؤلاء الزعماء أو المتزعمين من توسط لهم محبوب
لأجراء مرتب ضخم، فتأمل نكران الجميل .
(٢) حلقة مدينة على النيل مشهورة ولد بها المؤلف .

يقولون لا تخشوا على الماء حُبسة
ففيه زيادات لكم وورود
فكيف ودعوى بالقناة^(١) زعمتمو
وإن وشجت منكم لمصر عهود
فلا أمنَ مالم تحمه مصر حرة
وتحقق رايات لها وبنود^(٢)

(١) القناة : قنال السويس التي يتشبث بلزوم حراستها الانجليز
بجيوشهم فلا يقبلون عن ذلك بدلا حتى ولو لحليف مع أن أساليب
الحرب الحديثة لا تقر هذه الدعوى ما دامت البحرية البريطانية خير كفيل
لحماية مواصلاتهم .

(٢) لم يكن محجوب يقرض الشعر ولكنه نأى بهذه الأبيات على السليقة يعبر
بها عن تمسكه بالسودان الجزء المتمم للوطن المقدس .

الدكتور محبوب يقدم الشيخ عبد العزيز جاويز

إلى مصطفى كامل باشا

حدثني العالم والمصلح الاجتماعي الشيخ محمود أبو العيون - وهو من أبطال الحركة الوطنية وخطبائها الذين اعتقلوا وشردوا - قال : « إن للدكتور محبوب ثابت ماضياً طويلاً في مناصرة الحزب الوطني ، فكان الوطني منذ نشأته ، وهو طالب ، ثم وهو في عنفوان شبابه ، ثم في كمال رجولته ، ثم إلى أن تقدمت به السن حتى لاقى ربه الكريم ، وله مواقف وطنية ومساهمة مسجلة في صفحة مصر الوطنية مع المغفور له مصطفى كامل باشا مؤسس الحزب الوطني الذي أسمع صوت مصر المدوي للخافقين » .

ثم قال : « أذكر لك ما قد يغيب عن ذاكرة الكثيرين بل إن الكثيرين لا يعرفونه ، وهو أن الدكتور محبوباً هو الذي قدم المغفور له الشيخ عبد العزيز جاويز إلى المغفور له مصطفى كامل باشا حينما استشاره واستطلع رأيه فيمن هو جدير بأن يتولى رئاسة تحرير « اللواء » بعده ، وذلك حينما شعر بأن قواه قد هدها الجهاد ، وأنه يدنو من الموت فكان لإشفاقه على إكمال رسالته

الوطنية ، وحرصه على مستقبل وطنه ، أكثر مما كان يفكر في صحته وتعلقه بحياته من أجل ذاته . . . وقد كان الشيخ عبد العزيز جابوش حين رشحه محبوب عند مصطفى كامل لرياسة تحرير « اللواء » ، في بعثة علمية بالانجلترا وهذا مثال ، بل آية على ما كان للدكتور محبوب من قدر وطني كفل له الثقة الممتازة عند مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية الثانية بعد أحمد عرابي .

عطف الدكتور على عبد الفتاح عنايت

في سجنه

لم ينس الدكتور محبوب أحداً من الذين سجنوا في الحركة الوطنية أو الذين ذهبوا ضحية فكرة سياسية بريئة في الدافع لها ، فكان دائب السؤال عنهم والاستعداد لمعاونتهم بقدر طاقته ، بل فوق طاقته . . فقد كان لكل مجاهد في الحركة الوطنية وضحاياها نصيب موفور من عنايته وعطفه وبذل شتى المعاونات له .

ونذكر هنا على سبيل المثال ، أن الدكتور محبوباً قد ذهب مع طلبة المعهد الجنائي في دراسة علمية إلى ليمان طره لتطبيق بعض الحالات في علم النفس والشذوذ العقلي على المجرمين . وهناك التقى الدكتور محبوب بالأستاذ عبد الفتاح عنايت الذي طوحت به حادثة السردار إلى السجن ، وقطعته عن مستقبله الدراسي في كلية الحقوق ، فما أن التقى به الدكتور محبوب حتى أخذ الحديث بينهما شجونه وشعوبه . فبدت له رغبة عبد الفتاح عنايت

في إتمام دراسته للحقوق ، وهو في سجنه ، فأعجب الدكتور محبوب بهذه العزيمة الصامدة الصابرة . وما أن وصل إلى الجامعة في اليوم التالي حتى كان أول نشاطه واهتمامه ، اتخاذ الإجراءات وتمهيد الوسائل لتمكين عبد الفتاح من أداء امتحان النقل إلى السنة الثالثة الحقوقية ، على أن يواصل الدراسة حتى ينال إجازة الليسانس ، وقد تم له ذلك بموافقة الجامعة وموافقة مصلحة السجون (بواسطة محمد حيدر باشا مدير عام مصلحة السجون) .

ثم أخذ الدكتور محبوب يعد له سبيل الحصول على الكتب التي يحتاج إليها في سجنه .

وقد كان لمسعى الدكتور محبوب نتائجه العملية ، حين رأينا عبد الفتاح عنايت قادماً من ليمان طره ليؤدي امتحانه حتى أحرز إجازة الحقوق ، وكان لا يزال على ذمة السجن الطويل المرهق ... وكم للدكتور محبوب من أياد بيضاء على كثيرين من الطلاب الذين كانوا يعجزون عن مواصلة دروسهم ، فكان لهم منه العون الأبوي الصادق . ولم يكدر بالمن جيلاً زرعه لأحد ...

على أننا نذكر أن بعضهم قد لفت نظر الدكتور محبوب إلى ما في معاوته لعبد الفتاح عنايت من تقوّل وتساؤل بالنسبة للجريمة المعروفة ، فكان جوابه : إن هذا عمل إنساني بحث لا دخل له ولا علاقة بأصل الجريمة ولا بدوافعها . وأنا لم أكن يوماً ما من مجبذى الوطنية المصحوبة بمثل هذا العمل .

والآن نختتم الجزء الأول من كتابنا ، ونقدم الجزء الثاني منه
وهو يحتوى على ترجمة خاصة بحضرة صاحب الجلالة (فاروق الأول)
وترجمة أخرى للبغفور له الملك (فؤاد الأول) وتراجم بعض
الشخصيات التى اتصل بهم الدكتور محبوب أثناء دعوته للحركة
الوطنية ، ويحتوى أيضاً على الأسرار التى اكتنفت وصاحبت مأساة
٤ فبراير سنة ١٩٤٢ .



جلالة الملك

❦❦❦

الجزء الثاني

❦❦❦

تراجم بعض الشخصيات

1 2 3 4 5 6 7 8 9 10

11

12 13 14 15 16 17 18 19 20

21 22 23 24 25 26 27 28 29 30

الملك فاروق الاول

لما سألت الدكتور محبوب رأيه في جلالة الملك فاروق، قال:
 « ذكاه طبعى ممتاز ، وبعد نظر، ومعرفة تامة باقدار الرجال في
 ملكه ، إمام تام بما يجرى في مملكته ، تشرفت بمقابلته عقب
 عودتي من أوربا في بعثة رياضية ، وقد تأخرت في الحضور عن
 الميعاد المحدد ، فاغفر لى جلالتة هذا التأخر بواسع حلمه ، حتى
 شعرت بأن تأخرى قد أزعجى إلى العطف الذى سر نفسى ، فكنت
 كمن يتمنى نيل الرضا بذنب يرتكبه، فلما تشرفت بالحديث مع جلالتة
 دهشت من وقوفه على تاريخ حياتى وإمامه بكل أحوالى ، ولما
 سألتى عن رحلتى ، قلت لجلالتة : كانت الرحلة يامولاي جميلة ، غير
 أن أبناءكم الطلاب كانوا حيال بعض البلقانيين كالأقزام من فرط
 طولهم الجسمانى . فقال لى جلالتة على الفور مداعباً ومتلطفاً :
 « الحق عليك يادكتور ، . . .

فلما وجدنى قد أخذت وارتبكت، تداركنى مستطرداً ومبتسماً :
 « نعم الحق عليك يادكتور ، لماذا لم تلبسهم طرايش طويلة، وقبعات
 عالية ، وأخذية بكعوب مرتفعة ليحصل التوازن فى الطول بينهم
 وبين الطلاب البلقانيين ، . . . عندئذ تأكدت، وأنا فى حضرة
 جلالتة ، أن مولاي سريع الخاطر، يعرف مواطن الدعابة ومواقف
 الجد، كلا فى أوانه وأحواله . وإنه ، إذ كان يتلطف ، كنت ألمح على أساير

وجهه الكريم هموم الملك ، وأشهد أن مولاي الفاروق سريع
الخاطر ، مؤاتي البديهة ، يجمع بين توثب الشاب الفائر الطموح ،
وحكمة الشيخ المجرب ، سيصبح نابغة الملوك ، وسراج الشرق المنير وهاديه .
إني عشت في أوربا ، ودرست نفسية الشعوب الأوروبية ،
ولكني يا بني لم أر ولي عهد قد ظفر بحب الشعب كما يظفر الفاروق
بحب أبناء مصر وسودانها ، والسودان ومصره ، كما أني لم أر ولي عهد قد
أحبه الشعب ، بعد أن أصبح ملكاً وأمسى حاكماً وأمراً ، كما أحب
أبناء النيل الفاروق ، بل قد أحبه الشرق كله .

وإني أذكر لك : أنني حينما توجهت إلى السودان ، مشقة
رأسي^(١) ، وأول أرض مس جسمي تراها ، واكتحلت عيناى
بمرأى ربوعها ، كان أول سؤال وجهته إلى فتاة سودانية : « كيف
حال الفاروق .. ربنا يحميه . انت تنظر (تنظر) الفاروق يا دكتور ؟ ،
فأجبتها متبسطاً : « أى نعم ، . . فقالت : « يا بختك ، أنا مرادى
أروح مصر ، واشم هوا مصر ، وأشوف الفاروق .. لكني أخاف
أن يمنعني العسكر » .

بهذه العبارات الساذجة البريئة ، عبرت الغادة الجنوبية عما يكمنه
قلبا من حب للمليكة .

ثم قال : « لمست في أبناء السودان ذكوراً وإناثاً وشباناً وكهولاً

(١) ولد الدكتور محجوب بدنقله . وكان والده المغفور له احمد ثابت بك
رئيس أركان حرب الجيش المصرى بالسودان ، وكان يجمع بين الثقافتين
العسكرية والهندسية .

وشيوخاً ، إنهم يحبون الفاروق حفظه الله حباً يفوق العد ، ويربو
على الحصر ، فوق ما كنت أعتقد وأقدر ، وأن صدور الأمر الكريم
بتعيين النجوى ياوراً ، كان له أبلغ مظاهر الاغتياب في السودان .
ولاذ لاحظت أن الدكتور كاد يشعب حديثه قلت له :

— أريد رأيك في الفاروق ؟ ..

فقال : — قال لي سعد باشا رحمه الله : « حينما تشرفت بمقابلة الملك
فؤاد ، هلّ علينا ولي العهد « الفاروق » ، هاتفاً : « يحيا الوطن ،
يحيا الاستقلال التام ، تحيا الحرية » فانعد لساني إعجاباً وشعرت
أن قلبي يكاد يطير فرحاً واغتياباً بحيث لا يمكنني أن أصف ما اعتراني
من الغبطة . غير أنني بكيت بكاء الحبور والسرور والاستبشار ، فإذا
بالمملك فؤاد يقول وهو متأثر : « أتعرف سعداً ؟ هذا هو سعد » — وأشار
إليّ — فإذا بالفاروق يعانقني ، وعندئذ ، أحسست بما لا أستطيع أن
أصوره أو أصفه لمدي تأثرى ومبلغ استبشارى بهتاف ولي العهد اليافع
الذي عبر عن الوطنية السامية بأبلغ معانيها ، فلم يسعني إلا أن قلت لجلالة
المملك فؤاد : « إن أمة ينادى فيها ولي عهدا ومناط آمالها بما ينادى به
أبناءؤها بالاستقلال وبالحرية لا بد أن تصل إلى الاستقلال عاجلاً
أو آجلاً . حرسه الله يامولاي وجعله الفاروق بين الحق والباطل . سيجيء
اليوم الذي يصبح فيه الفاروق ملك النيل ومرشده وهاديه وموئله » .
هذا ما قاله لي سعد يا بني ، استرجعته ذاكرتي ساعة تشرفي بمقابلة
الفاروق ، أرويه لك عن سعد .

وحينما وقعت مأساة ٤ فبراير ، تلك الجريمة التي لا تغتفر ،
والجرح الذي لا يندمل ، كان الدكتور محبوب ثائراً ، وغاضباً غضباً
مصحوباً بالألم ، لما مسّ رمز الكرامة الوطنية ، وعنوان عزة الوطن .
ففي يوم ٥ فبراير سنة ١٩٤٢ ، كاف - الدكتور - المؤلف بالتوجه لمقابلة
اسماعيل صدق باشا وأحمد ماهر باشا وأوجب عليه أن يفضى إليهما
بما ذكرناه في ترجمة اللورد كيلرن .

حب الوطن صفة من صفات الفاروق

وقال : إن حب الوطن يا بني هو من أخص صفات الفاروق ، يمتزج
بدمه وروحه ، وينساب في كل جوانحه . إنه يا بني استهل جلوسه على
عرشه بالتنازل عن جانب كبير من مخصصاته عن طيب خاطر ، وغشيان
المساجد وأداء الفرائض الدينية ، ليكون القدوة الحسنة لأبناء الشعب .
ولقد رأيت بعيني رأسى طلاب الجامعة يقتدون بمليكمهم في أداء
فريضة : الصلاة ، والصوم . وكان عجباً أن حاول بعض الزعماء
بواسطة أحد أعضاء مجلس الوصاية أن يحول بين الفاروق وبين أداء
فريضة الصلاة أيام الجمعة في المساجد ، ليتفرغ لدروسه ، يتزود بها لأيامه
المقبلة ، وكانت النصيحة غير مقصودة لذاتها ، إنما كان الهدف الذي
يرمى إليه من أوفد عضو مجلس الوصاية هو تضرر ذلك المتزعم من
إقبال الشعب على رمز مجده ، وإيثاره بالحجة . فلما توجه العضو لمقابلة
أحد أفراد الحاشية للتحدث معه بشأن تلك النصيحة الماكرة ، إذا به
يفاجأ بالقول : « لسنا في حاجة إلى النصائح المشوبة ، وليكن في علمك

وعلم موفدك ، أن مولاي ومولاكما ، قضت إرادته السامية بأداء
فريضة الجمعة تعبداً ، ثم ليكون قدوة لأبناء رعيته ، إذهب بسلام ،
وقل لموفدك : لا شأن لك في هذا وقف عند حدك .

ولما سألت الدكتور : « ما الذى كان يضير ذلك الذى حاول
أن يعمل على أن يعدل مولاه عن أداء فريضة صلاة الجمعة ؟ » .
أجاب : « إن ذلك الرجل الذى درج على اتخاذ حناجر المأجورين
أبواق إعلان له في ذهابه وجيئته قد فت في عضده حب الشعب
للمليكة العتيد ^(١) ، واستقباله أنى شرف بأشد مظاهر الحماس ، وبجميع
ضروب الولاء ولا سيما طلاب الجامعتين : الجامعة الأزهرية وجامعة
فؤاد الأول ، لما رأى هذا الولاء المصحوب بالحب ، حاول أن
يحول بين سيده ومولاه ، وبين أداء الفريضة بتلك النصيحة الملتوية ،
وذلك أنه في الوقت الذى كان يجعل نفسه فيه رهن إشارة الأجنبي حيناً
ويستعديهم على الوطنى الأول حيناً آخر ، قد رأيناه يعمل على أن
يكون محل إعجاب الشعب وموضع ثقته ، فإذا لم يظفر بكل ذلك
راح يستأجر من ينادى بحياته ، وينعق بوطنيته ، نعيقاً مقروناً
بالرقص (نريد الزعيم) ، فيخرج إليهم وقد انتفخت أوداجه ، وهو
في زهو الديك ، وإعجاب الطاووس ، وبعد أن يخدع نفسه يقول لهم :
أتريدون أن ترونى وأنا مائل في قلوبكم ، وفي حدقات أعينكم ؟ ،
ثم يقول لهم : « بصفة كونى زعيم الأمة أرحب بكم ، والأمة ترحب
بكم ، والدليل على ترحيب الأمة بكم ما تشهدونه على أسارى وجهى . »

(١) العتيد ، أى : الجديد .

إلى آخر هذا الكلام الذى تضيق له الصدور وتخنق له الأنفاس .
 وقال الدكتور : « سأقول لك ما تعلمه وتفهمه أيها المتخاثر
 والفاهم الذى يقف موقف المتسائل المتجاهل ، إنه يريد أن يكون
 حب الشعب وقفاً عليه ، على الرغم من دجله وشعوذته ، فإذا سمع
 هتافاً بحياة غيره ، يحزن ، ولو كان الهتاف بحياة سيده ! .. ومركب
 النقص فيه هو أن النداء بحياة غيره معناه الهتاف بسقوطه ،
 فاعجب لهذا الرجل الذى يخرج على الوطن ، ويحرج الوطنية ، ويتراعى
 فى أحضان الأجنبي .. وإلى جانب موبقاته يريد أن يكون : رمز
 الوطنية ، وكبير الزعماء وعظيم العظماء .. يابى ، إن كان هذا
 الرجل عاقلاً ، فكانه السجن بعد المحاكمة ، أما إذا كان غير عاقل
 فوضعه مستشفى الأمراض العقلية ، .

وقال بعد كلام كثير جداً : « أما أنه بعد أن كان يسعى لدى
 الأجنبي ، راجياً ، وملحاً فى الرجاء أن يعمل على أن يحول بين
 الملك ، وبين مباشرة مهام ملكه إلا بعد بلوغ السن الذى كان يريده
 بحسب السنين الميلادية لا الهجرية ... ثم يحىء بعد ذلك بسنين
 بموجب تبليغات وعلى أجنحة الدبابات فى ظلام الليل الدامس ويدعى
 الوطنية فهذا لا يطاق ، .

* * *

حفظ الله الفاروق ، وأحاطه بالأوفياء المخلصين ، وكبت أعداءه ،
 ورفع أعلامه . ونصره نصراً عزيزاً .. آمين .. آمين .

المغفور له الملك فؤاد الاول

لما سأله رأيه في المغفور له الملك فؤاد . قال : — كان الملك فؤاد ملكاً عظيماً ، قد وصفه شوقي بقوله :

وكم شر حسمت وكم بلاء وكنا لا نرى لها انحساما
حقاً إنه حسم الكثير من الشر يبعد نظره ، وتوقيه مواطن الخطر
في كثير من الأحوال ، وكم كان بعيد النظر ، ثاقب الفكر . لو كان
فؤاد ملكاً أوربياً لساد العالم بسياسته ، وعبقريته ، واتساع أفق عقله
وبعد نظره وحكمته .

قد تزعرع ابن اسماعيل ، وحفيد محمد علي ، في العز المقيم ، والشرف
التليد ، والخط المؤاتي ، والدهر المقبل ، رأى والده العظيم يكاد يصبح
أمبراطور الشرق كما قال شوقي : « وما اسماعيل إلا قيصر لو أنه وفق ،
والإسكندر لو لم يُخفق . ترك لكم عز الغد ، وكنز الأبد ، والمنجم
الأحد ، والوقف الذي إن فات الوالد فلن يفوت الولد » . وكما قال أيضاً
وهو يخاطب ولديه حين عبورهم قناة السويس في طريقهم إلى المنفى سنة
١٩١٤ م وتريا اسماعيل حشد الحافرين ، وقرب المسافة للسافرين . غير
وجه السفر ، وقيل بلغ غاية الظفر ، وقيل قد وقع الحافر فيما حفر ،
عاش الملك فؤاد يا بني ، ورأى والده مُبعداً منفياً عن امبراطوريته
مغرباً عن ملكه بفعل مطامع السياسة الأوربية ودسائسها ، وبنوع خاص
الإنجليزية والفرنسية ، تلك السياسة الماكرة التي تتلخص في اقتسام

الشرق العربي السوء الحظ ، رأى الملك فؤاد كل ذلك في أوقات عصيبة ، ورأى أخاه الخديو توفيق يتراعى في أحضان الإنجليز الذين خدعوه بالنظائر بمظهر حمايته بادية ذى بدء ، فيأنس إليهم حيناً ، فإذا به يشعر ، ثم يرى في آخر الأمر أنه أصبح آلة في أيدي الإنجليز يستغلونه في تنفيذ سياستهم الملتوية وفرض نفوذهم . ثم إذا به يتنبه ، ولكن بعد فوات الوقت ، فاستيقظ من نومه العميق ، حينما تلقى إنذاراً انجليزياً يحتم عليه وعلى حكومته أن يكون محامو المغفور له أحمد عرابي باشا من الإنجليز ، وإذا لم يقبل وتقبل حكومته ، فإنه يتحمل التبعة^(١) .

جلس الملك فؤاد على عرش جده وأبيه ، بعد أن رأى مأساة والده وأخيه وابن أخيه عباس الثاني ، ثم موقف أخيه السلطان حسين مع « ونجت » ، ممثل إنجلترا في مصر . وبعد أن رأى تلك العبر والعظات من حوادث الدهر وتقلبات الزمن . . . جلس على العرش بعد أن أخرج المغفور له حسين رشدي باشا كما أخرج أخاه السلطان حسين الذي كان رافضاً تولى العرش ،

(١) لما طلبت الحكومة الانجليزية من النظارة - أى الوزارة - المصرية أن يكون محامو عرابي باشا من الإنجليز ، اعترضت الحكومة المصرية وردت بقولها : إننا نفضل أن تأخذوا عرابي وتحاكموه ، من أن نسلم لكم بأن يكون محاموه من الإنجليز . فأرسلت الحكومة الانجليزية إنذاراً إلى الحكومة المصرية تقول فيه : « ليس هذا أو ان معارضة الحكومة المصرية ، وإذا لم يُجبَّ طلب الحكومة الانجليزية فإنها تتحمل التبعة ، وكذلك الخديو ، . فما أشبه الليلة بالبارحة ، أليس هذا التبليغ كالتبليغ الذي قدموه إلى مصر في ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ؟

وقد قيلَ مرغماً حينما علم بأنه إذا لم يقبل ، فإنهم سيجلسون هنديةً من أقيال الهند على عرش مصر وهو « أغا خان » . عندئذ جلس السلطان على العرش حقناً للدماء ، وحفظاً لعرش آبائه .

ثم قال : « أنجب فؤاد لمصر « الفاروق » الذى سيكون - إن شاء الله - الفاروق بين الحق والباطل . وأقول إن الله تعالى قد أراد الخير لمصر بأن ينجب الأسد شبلاً ، وفؤاد فاروقاً ، وهو فى سن اليأس . وإنى أقول دائماً لم يكن ذلك وليد المصادفات ، إنما هو لخير قضت به إرادة الله لمصر ، فكان الفاروق أركى نبات الوادى . »

دخل المغفور له الملك فؤاد الأول على المدرس الإنجليزى الذى كان يدرس لولى العهد « الفاروق » . وبعد أن أنصت إلى الدرس هنيهة قال للمدرس : « إنى أراك تكثر من إعطاء الدروس الديمقراطية للأمير ولى العهد » فأجاب المدرس بقوله : « إنى أراه بطبعه ديمقراطياً ، محباً للديمقراطية ، وهذا من حسن حظّه ، لأنه يريد أن يسبق زمنه ، وهو خير له حتى لا يسبقه الزمن » . فسرَّ الملك فؤاد من إجابة المدرس الإنجليزى (١) .

حقاً يا بنى إن ولى العهد بالأمس ، ومليكننا اليوم فاروق الأول قد سبق زمنه فى الديمقراطية ، وحب الوطن قد امتزج بدمه الطاهر منذ نعومة أظفاره ..

(١) إنى أثبت هنا عبارات الدكتور محبوب بنصها .

ثم قال : إن المغفور له الملك فؤاداً كان يرهق سياسة إنجلترا بعبريته السياسية وإحراجها لسياستها ، وكان يعيث بأغراضهم بذهنه الجبار . وواسع أفق تفكيره . ولو كان ملكاً أوربياً لساد العالم في زمننا هذا . ثم أخرج من مكتبه جريدة انجليزية ، وقد نشرها بين يديه ، وهو يقول : « هذا ترجمة ما قالته هذه الجريدة الإنجليزية . وقد قالت حقاً » .

اسماعيل صدقي باشا

هو « كليمنصو » مصر ، بل يمتاز عندى عليه . وإنه لا يقل عن « بسمارك » . ولو بعث اسماعيل صدقي باشا في هذه البلاد في زمن تُعرف فيه أقدار الرجال بميزان سليم ، لكان له من الشأن أكثر من شأنه هذا ، ولحرص جميع أبناء الأمة على الاستفادة بنبوغه واستغلال عبقريته . وإنى أستطيع أن أقول إنه لم يصب في العالم كله زعيم أو عبقرى بما أصيب به اسماعيل صدقي من حسد الزعماء والمتزعمين له . ومع ذلك لم يحسد هو أحداً . ومن حقه أن يتمثل بقول القائل :

حسدوا الفتى إن لم ينالوا فضله

وليس بمحسود فتى وله ندى

تالله يا بنى ، لو لم يكن اسماعيل صدقي متسماً كرسى رئاسة الوزارة وقابضاً على أزمة الأمور في سنة ١٩٣٠ إبان تلك الأزمة العالمية ، لنسكت مصر بكارثة إفلاس شديد (١) . وإن

(١) راجع فصل الدكتور محجوب ومحمد محمود باشا

دستور سنة ١٩٣٠ الذى ظلوا يشوهونه ، لخير فى نظرى من دستور سنة ١٩٢٣ . وحسبى أن أقول : إن دستور صدقي ينص على أن نظر الطعن فى صحة نيابة النواب والشيوخ تفصل فيه محكمة النقض والابرار ، حتى يقطع السيل على أغلبية ظالمة من فصل خصومهم من مجلس النواب لإرضاء للشهوات الحزبية ، وانتقاماً من مخالفى رئيس أغلبية (كما حدث قبل دستور صدقي وبعده) .

وخلاصة القول ان المنصفين من أبناء هذه الأمة يعترفون بوطنية اسماعيل صدقي وبعده نظره وإن التاريخ سينصفه ، وسيقدره الأبناء والأحفاد بل بدأ الناس يفهمونه ، ألم يحمله طلاب الجامعة على الأعناق تكريماً ؟

الاستاذ محمد محمود جلال بك

وسألته عن الأستاذ محمد محمود جلال بك . فقال :

— رجل فذ فى الرجال . وهو من الوطنيين القلائل فى وقتنا الحاضر الذين أشربت نفوسهم حب الوطن ، وحب الخير للوطنيين . إنه كأستاذه مصطفى كامل باشا ومحمد فريد بك وطنية وغيرة . يستمد وطنيته من إيمانه بالله وتقواه ، ونظراته إلى المصرى نظرة مثالية عالية . أتاه الله من ثروة القوة النفسية ، مثل ما أتاه من بسطة فى المال ينفق منه فى سبيل الوطنية — وهو المؤمن بها — لا يرضى فى هذا السبيل مهما أنفق على الوطنيين وهو من الطراز العالى الممتاز طهارة وصلاحاً وعفة وسمواً بالنفس عن كل ما يشينها . تجلس إليه فلا تحب أن تفارقه . محبوب من كل الناس . وله عند أهل دائرته

الانتخابية التي يمثلها في البرلمان حق التمثيل مكانة ممتازة ، هو نجم
أضاء في منطقته ، وشمس في سماء الوطنية ، إنى أعلم أنه يقوم بنفقات
عشرات الطلاب من أبناء العائلات التي أخنى عليها الدهر سرا
ثم قال :

إنه عظيم الشفقة والبر بذوى القربى واليتامى والمساكين ، كثير الرعاية
لعماله ومزارعيه ومستأجريه يحسن إليهم ويبرهم . وله مواقف معهم
مشكورة في أدق ظروف التموين تخرجاً وضيقاً ، لم يحوجهم إلى طلب
القوت والسكساء من الحكومة ، فقد كان يوزع عليهم من محصولات
مزارعه الواسعة ما يكفيهم ، ويمدهم بالآقشة ، يشبع جائعهم ، ويكسو
عاريهم ، وليس في مزارعه فلاح يفتش الأرض أو يلتحف السماء .
هكذا يعيش جلال للوطن ولأبناء الوطن . وله ناحية أخرى
يتميز بها ولا نظير له فيها ، فهو رباط قوى في توثيق العلاقات
بين شمال الوادى وجنوبه ، وله إلى الجنوب رحلة في كل عام
يجوب فيها ربوع السودان ، يتصل بكافة الطبقات ، يكرمونه
ويكرمهم ، لأنهم يحبونه وهو يحبهم . ويدرس في خلال تلك الرحلة من
أحوالهم كل ما كبر وما صغر ، لذلك تراه ملأاً بدقائق الحالة الاجتماعية
والمعنوية والوطنية عند الأشقاء الذين يحاول الاستعمار المبادعة
بيننا وبينهم بشتى الوسائل في نبل وشهامة وأريحية نادرة في هذا الزمن .
يفعل ذلك جلال بك بلا إعلان عن النفس ولا ضجة
ولا مباهاة . فهو مثال حى للتضحية في هذا السبيل بالنفس وبالمال
وبالجهد ، عرف حبه للسودان والسودانيين بما ليس فوقه مزيد ، حتى

لأنه يعتزم أن يزوج أحد أبنائه من السودانيات . وكفى بهذا تنويرها
لوطنية جلال ، وتقديراً له بين الرجال .

وسيدكر التاريخ لجلال أنه برلماني من الطراز الأول ، لا يحابي ولا
يحابل في المواقف الوطنية ، ولا ينحرف قيد أنملة عن مبادئ الحزب الوطني
لم يحابل يوماً زعيماً أو رئيساً على حساب الوطن داخل البرلمان أو خارجه .
وأقل من القليل هم الذين يجمعون بين الثراء والوطنية ،
والعلم . . . ولكن محمد محمود جلال جمع بين هذا كله يجمع في
شخصه بين الوطنية والإخلاص والكرامة والعلم ، والأريحية والشفقة
على كل وطني ، والمبادرة إلى الأخذ بيد الوطن في أخرج الأوقات ،
فهو وطنية وإخلاص ، وهو كرامة وعلم ، وهو أريحية وإحسان . . . وهو
شفقة بكل مواطن ، وهو المبادرة إلى الأخذ بيد الوطن في أخرج
الظروف ، لا يبالى بالمال ولا بالجهد ينفقهما في سبيل إخلاصه
وتمسكه بمبادئ الحزب الوطني . . . ولو أنه كان ممن يطمع في الجاه
أو المنصب لانضم إلى حزب آخر من الأحزاب ، ولكن في مقدمة
الوزراء وأرباب المناصب العالية ولكنه يسميهم كبراء الميزانية ، أى
أنهم كبراء بحكم المرتبات الكبيرة .

وهو دائماً يحيط نفسه بهالة من التصون الكريم ، فلا يحاول
أن يخلب بوطنيته ألباب العامة ، كما يفعل المتاجرون بالوطنية .

فهو وطني للوطنية ، كريم للكرم :
وليس الفخر مرتبة تلقى وتؤخذ من شفاء الجاهلينا
ولكن منتهى هم كبار إذا ذهب مصادرها بقينا

أحمد ماهر باشا

صريح جرىء ، شجاع صادق ، وطني مخلص ، حر الرأي
والفكر ، ينصف غيره ، وينتصف لنفسه .

طلعت حرب باشا

كان صديق طلعت حرب باشا طرازاً في مصر معدوم النظير ،
هو واضع الحجر الأساسى للاستقلال الحقيقى بإنشائه بنك مصر
وشركاته وفروعه . وبهذا قام بالعمل الجدى المجدى . أدى لوطنه
ما لم يستطع الزعماء أن يؤدوا مجتمعين في صعيد واحد جانباً مما
أداه وحده . إنك لن تستطيع أن تعبر أو تصور كيف أن طلعت
حرب قاوم وانتصر على محاربة أصحاب الشركات والبيوتات المالية
الأجنبية في مصر ، وكيف تغلب على مشبى الهمم من بعض المصريين .
وظلعت حرب - كما قال صديق الأستاذ الكبير محمد كرد على
بك الباقعة في معرفة الرجال - : « إنكم لا تستطيعون إيفاء طلعت
حرب ما هو جدير به من التقدير وعرفان الجليل ، حتى لو أقمتا له
تمثالاً من العسجد ، فلتقيموا تمثالاً من التقدير في كل قلب ، ليس
طلعت حرب بطل الاستقلال الاقتصادى وموجده فحسب ، بل هو
بطل الاستقلال السياسى أيضاً ، لو كان بجانبه آخر من طرازه لوصلت
مصر إلى الاستقلال الحقيقى وأنف الزمن في الرغام .

أمين الرافي بك (١)

ولما طلبت من الدكتور محبوب الإفضاء برأيه في الشخصيات البارزة من معاصريه ، كان اسم أمين الرافي بك صاحب جريدة «الأخبار» في طليعة هذه الشخصيات قال : «هو وطني قبل كل شيء» ، مخلص لدينه بقدر إخلاصه لوطنه ، لم يخط بقلبه إلا ما يعتقد أنه الحق المحض والصدق الخالص . كان يفادى بكل شيء في سبيل مبدئه الوطني وعقيدته ، وكان يؤدي أمانة القلم ولم يكن يأبه بشيء إلا لإرضاء ضميره وأداء واجبه ، وما كان يفرضه على نفسه من واجبات .

هيات هيات أن يهود الزمن بمثله في عالم الصحافة . كان أمين الرافي يرى أن الصحفي ما هو إلا المدرس للوطنية دون أن يتساهل في إلقاء هذه الدروس في شجاعة وأمانة . وقال : كان أمين أميناً لوطنه ، أميناً لرسالته . وظل كذلك إلى آخر نسمة من حياته .

عبد اللطيف الصوفاني بك

كان رجلاً اعتبره من المثل العليا للجهاد في سبيل الوطن ، أنفق ثروة طائلة في سبيل القضية الوطنية . كان جنةً لكل وطني ، ووقاية

(١) كان سؤال للدكتور محبوب عن رأيه في أمين الرافي بعد انتقاله إلى رحمة الله بسنين عديدة .

لكل مطاردين من الوطنيين، لم يكن للصوفاني ند في هذه الناحية .
لقد كانت له مخاض في جهات شتى وقرى مختلفة لإخفاء الوطنيين
عن أعين الرقباء والمطاردين .

محمود فهمي النقراشي باشا

هو سياسي بعيد النظر، صلب الرأى، إذا اقتنع برأيه لا يتحول عنه .
حر التفكير، نزيه، نظيف اليد . لم يحن لنفسه عن طريق
الوظائف فائدة، ولم يترك فرصة للتصلين به أن يستغلوه لفائدتهم
الشخصية، فيه شدة وصرامة في نظر الكثيرين، ولكن يحسن أن
نغتفر له هذا الشذوذ بجانب حسناته الأخرى وتاجها النزاهة، ولا
شك أننا في حاجة شديدة إلى نوعه من المشتغلين بالسياسة في زمننا
هذا الذي طغت فيه الاعتبارات المادية ودوافعها، والاعتبارات الشخصية
وعواملها، في هذا الوقت الذي انماعت فيه النفوس، وانحطت الأخلاق
وتجاوزوا فيه عن المثل العليا، ألا نغض الطرف من صرامته المحمودية ولا
سيما بعد أن طرد من النادي السعدي السخيل على الصحافة (م. ق. ع.)
حينما توجه في صحبة ضيف شرقي كان مخدوعاً فيه، ثم أنه قد طرد بعده
أيضاً (أ. ح. ١) ؟

العلامة محمد كرد علي بك

هو عالم تاريخي أمين في النقل والرواية، يعطى كل ذي حق حقه،
حبيب ومحبوب للفقراء، مشجع للمتعلين، عدو للبتاعظمين، محقق

للمتكبرين . وهو بعد ذلك شمس أنوف عيوف ، يكره الشهرة ، ويمقت الذين يحرون وراء الشهرة ، ويمعن في ردعهم ، ما دخل الحرام في يده ، ولا قبل من أكل الحرام ولا جالسه ، شفاف النفس ، بعيد النظر ، عبقرى الفكر ، يتأفف من المديح الذى يزجى إليه من المرئين ، غير أنه يقبل المديح من المخلص الوفى فى حياء . ينصف أصدقاءه وخصومه من الكتاب والأدباء على حد سواء ، يظل بعيداً عن الغرض الشخصى ، متائباً عن الهوى النفسى ، يضع كلا من لأصدقاء والخصوم فى مواضع الإنصاف التزيه . وهو بعد ذلك « نسيج وحده » فى تقدير الرجال ، بل قل : « فريد عصره » . ولقد كان حينما يعمل فى الصحافة من أساطينها ، أدى أمانة القلم ، فهو من هذه الناحية صنو المغفور له أمين الرافعى .

ابراهيم دسوقى أباطله بك (باشا)

ذو خلق متين ، ووطنية ، وغيره بعيدة المدى ، جبل على معاونة كل وطنى ولو كان فى صفوف خصومه ، كان أول موظف قدم استقالته من المصريين فى سنة ١٩١٩ احتجاجاً على ضرب القرى المصرية بالمتريولوزات الإنجليزية ، وهو من بناء الوفد المصرى فى أثناء تكوينه للبطالة بالاستقلال . وبعد أن ترك الوظائف الحكومية ظل يجاهد فى سبيل الوطن بالجهد والمال . ومن عجب أن الوفد الذى اشترك فى بنائه — بعد انشقاق أكثريته عنه — ظل يهاجمه بواسطة أصحاب الصحف المشتراة بالمال ، ولكن هؤلاء لم يستطيعوا

أن ينالوا منه منالا . ولا عجب فقد كان الذين يوحون إلى الجرائد بالحملة عليه يعملون في الوفد نظير أجر يتقاضونه من مال الأمة وهو المال الذي ساهم إبراهيم دسوقي أباطه بك في دفعه إلى خزانة الوفد ! وإنى أعلم أن دسوقي أباطه لم يتردد يوماً ما في معاونة الوطنيين الذين كانوا يلجأون إليه .

قال لي من أثق به : « إن الكثيرين الذين سبق أن أساءوا إليه بإيحاء من خصومه طرّقوا بابه ، فألفوا أنفسهم في حصن حصين من العوز ، ولم يذكرهم بسابق إساءتهم إليه ، بل كان يقف منهم موقف الحي » .

يظنه بعض الناس ساهياً ، وهو اليقظ الحذر ، الذي لا يخدع ولا يُخدع . وبعد ذلك فهو الصريح الشجاع ، والوطني بأجلى ما في كلمة الوطنية من معان ، كانت داره معقلا من معاقل الحركة الوطنية في سنى ١٩١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢ .

وأخيراً ... هو باق على خلّاله وسجاياه ؛ لم يغيره نكران الجيل من أحسن إليهم .

محمد حافظ رمضان باشا

رئيس الحزب الوطنى

يجمع بين الوطنية والكرامة ، والذكاء ، والإباء ، والنزاهة ، وإنى لأذكر أن شموخ الأنف وعزة النفس كانت تتجلى في حافظ رمضان في عهد تلهذته .

كان أصدقاء التلمذة يتذاكرون في يوم ما ، ولما دخل والده عليهم مجتازاً حجرة المذاكرة ، وقفوا احتراماً لوالد صديقهم ، ولكن الوالد لم يرد عليهم تحيتهم ، فاذا بحافظ يغضب غضباً شديداً ويدخل على والده محتجاً على عدم رده التحية على أصدقائه ، وأنه يعتبر ذلك إهانة لضيوفه وزملائه في الدراسة ، فسر الوالد من اعتداد ابنه بنفسه واعتزازه بكرامة أصدقائه ، وهو في تلك السن الباكرة .
أليس ذلك دليلاً على حمو أنف حافظ رمضان حتى في صغره .
وحافظ رمضان الآن في نظري لا يبارى في تضلعه في فقه القانون الدولي ، وإلمامه الكامل بالعلوم السياسية والتاريخية ، وإنى اعتبره حجة في السياسة المصرية ، وأنه السياسى المصرى الصريح . وهو من أقطاب رجال القانون والأدب ، إذا كتب ، أو خطب ، أو حاضر .

مصطفى النحاس باشا

هذا رجل كان يمثل الوطنية طالباً في معاهد العلم ، والنزاهة الكاملة والشجاعة الشاملة قاضياً ، والاخلاص المتفانى وهو عضو في الوفد وسكرتير له ، وكذلك كان ، حينما كان منتصباً إلى الحزب الوطنى ، ولما كان محامياً كان ذلك المحامى المخلص فى عمله ، والذي لا يتراجع فى قضية إلا إذا اعتقد أن موكله على حق .

وإنى أذكر للحقيقة والتاريخ : أن أحد أصدقاء التلمذة قد توجه إلى مصطفى النحاس المحامى ليوكله فى قضية وقدم له مئة جنيه مقدم أتعاب . وكان هذا الصديق هو حسن حمدى بك الشاعر المحجوب ، والعالم

المتخفي، فإذا بالنحاس يرفض رفضاً باتاً أن يتراجع في قضية ابن ضد والدته، على الرغم من أن النحاس باشا كان يعاني يومئذ عسراً مادياً، فإنه رفض أن يقبل مثل هذه القضية العائلية. فلما قال له الموكل: إن القضية في الحقيقة هي ضد الذين يؤثرون على والدتي، وذلك لأنها أصبحت محدودة التفكير، سيئة التدبير نتيجة مرض عصبي أصيبت به، فقال النحاس باشا: «ولو... أحب أن تذهب إليها وتقبل يدها، أقول لك ذلك للإنصاف».

أما النحاس باشا الزعيم، ورئيس الوفد أخيراً، وبطل ٤ فبراير سنة ١٩٤٢، فلأترك الحكم عليه للتاريخ. هذا الرجل الذي رفعته الأمة فأبى إلا..... وسبحان مغير النفوس، ومقلب القلوب، نسأل الله حسن الختام.

حمد الباسل باشا

كان صورة واضحة لشجاعة البدوي ورقة المتحضر، كان سخياً، وفي طليعة المجاهدين الأبرار، ولن أنسى كيف أنه وقف أمام المجلس العسكري الإنجليزي في سنة ١٩٢٢ يقول لرئيس المجلس: «لكم أن تحكموا علينا، وليس لكم أن تحكمونا»، يقصد أن المجلس ليس هو صاحب الأمر الشرعي، وحينما صدر الحكم عليه بالإعدام نادى بأعلى صوته المتزن القوى: «لنمت ولتحي مصر».

وحيد الأيوبي بك

هذا رجل كريم بأجلى ما فى كلبة الكرم من معان ، يجمع بين الشهامة والأريحية الوافرة ، والتواضع المحمود حيال من هو أقل منه ، والتعالى والتكبر إلى حد التجبر حيال المتعاطمين والمتكبرين ، لا يتردد عن فعل مكرمة ، ولا يتحرج عن إحراج الطغاة وذوى المراكز العالية الذين يتباهون بمراكزهم .

حفي محمود بك (باشا)

هو أديب عميق ، رشيق العبارة ، سلس الأسلوب ، واسع الاطلاع ، لا يتكلف فى كتابته ولا يتصنع ، ولأنه لسكرى النفس ، أريعى الكرم . فلو أنه عنى بالتأليف لكان فى طليعة المؤلفين المحسنين المجيدين . أما الشهرة التى لازمته - وقد تلازمه - وهى « أنه رب المقالب » وأن أحداً لم ينبج من مثالبه من المتصلين به ، فإن سبب جنوحه إلى هذا النوع من الدعابة ، هو أنه حينما رأى الزعماء يرفعون الوضعاء من محاسبيهم على ذوى الكفاءة والنزاهة ، ويضعون كل شئ فى غير محله ، حينما رأى ذلك ركن إلى تضييع الوقت فيما سموه بالمقالب ، وماهى إلا دعابة مع الأصدقاء ، وتهكم على الزعماء ومحاسبيهم الإمعات الذين تسنموا مراكز ليسوا أهلا لها ولا جديرين بها ، وهو العليم بأن كل البضاعة التى أزجها الرقعاء إلى الزعماء ، هى الرياء ، وهى النفاق ، وهى التقرب الرخيص ، أى تحسين مقابح الزعماء إليهم ، تلك هى

الأسباب التي جعلت حفي محمود يركن إلى التهمك في دعاة ، واتخاذ
وسيلة للنقد . وأخيراً ... إنه حر الرأي ، أقول ذلك لأنه الحق بالرغم
من أني أخاصمه كثيراً .

كان سؤالى للدكتور محبوب عن رأيه في حفي محمود بك (باشا)
في سنة ١٩٣٢ ثم في سنة ١٩٣٦ ثم في سنة ١٩٣٨ ، فكانت الإجابة
واحدة في كل هذه السنين .

مكرم عبيد باشا

حقاً هو خطيب العواطف ، وإذ يلقي خطبته ، أو يدبج مقاله ،
أو يدلي بحدیثه ، فكأنه يوقعه على قيثارة ، صديق ودود ، وعدو
لدود ، فهو ملاك في صداقته ، شيطان في عداوته ، جبار في
خصومته ...

محمود عبد الرازق باشا

قال الدكتور محبوب : « كان محمود عبد الرازق باشا وطنياً
مخلصاً ، رجل أفعال لا أقوال ، كنت أراه في غاية الهدوء في
الظاهر ، مع أنه في الحقيقة يحتمل ثورة . كان رجلاً يجمع بين العلم
والتواضع المحمود ومكارم الأخلاق . ولا عجب في ذلك ، فإنه سليل
آل عبد الرازق الذين اعتبرهم المثل العليا للبيوتات الكريمة ، وعناوين
التمسك بالتقاليد العربية الإسلامية في أزهر أيام الحضارة العربية .
هو سليل بيت ، يوقر صغيرهم كبيرهم ، ويرحم كبيرهم صغيرهم .

وبيت آل عبد الرازق على العموم بيت علم وفضل وكرم وإباء .
 إن لهذا البيت لمكانة سامية في قلبي .
 كان محمود عبد الرازق رجل إدارة ، وكان نزيهاً وحازماً .
 ولما ترك الإدارة واشتغل في الحركة الوطنية ، وأصبح سياسياً ، كان
 نزيهاً في سياسته ، كما كان نزيهاً في الإدارة . وقد عرضت عليه الوزارة
 مراراً ، ولكنه زهد فيها . وقد ألح عليه في وجودى محمد محمود باشا ،
 ولكنه رفض رفضاً باتاً تولى المناصب الوزارية ، وأنه في طوال مدة
 اشتغاله بالسياسة كان عف الضمير لم يهتم يوماً ما إلا بمعالى الأمور .
 لم يجرّد سلاحاً من تلك الأسلحة غير الشريفة التي يجردها بعض
 السياسيين ضد خصومهم .

محمد علي علوبة باشا

هو وطنى بعيد النظر ، يجمع بين العلم والنزاهة ، والشجاعة الأدبية
 وحسن الخصال ، وشرف القصد . هو من البقية الصالحة من رجالات
 مصر العاملين من حيث الوطنية والكرامة ، كما أنه شديد البسطة للبرائين .

المصرى السعدى باشا

هو ذلك البدوى الذى جمع بين الذكاء الطبيعى والعبقريّة الملائمة
 لبيئته . . اختير رئيساً للوفد فى الوقت العصيب الذى نَفِى فيه سعد
 إلى جزيرة « سيشل » ، وهو الذى قرب بين القصر وبين سعد بطريقته
 البدوية ، وأزال كثيراً مما علق فى ذهن الملك من ناحية سعد .

وإني أروى لك ما حدثني به سعد عنه ، قال لي : « صدقتني
يا محبوب إني أعتبر المصري باشا كوالد ، مع أننا نكاد نتساوى
في السن ، وإني أتفاهل بهذا الرجل ، فلولا المصري السعدى باشا
لطالت أيام منفاى إلى سنين عدة » .

وقد قال لي سعد يابنى : « اضطلع المصري باشا برياسة الوفد في
وقت كان فيه الصائدون في الماء العكر ، يدسون لي ، ويوغرون صدر
الملك العظيم عليّ . فلما نفيت إلى سيشل ، إذا بهذا البدوى النصيح
الصريح ، يقضى على كل الدسائس وأنا في منفاى . ويصورني
لدى المليك في صورة لعلى كنت أعجز عن الظهور بها . إن عقلية
هذا الرجل البدوى لتزرى في بعد مداها واتساع أفقها بعقلية الكثيرين
من خريجي الجامعات ، إنه يا محبوب أحب إلى من كثيرين من زملائي » .
هذا يابنى رأى سعد في المصري السعدى باشا الذى أرى فيه
صورة للبدوى النقى في شجاعته ووطنيته وفدائيته وإخلاصه ، ووفائه ،
وحسن رأيه .

ابراهيم الطاهرى بك

تسجل في صفات المجاهد المخلص في جهاده ، وهو رجل كامل
في رجولته ، طبيعى في أريحيته ، سليم في إنسانيته ، غير أنه يختطف
أصدقائى ويضمهم إلى حزب الأحرار الدستوريين ، وإني أصفه بصفة
لا يشاركه فيها آخر ، وهذه الصفة هى أنه متصوف سياسى .
قلت : أريد تفسير ذلك .

قال : كل عضو في الأحزاب يتحرق على أن يصبح وزيراً إلا إبراهيم الطاهري بك ، عرض عليه محمد محمود باشا منصب وزير الزراعة حينما وجد المتنافسين الراغبين في هذا المنصب كثيرين ، فاذا بإبراهيم الطاهري بك يرفض . ولما سئل عن سبب الرفض ، أجاب : إنى لا أعرف النفاق ولا الرياء ، لذلك أخشى إن قبلت الوزارة أن أخرج منها وكل أصدقائى قد أصبحوا خصوماً لى . ثم قال لمحمد محمود باشا : إنى عضو فى حزبك محبة فيك ، لا طمعاً فى أن أصبح وزيراً أو أظفر بمغنى .

إن إبراهيم الطاهري بك ياولدى متصوف سياسى ، ثم هو دمث الخلق ، أريحي ، كريم النجار .

فكرى أباطة بك

وطنى كما ينبغى أن يكون الوطنى ، مخلص لفكرته ، أمين لمبدئه وعقيدته ، كاتب عبقرى ، ينفرد بأسلوب خاص به ، على أنه يميل إلى الدعابة المقصود بها الجد ، إنه لو تسامح فى مبادئه ووطنيته بعض الشيء لكان وزيراً من زمن بعيد . قارن ، إن جازت المقارنة ، بينه وبين بعض من تولوا الوزارة ، أفلا ترى أنه أحق وأجدر بها من كثيرين ؟

وقال الدكتور محبوب : « أتذكر ما كان يكتبه فى الأهرام بلسان المرشحين أنفسهم للنيابة ، متهماً ومخذراً لإياهم من عاقبة التنافس . هذا يقول أنا (عدليست) أى نسبة إلى عدلى باشا ، والآخر يقول

أنا (سعدىست) نسبة إلى سعد باشا ، أما الذى أنفق ماله ولم يظفر
بكرسى النيابة فيقول أنا (فلست) نسبة إلى الإفلاس ، وهكذا له
هذا الأسلوب البارع .

فسكرى أباطة يا ولدى ، فى مجلس النواب نعمة وبركة على الوطنية
وعلى التقاليد البرلمانية ، فإنك تراه عند ما تجنح أغلبية برلمانية إلى
الطغيان وخنق الرأى — فى أى عهد — سرعان ما يقف غاضباً
ثائراً للحق والحرية ، ثم محذراً ومنذراً ومدافعاً عن التقاليد البرلمانية ،
وتاج نزاهته ، وعنوان شجاعته ، هما إنه لم يجامل رئيس حكومة أو
أغلبية على حساب الوطن والرأى ، كما أنه لم يخش سطوة أية أغلبية
قط ، وفوق ذلك تراه المتحدى للبق الباقعة فى التحذير ، وإنه الكاتب
البارع ، والخطيب المصنّع المقنع .

بدوى خليفه بك (باشا)

قلت : — ما رأيتك يادكتور فى بدوى بك (باشا) .
قال : — هو نزيه مخلص فى عمله الحكومى ، يرهق نفسه وهو من
الطراز الممتاز من رجال الإدارة ، على أنه يحاول أن يرضى الناس
جميعاً مع عدم الجنوح عن النزاهة : نزاهة اليد ونزاهة الفكر ، ولكن
هل يستطيع ، وحساده كثيرون ، أن يرضى الناس جميعاً .
قلت : زدنى إيضاحاً .
قال : حسبك هذا .

الاستاذ (م . ا)

قلت : — ما رأيك يا دكتور في « م . ا » ، الصحفي وصاحب جريدة ؟
فأجاب : — الذوق يمنعني أن أبدى رأيي فيه لتصفه ، والقانون يحول بينك وبين ما يصح أن تثبته ، إنه من تجار الوطنية ، ومضلى العقول وشطار الضحك على ذقون المتصدرين للزعامة ، وهو في المجتمع المصرى وصمة وفي جبين الصحافة بصقة ورمز وعنوان للتجارين بالقلم والرأى .

عبد الستار الباسل بك

هذا زميل السجن والتشريد ، ورفيق الاعتقال والنفي ، هو رجل فى مواقف الرجولة ، أريحى فى مواطن الكرم ، وكثير من أعماله المجيدة ينسبها إلى أخيه الأكبر « حمد الباسل باشا » ، ليضيفها إلى مكرماته . وهذا عجب فى الإيثار لم نر له مثيلاً ، بل هو إجلال الأخ الأصغر لأخيه الأكبر ، وهكذا كان القدامى من العرب وكلاهما البدوى المعتصم المعتر بيداوته ، غير الذاهل عن الحضر ، وكلاهما صورة مثالية لبقايا السيوف من العرب الذين أنشأوا دنيا الفتح فى شمال أفريقيا ، وكل ما آخذه عليه أنه لا يزال حزيناً .

محمد رياض باشا

قانونى بارع ، نقى الذمة ، نزيه ، وهو فوق علمه فى القانون من علماء الآثار ، جميل الخلق ، وفى لاهله ولأصدقائه .

هو محدث ، واسع الاطلاع ، حر الفكر ، من أكثر الناس شفقة على الناس (محمد رياض كان المستشار الملكي لقلم قضايا وزارة الأشغال وكان وزيراً لها) .

محمد توفيق دياب (بك)

كاتب مبدع ، أسلوبه السهل الممتنع ، وإنك لتقرأ ما يدبجه يراعه ولو كان ضد فكرتك ، ولكنك لا تملمه ، ولا يسعك إلا أن تقرأ كتابته راضياً أو غاضباً ، وهو إذ يكتب قوى الحججة ، وإذ يملئ تراه حاضر البديهة ، ليته يجمع بعض ما دبجه يراعه في كتاب مرقوم ، وعندئذ سيضاف إلى المكتبة العربية والأدب سفر له قيمة تضارع ما خلفه الجاحظ وأبو حيان التوحيدي على الأقل . وأسلوبه هو الأسلوب المعجب المطرب .

وإن الأستاذ « توفيق دياب » هو الخطيب المبدع ، أوتي السلاسة والسهولة ، وإنه لمحدث ، حلو الحديث من الطراز الأول ، قرأت لكتاب يقوون ويضعفون ، أما توفيق أجده يقوى دائماً ويحسن أبداً ، إنه في أمسه أقوى منه في غده .

أحمد عرابي باشا

ظلم أحمد عرابي حياً وظلم ميتاً لاعتبارات داخلية وخارجية . ومهما يكن من أمر ، فإنه كان وطنياً مخلصاً ، خانه الخط ، وخانه الناس ، ولقد عرفت الكثير من أسرار السياسية بعد عودته من المنفى ، وإنني لأذكر كيف أنه ، كان كلما مررنا بحي عابدين واجتزنا ساحته ، تعاوده ذكرى مظاهراته العسكرية التي تظاهر بها غضبة لمصر وللقومى المصرية ،

فكان يزجر كالأسد الغاضب ، متوجعاً من مرارة الذكرى ، ذكرى الغضبة التي أراد بها الخير لمصر والوطنية المصرية ، فانقلبت عليه نكراناً من بعض المؤرخين الذين شوّهوا - عمداً - وطنيته التي شقي بها غرساً ، وجناها مرأ ، وجتها معه مصر حنظلاً بفعل الدسائس الأوربية ، ومكائد قناصلها في مصر . ولا مرأ في أن عرابي هو واضع حجر الأساس للاستقلال القومي الصحيح لمصر بعد محمد علي الكبير .

ولكن الإنجليز الذين كانوا يُعدون أهبتهم لاحتلال مصر من زمن بعيد ، قد أتوا على ثمرة هذه النهضة بهزيمة عرابي الباسل في معركة التل الكبير التي كان سبب هزيمته فيها خيانة الأبقين المتخاذلين من بعض عرب الشرقية .

ولما كنت جد مشوق للاستماع لحديثه عن ذكريات المعركتين البارزتين في الحرب العرابية : معركة كفر الدوار ، ومعركة التل الكبير . قال : أما معركة كفر الدوار فقد تجلّت فيها بسالة عرب البحيرة من قبائل أولاد علي ، وبطونها ، وأنفاذاها ، وأخواتها ، من بني عونة ، والهجة والجميعات فلم يستطع الإنجليز زحزحتهم عن موافقهم ومنوا بالهزيمة التي ردتهم خاسرين ، وهي الموقعة التي صاح فيها جد حسين عبد السميع بك من أعيان تلراك شرقية : « عيب يا عرب اثبتوا ، وقد ثبتوا كما ثبتت الفرقة السودانية .

أما معركة التل الكبير ، وهي المعركة التي تدنس فيها البعض بمغرم الرشوة ، فكانت من أسباب نكبتنا بالاحتلال الممقوت .
وخلاصة القول : فإن عرابي كان وطنياً وكان مخلصاً ، ولكن

كان سيء الحظ، وقديماً قالوا: «ولأم المخطئ الهبل» .
وقال الدكتور: إن عرابي باشا قال له: «لو أن معظم فرق الجيش
وقفت موقف الفرقة السودانية التي ظلت تدافع مستميتة في القتال
حتى فنوا عن آخرهم، لرددنا الإنجليز عن ديارنا» ، (يؤيد ذلك ما ذكره
أحمد شفيق باشا في كتابه: مذكراتي في نصف قرن - ج أول ص ١٩٥)

الاستاذ «...ع»

قلت : — ما رأيك يا دكتور في الاستاذ «ع...» ؟
قال : — هو كاتب لا شك في أنه واسع الاطلاع ، له أسلوبه
الخاص ، على أنه أهوج غضوب ، يغضب بلا سبب ، مغرور ، مادي ،
أناني ، حقود ، إذا رأى شاباً يكتب في جريدة أو مجلة ، إذا لم تكن
كتابته مصحوبة بالمدح فيه والقدح في خصومه ، أنكر عليه القدرة
على الكتابة ، وهو ملحد ، يقول الشعر سخيفاً ، وسمجاً بارداً لاروح
فيه ولا حرارة ، ثم يزعم أنه بذ الأولين والآخرين . هو من حملة
ألوية الكذب والاختلاق ، شؤم على نفسه ، وعلى غيره ، حقد على
شوقي حياً ، وأنكر عليه شاعريته ميتاً ، هو مغتر بنفسه ، يدعى أنه
شاعر السكون الذي لم يُخلق مثله ، وليته يعتقد أن الذي خلقه هو
الله ، فلعله يزعم أنه خلق نفسه .

أمثال هذا المغرور هم الذين ضلّلوا الأفهام وأفسدوا الأخلاق ،
وقلبوا الأوضاع ، وأفسدوا بعض الأذواق .

على أيوب بك

حينما انتخب الأستاذ على أيوب بك وكيلاً لمجلس النواب سألنا الدكتور رأيهِ ، فكان رأيهِ هو رأيهِ فيه يوم تولى وزارة الشؤون الاجتماعية قال :

— هو رجل متين الخلق ، رصين العقل ، رزين الأسلوب ، واسع الاطلاع ، تراه دائماً يضيف جديداً إلى قديم ثقافته وعلمه ، وهو واسع الصدر ، جلد ، أما إذا نفذ صبره فهو القوى ، ثم أنه من الطراز الأول في الرجال . على أنى ما رأيت أحداً مثله يقابل كوارث القدر ومصائب الدهر بصدر رحب ، وصبر جميل .

يابنى ، على أيوب ، هو باقعة في التحليل النفسى ، وهو القانونى العبرى ، نابغة في معرفة الرجال ، إنه يعرف كيف يختار أصدقاءه ، ويعرف كيف يعامل خصومه وحاسديه . إنه شجاع ، وبعيد النظر . قلت : أود أن تذكر لنا شيئاً من مواقفه .

فأجاب :

— إليك نموذجاً من شجاعته وبعد نظره وتنبيهه : لما رأى أحد الزعماء من زملائه قبل الانقسام الذى حدث في أحد الأحزاب قد حاد عن طريقه ، حذره في دعاة مقصود بها الجد .

ففي أحد الأيام أقام زميله الزعيم مأدبة وأخذ يظهر الإعجاب بتنسيق حديقة داره ، محاولاً أن يبهز الحاضرين ، متحدثاً بذوق التنسيق ،

ومحاولا أن ينتزع منهم عبارات الإعجاب .. عندئذ أخذ على بك ينقد
تنسيق حديقة الدار انتقاد الخبير بفن الحقائق ، ثم أخذ يبرز
مواضع قلة الذوق ، فإذا بالزعيم الزميل يرتاع ويضطرب ويقول :
« أنا أتحمّل انتقاداتك لسياستي ، ولكني لا أريد أن أتحمّل ما يترتب
على نقدك الحديقة وتنسيقها » .

قال لي الدكتور : « إذا قدّر لك أن تتناول ما ذكرته لك
تحليلاً وكتابة ، فأرجو أن لا تذكر الأسماء وحسبك ذكر الحادثة
تعلّماً للناس وتذكيراً ، وحتى لا تسجل عليهم هذه الأمور ، وقف
عند مواضع العظة ومواطن العبرة ، وابتعد عن مزالق الأخلاق » .

ثم قال : « اقنع بهذا القدر عن علي أيوب المحدث العالم ، وهات
ما عندك من الأنباء ، ولم تسكن عندي أنباء ، فقال : « إذن ناوّلني الجزء
الحادي عشر من كتاب الأغاني ، والجزء الرابع من مجاني الأدب ،
ضعهما هنا بجانبني ؛ ولا تنس مختارات البارودي » .

المؤلف : لم أك أعرف علي أيوب بك وقتئذ ، فلما عرفته ألفيته
كما صورته محجوب - رحمه الله - . فقد كان المحلل النفسي كما كان
الطبيب الشرعي .

الأستاذ عبد الرحمن البيلى

س - ما رأيك يا دكتور في الأستاذ عبد الرحمن البيلى ؟ ..
ج - هو من شباب الحركة الوطنية ، ومن زملائنا الذين أججوا
نارها ، ومن رفقاتنا في السجون والمعتقلات ، اشترك اشتراكاً فعلياً

في إدارة الثورة وتوجيهها ، خاطر فيها إلى أقصى درجات المخاطرة ، بل لقد كان من حطبها ونارها ، وكان على اتصال وثيق بالقائد الحقيقي للحركة الوطنية عبد الرحمن فهمي بك ، ولكنه لما رأى أنه قد غمط حقه ، وأنكر فضله ، وأبعد جنوده المخلصون عن القيادة ، وجيء بدلهم بمن كانوا موضع الشك ، وحل المغنم لدى القائد الحقيقي ، جنح إلى الاستقلال عن الأحزاب ، وركن إلى خدمة بلاده مستقلاً عنها .

محمود الغزالي بك

سألت عنه الدكتور عندما عين مديراً للبحيرة . فقال :

— وصل إلى هذا المنصب متأخراً ، وهو إداري حازم ، وقد يكون فيلسوفاً في رجال الإدارة ، يظنه الذي ينظر إلى الرجال نظرة سطحية متكبراً مزهواً ، محباً للسلطة والسلطان والأبهة ، يشيع ذلك حساده من أمثال (ا . ص .) ذلك الثعبان البشري يدس له ويشى به دائماً (راجع فصل الجهاد الشاق) .

ثم قال :

— إن محمود الغزالي يعرف واجبات وظيفته وحدودها ، ومتى وكيف يقف حيال رئيسه إذا جنح عن الجادة ، ويجيد معاملة مروضيه ، ويعرف كيف يوجه مروضيه التوجيه الحسن إذا كانوا أكفاء ، ثم هو حازم صارم مع المهمل .

وهو كريم المنبت ، شريف المحتد ، طيب القلب .

الأستاذ محمود عمار

(الملقب بشاعر الرعاع)

هو من المبكرين في التضحية ، ومن الذين ساهموا في الثورة
بنصيب كبير ، ومن الذين لم يعلنوا عن أنفسهم ، ولم يملأوا
الدنيا ضجيجاً وادعاء ، ومن الذين ارتفع على أكتافهم الكثيرون ،
وقد تنسكروا له ، بل حاولوا هدمه بعد أن غمطوا حقه ،
وقابلوا إحسانه بالإساءة ، واغتالوا جهوده ، بل حاولوا النيل
منه جاهدين . وكل ذنبه ، يا بني أنه صريح واضح ، لا يحسن مقابح
الزعماء ، ولا يدأجى ، ولا يحابي من أحبه ، ولا يتجنى على أحد ،
ثم هو شاعر مطبوع من شعراء الحركة الوطنية الذين أشاعوا
الحماس في النفوس ، وهو شريف النفس ، أنوف وأبى ، وإنه من ضحايا
الوطن الأحياء .

الدكتور (ز. م.)

قلت : « مارأيك يادكتور في الدكتور (ز. م.) » .
قال : « هذا مخلوق أناني ، حسود ، حقود . آدمى سفيه ،
سفاهته ممزوجة بالغرور ، والجنون ، وقبح الادعاء . على أن جهل
الجاهل خير من علمه .

إن من عيوب صحافتنا أن تترك مجالاً لمثل هذا الدعي الثقيل
الظل ، المتظرف ، والدميم ، المتحالي ، يشتم الناس ليُشتم ليُشتم

ولو يشهر ، ولو باللعة عليه وعلى آباءه .. يئذل جهده -ليذكر اسمه
ولو مصحوباً بأقبح الصفات وأقذر النعوت .

لو أننا أردنا أن نقيم تمثالا للنفاق والرياء ، والانحطاط الخلق
لما وجدنا غير هذا المشاء ، الفاسد المفسد ، الذى يدعى فى غير ماحياه
ولا خجل : أن له فى كل عاصمة ومدينة وقرية ودسكرة ، وتحت كل
حجر وفوق كل شجرة حسناء تهيم به ويهيم بها .

ومن عجب أن يسمح بعض أصحاب الجرائد عندنا لهذا الرقيع
بصفحات يسودها بتلكم السخافات الجنونية المائعة المحطمة للأعصاب .

— أليست له حسنة يادكتور ... ؟

— إنه الدليل القائم الحى على صدق الحديث الشريف وحكمته :

« لا تعلموا أولاد السفلة العلم » .

قلت :

— زدنى إيضاحاً .

قال : — ما دخل بيتاً إلا أشاع الفتنة فيه متستراً بستر العلم ،
ومتبرقعا بقناع الأدب ، ودائماً يحاول أن يلص عرض كل بيت دخله
دخول الأمراض المعدية . ليتة ظل فى القرية يجر المحراث بدل
الثور ، أو يحمل السباخ بدل الحمار ، أو ينبج الطراق بدل الكلب
الأكلب ويعوى بين الجداول والمزارع بدل الذئب الأجرب ليتة .. أما
الآن فهو بعد أن نكبت به الأوساط العلية ، ورزئت به دور
التعليم ، ثم بعد أن كدرت به المنتديات الأدبية والصحفية والثقافية ،

يظل ينبج على كل ذى خلق كريم بكتابات يدبجها تحت تأثير المشروبات الكحولية الرخيصة ، فيجىء الفكر رخيصاً ، والهجو سخيلاً ، مقروناً بالادعاء العريض ، الرقيع ، والزعم الصفيق ، الذى يضارع صفاقة وجهه . أو لم تصب به ، وإنى أعيدك أن تنكب به عقب مقال ينشره فى مجلة أو جريدة ترزىء القراء به . أو لم تسمعه عقب مقال كتبه : إن هذا الذى كتبت ، لم يكتب كاتب مثله ، من يوم أن وجدت اللغة العربية . ولن يكتبه كاتب ، إنه يتمشدد بكل هذه الرقاعات . . يقيناً يا ولدى لولا هذا الذى لا يفوق من الرقاعة ولا من الخمر ، لولا خشيته من غضبة الأزهرين ورجال الدين ، وحتى المنصفين من المسيحيين ، لزعم فى سماجة أن أسلوبه الكتبانى أعلى من أسلوب كتابنا السماوى والحديث النبوى .

ثم قال الدكتور بعد حديث يطول سرده :

— إن أمثال هذا : هم الذين أشاعوا النفاق والرياء ، هم الأسباب المباشرة فى عدم نجاح حركتنا الأدبية ، ولكن ليس هؤلاء وحدهم هم الذين يتحملون المسئولية ، بل المسئولية الكبرى إنما تقع على أصحاب الصحف والمجلات التى تفسح صدرها لهؤلاء الادعاء ، وفى الوقت نفسه يجسسون آراء النبلاء من الوطنيين الشرفاء .

وهنا تحمس الدكتور وقال :

— قم واذهب إلى صاحب تلك المجلة « القيمة » التى يتخذها هذا الرقيع منبراً ، وقل له : لا يجمل بك أن تجعل مجلتك الثينة رسول غرام وسفاهة لهذا الكاتب المائع الذى يتظاهر بالشجاعة

وهو الذى طالما تجسس على مواطن السر فى الحركة الوطنية ؟
وقد أدى المؤلف رسالة الدكتور التى كلفه بها ، فاخفت بعدها
تلك المقالات المائعة .

عبد الحميد بدوى باشا

سألت الدكتور محجوباً رأيه فى عبد الحميد بدوى باشا ، فأجاب :
— إنه العبرى فى القانون وفى الأدب وفى بعد النظر وفى سعة
الفكر ... وقد قال لى أحمد ماهر بصراحته : « لما توجهنا فى الوفد المصرى
الرسمى ، إلى مؤتمر مونترية لإلغاء الامتيازات الأجنبية ، وكان عبد الحميد
بدوى باشا أحد أعضاء الوفد المصرى بحكم منصبه . كنا نحن أعضاء الوفد
المصرى عائلة على عبد الحميد بدوى ، فانه قد أغنانا عن البحوث القانونية
ووفر علينا الكر والفر والمد والجزر وبذل الجهود ، وفى نفس الوقت
إذا بعبد الحميد بدوى يصبح إعلاناً حياً لمصر وعبقريّة المصرى فى
المجتمع الدولى العالمى . لقد كان رجال القانون الدولى وأساطين
المعاهدات ، وعباقرّة المواد القانونية ونبغاء الأمم الغربية ، يحيط
بمندوب كل أمة جماعة السكرتيرين النابغين الناهين مزودين بالمراجع
القانونية وأضابير المعاهدات التى لا حصر لها من عهد الرومان
إلى يومنا هذا . أما عبد الحميد بدوى المصرى زميلنا فى وفد
الحكومة المصرية ، فقد كان منفرداً دونهم متسلحاً بعلبه يملأ
رأسه سجل حافل وقاموس شامل وموسوعة كاملة فى كل قانون بل كان
مرجعاً زاخراً لكل ما اعتمد على مثله أنداده من مندوبى الدول .

وكم كانت دهشتنا، نحن أعضاء الوفد وأبناء مصر الذين نشأ بدوى بين ظهرانيهم ، حينما وجدنا عبد الحميد بدوى ينبرى من بيننا يتدفق بلاغة وعلماً ومعلومات مع حضور ذهن وقاد ، دون رجوع إلى المراجع القانونية، أو الاعتماد على سكرتير أو الاستئناس برأى مستشار أو معاون .

قال لى أحمد ماهر : « كان عبد الحميد بدوى موضع إعجاب ودهشة وصلت إلى حد الذهول لدى رؤساء وأعضاء ومستشارى رجال القانون الدولى . وقد جاهر رئيس الوفد اليونانى القانونى العالمى بقوله : إن عبد الحميد بدوى نابغة هذا الزمن ، ولا يقدر العظيم إلا العظيم ، . ثم قال الدكتور محجوب : « إن جبرائيل تقلا باشا (صاحب الأهرام) الذى كان يرافق الوفد المصرى ، على حسابه ومندوباً لجريدته — قال له : « إنه سأل الدكتور أحمد ماهر رأيه فى عبد الحميد بدوى ، فأجابته : بأنه خير إعلان لمصر فى المؤتمر . على أن أمة تتجب أمثال عبد الحميد بدوى جديرة بأن تثبوا مكانها بين الأمم ، فلما نوهت بجريدة الأهرام بما أفضى به إلى الدكتور ماهر بصراحتة الماثورة ، خاصمنى النحاس باشا نصف عام ، وخاصمنى أحد أعضاء الوفد عاماً كاملاً ؟ » .

وقال جبرائيل باشا للدكتور محجوب : « لما عاتب النحاس باشا الدكتور أحمد ماهر باشا على تصريحه الذى نشرته الأهرام فلم يقبل أحمد ماهر العتاب ، بل قال للنحاس باشا متأففاً وغاضباً وثائراً : « هب أن عبد الحميد بدوى لم يكن مصرياً وشرف مصر فى مجتمع دولى ، أفلا

يحمل بنا أن نصفه ولو كان أجنبياً . نحن أمة مظلومة ونطالب
بالنصفه . فإذا كنا غير منصفين لبعضنا ، فكيف نطالب ونقنع غيرنا
بأن ينصفنا ؟ وكيف نقنعهم بأن يعترفوا بفضلنا ، ونحن ننكر
لذي الفضل منا فضله ؟ بدوى باشا رجل منا ، شرفنا ورفع ذكرنا
وأقام حجتنا في مؤتمر دولي جئنا إليه لينصفنا ، أفلا نخشى أن يقال
لنا إنكم لا تنصفون النابهين النبغاء منكم ، فكيف نطمئن إلى إنصافكم
لمن كان أجنبياً عنكم ؟ أم تريد ياسيدى أن يقال عنا إننا أمة تبغض
القريب وتحب الغريب ..؟ اسمع يا باشا ، لو لم يكن عبد الحميد بدوى
مصرياً وزميلاً لنا ، وكان مثل أى مستشار أجنبي ، لما ترددت لحظة
في الإشادة بعبقريته ، وأنا لا أحب أن ننكر لذى الفضل فضله
ولو كان خصماً ، بل ولو كان أجنبياً ... إني لفي غاية العجب أنك
تواخذنى على الحديث الذى أفضيت به لصاحب الأهرام ، بل
إني أحتج على ذلك ، إني سأجاهر برأى وسأشيد بعبقرية بدوى
ولو أنه غير وفدى ،

قلت : « ولكنى أحب أن أعرف رأيك الخاص يادكتور فى
عبد الحميد بدوى ، بعد رأى الدكتور أحمد ماهر فيه » .

فقال : « عبد الحميد بدوى رجل عبقرى يعرف كيف يقدم ومتى
يخجم ، ومتى يصارح ومتى يداور ، وفى أى ميدان يكر ومن أى
موقف يفر ، وفى أى وقت يتغابى ومتى يتناوم ، وفى أى موطن
من مواطن اليقظة يكون اليقظ بل الحذر .

عبد الحميد بدوى ياولدى ، هو حسين رشدى القانونى الشجاع

إلى حد ، وعبد الخالق ثروت في المصاولة إلى حد . هو على يكن
في الرزاة ، وهو اسماعيل صدق في هدوته وبعد نظره وثاقب
فكره ودقة تعبيره وذكائه إلى حد . أخذ عن كل هؤلاء العظماء
جانبا ... هو أمة في أمة لا فرد في شعب . .

أحمد النشوقاتي بك

سألته عن صديقه أحمد النشوقاتي بك . فأجاب :
— هو رمز الوفاء الذي أصبح نادراً في هذا الزمان ونزراً في هذه
الأيام التي ينقلب فيها الأصدقاء ويتخلف الأصحاب عن الأصحاب ، على
أنه وإن مال كثيراً إلى أسلوب من الدعابة معى فهو بلا شك مداعب
مهذب ، ويكفي أن تعلم أنني حينما كنت أجنح إلى العزلة متنائياً عن
الصحاب والخلان ، كنت أجد منه العزاء الكريم والعطف الأخوى
الخالص النقي في أيام المحنة والشدة .

على الشمسي باشا

هو وطني بالوراثه ، كان جده وطنياً ، وكان أبوه من المتطرفين
في الوطنية ، والشمسي وطني من النوع الممتاز .
ولقد قاسى على الشمسي الأهوال في سبيل الوطن وضحي وتحمل
المشقات ، وهو من المجاهدين الذين ناصروا مصطفى كامل باشا موقظ
مصر وباعث النهضة الوطنية .

انضم على الشمسي إلى الوفد وظل عضواً بارزاً ومجاهداً بالجهد
والمال في غير من يكدر جهاده ولا ادعاء محبوب أو بمقوت ، فلما

ألني بعض زعماء الوفد من الدرجة الخامسة ، ورثوا الزعامة بغير حق
وبغير جدارة ، ثم لما رأى خصومهم من الأحزاب الأخرى يسرون
في دربهم ، عافت نفسه النيلة الحزبية الممقوتة وطلقها طلاقاً بائناً
ونأى بجانبه عن الوفد وعن الأحزاب ، وآثر أن يعمل لبلاده مستقلاً مخلصاً
لمليكه ، وليغضب من يغضب ولا يرض من يرضى .

إني يا ولدى أفهم على الشمسي كما أفهم نفسي ، فقد كانت لي معه
عشرة في ديار الغربه حيث كنا في سويسرا معاً .
طلق على الشمسي الحزبية وعافتها نفسه ، كما عافتها نفسي ، (ووضعت
ليونة مألحة تحت لساني) تلك هي الجامعة التي تجمعني به .
لا يعرف الشوق إلا من يكابده

ولا الصبابة إلا من يعانيها

عبد الخالق ثروت باشا

كان أول مصري ملأ مركز النائب العام لدى المحاكم ، وهو
الذي رفع مستوى القضاء المصري ووكلاء النيابة الذين أصبحوا مضرب
الأمثال من حيث النزاهة واستقلال الرأي وإشاعة العدل بين الناس .
وقد لا يعلم الكثيرون أن ثروت باشا وهو نائب عام ، كان يحرص
على أن لا يندمج في سلك القضاء أحد إلا بعد التحري الدقيق عن
بيئته وعن أخلاق متطلب الوظيفة القضائية ، وإني أعلم أنه حينما تقدم
ابن مطرب متجول طالباً الالتحاق بسلك وكلاء النيابة ، رفض ثروت
رفضاً باتاً الموافقة ، وهدد بالاستقالة لما طلبت منه إحدى الجهات

الفضولية ذات الكلمة المسموعة تعيينه . فكان ثروت من هذه الناحية
 واضع حجر الأساس في رفع مستوى رجال القضاء في مصر .
 أما ثروت السياسى الوطنى (راجع بين ثروت ومحجوب) ، فقد
 أدى واجبه الوطنى ، وقاد سفينة البلاد فى أخرج الأوقات ، على
 الرغم من الحملات الشعواء التى كانت توجه إليه .
 كان واسع العقل رزيناً ، ورصيناً ، وحليماً جداً .

وقد وصفه شوقى بالعقل حينما نعت خصومه بالهوى :
 شبتهم بينكم فى القطر ناراً على محتله كانت سلاما
 إذا ما راضها بالعقل قوم أجده هوى قوم ضراما

عبد العزيز فهمى باشا

هو عبقرى قبل كل شئ ، وقطب من أقطاب القانون وجهبذ من
 جهابذة الوطنية ، وكاتب من الطراز الأول ، قوى العبارة ، واسع
 الاطلاع ، صريح شجاع ، وهو العاصفة الهوجاء والنار المحرقة إذا
 غضب للحق والكرامة .

ولأنه لسريع الغضب ، بطيء الرضا ، إذا أساء الظن يؤخذ عليه
 أنه ضيق الصدر .

حسين رشدى باشا

كان وطنياً إلى أقصى درجات الوطنية ، وكان من أكثر الناس
 صراحة . لم تفارقه هذه الصراحة طوال أيام حياته ، والنزاهة
 وطهارة اليد والجيب هما خلاصة صفاته .

لم يتردد لحظة في مساعدة أى إنسان التجأ إليه ، وكثيراً ما رأيت ، وهو رئيس للحكومة ، يقترض من مرموسيه الصغار نقوداً ، ويعاون من أخني عليهم الدهر من أبناء العائلات الذين لا يسمح لهم استعدادهم بالأعمال الحكومية أو التجارية .
 وحل العجب وموضع الإعجاب عندي ، أن رشدى باشا وهو رئيس حكومة كان يستحى أن يرد طالبي رفته ، وهو الشجاع في المواطن التي ترتعد فيها الفرائص ، والمواقف الحرجة التي يذهل فيها ذوو العقول والفظن .

حسين رشدى أبو الثورة المصرية :

قال الدكتور محبوب : « أقول لك إن حسين رشدى هو الذى هيا للثورة وسائلها ، وهو الذى نفخ فيها من روحه وظل يراعيها وليدة ويغذيها يافعة ، ويدفعها فتية .

دبر حسين رشدى وسيلة يحملنى بها على مقابلته في الأيام التي كان الموظفون فيها يجتمعون في منزل كل من الأستاذ ابراهيم دسوقي أباطه وعبد الهادى الجندى ، وقال لى : « سأفضى إليك بسر يا دكتور ما كنت تعلمه ، وهذا السر هو أنى بعثت لك من قبل محذراً لك ومنذراً إياك من نتيجة اتصالك بالموظفين الذين يشتغلون بالسياسة ، ويحرضون على الاضراب (راجع فصل مواقف وطنية) ولعلك أدركت يومئذ من إغضائى عن تصرفاتك أننى لم أكن جاداً ولكنها كانت مناورة لتضليل الذين كانوا يعدون حركات في رئاسة مجلس النظار . »

تولى رشدى باشا رئاسة الوزارة مرات ولكنه مات فقيراً ، وهو الذى جاهد فى سبيل بلاده فى أخرج الظروف ، ولم يطأطأ رأسه للبحر ، بل كان يقاوم مثل انجلترا بالعقل والروح إلى حد المخاطرة . أما فى مفاوضات سنة ١٩٢١ ، فقد أدى كبد اللورد كيرزون ، ومن قبل فقد فوت على السير برونيات أغراضه الاستعمارية حين حاول قلب أنظمة القوانين المصرية ، فرشدى باشا هو ذلك المصرى الوطنى القانونى العالمى الذى وقف فى وجه برونيات قائلاً : مكانك ... ثم أذاع منشوراً سرياً على الأمة المصرية فكانت الشرارة الأولى لنيران الحركة الوطنية اقتبس منها كل مصرى وطنى .

وخلاصة القول : إن رشدى باشا هو أبو الثورة فى سنة ١٩١٩ .

كرامة وشجاعة :

قال الدكتور محبوب : إليك أنموذجاً من كرامة نفس حسين رشدى وشجاعته فى وقت كانت فيه مصر فى حاجة إلى الشجعان ذوى الكرامة :

كان الأستاذ مصطفى النحاس القاضى قد أصدر حكماً عادلاً يتنافى مع مصلحة الانجليز ، فامتعض ممثل انجلترا اللورد (كتشنر) ، وأرعد وأزبد ... ثم أبرق مهدداً ، وطلب من رشدى وزير الحقانية - وقتئذ - أن يفصل هذا القاضى (مصطفى النحاس) من وظيفته فى الحال ، فأجابه ، كاظماً غيظه فى بادى الأمر :

« أتريد أن أفصل قاضياً لأنه أصدر حكماً لا يعجبك ؟ إن كان لديك

دليل على أنه ارتشى فإنى أفصله بجرة قلم ، أما أن أفصل قاضياً لأنه أصدر حكماً ، وأنا القانونى ، فهذا لن يكون .

قال الدكتور محبوب : ومن سخرية القدر أن مصطفى النحاس بعد أن انضم إلى الوفد موظفاً فيه ، ساهم فى الحملة على حسين رشدى ، فما أقبح نكران الجليل !!

واليك أنموذجاً من تسامحه :

كان أحد رجال الدين - بايحاء بعض الوطنيين وبعض الأجانب - يحمل على حسين رشدى حملات شعواء بمقالات كان يبعث بها إلى الصحف المسائية والصباحية ، ومن العجيب أن كل الصحف كانت تنشر هذه الحملات الظالمة التى كان يرسلها الشيخ الكبير إليها فى صورة منشورات واجبة النشر ، مع أنها كانت من صورة واحدة . وإذا بالشيخ بعد أن نضب معين حملاته المقرونة باتهام رشدى فى وطنيته ونزاهته ، وفى طهارة يده ، وتفضيل غيره عليه . . يقصد رشدى باشا ، ليعين أحد أقاربه فى وظيفة حكومية ثم يرقى آخر ! وإذا برشدى باشا قبل أن يجيب رغبة الشيخ الدينى ويدعوه إلى تناول الطعام على مائدته . ثم إذا به يجلسه على يمينه فى سيارته ويدور به على كثير من منتديات مصيف الاسكندرية وبعض مقاهيها العامة - خلافاً لعادته - وتعمد أن يجالسه فى الأوساط المختلفة ، وظل أياماً عديدة يتنقل بصاحب الفضيلة من مكان إلى آخر حتى إذا انتهى من المطاف إلى حيث منزله ، فيجلسه عن يمينه على مائدته ويظل يروى له سير رجال الدين القدامى الذين كانوا يرفضون تناول

الطعام على موائد الحكام المرتشين والظالمين ، والشيخ يتسم معجباً
والرئيس يضحك مستغرباً .

ولما اعترض عدلى باشا وبقيّة زملائه على احتفاء رشدى باشا بفضيلة
الشيخ الذى لم يترك له أديماً صحيحاً أجابهم رشدى بقوله : « إن احتفائى
به لأنه قصدى ولجأ إلى ، أما طوافى به على المنتديات العامة فليس
يراه الناس الذين قرأوا ما دبحه يراعه ضدى فيحكموا عليه لا على .
وإنى سأعين له قريباً فى الحكومة فى حدود القانون ، وسأرقى
له ابناً ، .

وظل فضيلة الشيخ يتناول الطعام على مائدة رشدى باشا خمسة عشر
يوماً ، وفى كل مرة كان رشدى باشا يقول للشيخ : « ثمن هذا الطعام
من مالى الحلال ، ولم يدخل فى جيبي طوال حياتى مال حرام ، وإنى
أضعت المال الذى ورثته عن آبائى وأجدادى ، أضعته وأنا رئيس حكومة
فى مصر ، . . فكان الشيخ يؤمن على كلامه ، ويستشهد بالآيات القرآنية
الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة على صدق ما يقول رشدى .
وأخيراً قال للشيخ : « إذا عشت بعدى فستجد هذا مدوناً فى مذكراتى
أرجو ألا تحمل على رجل بات تحت الثرى وتكذبه . » فبكى الشيخ .
قال الدكتور محبوب : إن رشدى باشا روى له هذه القصة .
كان رشدى باشا رجلاً يجمع بين الوطنية والشجاعة ، والكرامة
والنزاهة ، وكان من أقطاب رجال القانون فى وقت كانت مصر فيه
فى حاجة إلى كل ذلك . . .

تولى رشدى باشا الحكم غنياً ، ومات فقيراً .

عدلى يكن باشا

قال الدكتور :

— كان زعيماً ، نبيل الخلق ، نبيل الوطنية ، متسامحاً مع أبناء الوطن إلى أقصى درجات التسامح ، فإذا انبرى من يريد أن يدافع عنه ولو بحق ، فإنه كان يتأبى . فاوض انجلترا فكان شريفاً في مفاوضاته قوياً في وطنيته . وكانت تتجلى فيه صفات العظمة ... أبى أن يطعن في خصومه الوطنيين أمام الأجانب ، وكان يرفض يابنى أن يستمع إلى طعن موجه إلى خصمه الوطنى من الأجنبى المحتل .

صالح الموم باشا السعدى البدوى^(١)

سألت الدكتور رأيه فى صالح الموم باشا ؟ . فأجاب :

— كان ذكياً بالفطرة ، وسياسياً بالسليقة ، وعلى الرغم من أنه كان محدود القراءة والكتابة ، فإنه كان أفضل من كثيرين من المتعلمين تفكيراً . كان يتغلب على الحكام ويفرض على أكثرهم آراءه السياسية ، ولا سيما الذين كان يختلف معهم فى رأى السياسى ، دخل على حسين رشدى باشا يوماً مقتحماً مكتبه ، ولأمر ما كان صالح غاضباً ، وكان رشدى فى هذا اليوم ضيق الصدر . فإذا بصالح يهدى سورة غضب رشدى بقوله : « أنت زعلان من ابنك فى الوطنية ونادى ، تعال يا ولد يارشدى ، فأخذ رشدى ظناً منه بأنه ينسأديه يياولد ، ولكن سرى عنه حينما رأى طفلاً صغيراً يدرج^(٢) إليه مبتسماً ، فإذا بصالح الموم

(١) كان من ضمن أعضاء لجنة الدستور الذين وضعوا الدستور ممثلاً للعرب .

(٢) يدرج : مشية الصبي .

يشير إلى الطفل قائلاً : « بوس يد جدك الباشا ، أنا ابنك ياباشا ، ومن حبي
فيك سميت به برشدي ، فأنا ابنك في الوطنية ، وابني حفيدك في الوطنية .
وابني الآخر سميت به عدلي ليكون مثله في وطنيته وإبائه . أنا أسمى
أولادي بأسمائكم تيمناً بكم وعناداً لغيركم وأتيتهم تحارباني ؟ ، ثم استطرد
قائلاً : « انت زعلان يا باشا ، أقوم ؟ ، فإذا برشدي يرضى وتنبسط أسارير
وجهه ويقول : « اطلب ما تريد يا ابني ، على شرط أن يكون طلبك
متماشياً مع القانون » . فخرج صالح للموم مقضى الحاجة راضياً مرضياً عنه
من رشدي باشا .

أما الذين كان يختلف معهم في الرأي السياسي من الحكام ، فقد
كانوا يخشون بأسه ويرهبون جانبه ويعملون حسابه .
وخلاصة القول : إن صالح للموم باشا كان فريد قومه ، لو أنه
أوتي قليلاً من العلم مع ذلك الذكاء النادر لنافس رؤساء الأحزاب
والوزارات في مناصبهم ومراكزهم ونفوذهم .
لقد كان صالح للموم باشا ، معاوية زمانه في منطقته وإقليمه ،
فإنه كان يعامل بالعنف من لا يحىء إلا بالشدّة ، وباللين ، الكريم
العنصر ، وكان يقيّل عثرات الكرام ويلتمس لهم الأعذار إذا أساءوا
إليه ويخجلهم بالعطف عليهم .

ولقد كان رجلاً شهماً ، جاء إلى منزلي عقب اطلاعه على نبأ حجز
وزارة الأوقاف على سكني وعيادتي وصيدليتي في أشد أيام عسري
وأراد أن يقوم بدفع المبلغ المطلوب . . فشكرته . . . رحمه الله .

رياض الجبالي باشا (البدوى)

رأيت في إحدى «التشريفات» متأبطاً ذراع الدكتور محبوب فسألته :

— ما رأيك في هذا البدوى ؟ . فأجاب :

— هو رجل بدوى سمح النفس ، مفكر على طريقة ذلك البدوى الذى سئل كيف عرفت الله فأجاب : « البعرة تدل على البعير » ورياض الجبالي من الذين لم يسعوا إلى رتبة الباشوية ، بل جاءته من غير سعى ولا وساطة . . وقال : « ضمنى مجلس مع رياض باشا وأحد المنافقين المرائين النفاقين الذين يتقربون إلى حملة الألقاب بالقول الذى يحى على هواهم — ولا سيما إذا كان وزيراً — فلما أخذ المنافق يقول معرضاً بشخصية عظيمة : « من هذا حتى نستمتع لقوله ، أليس هو مؤلف حزب القش أو الهشيم ؟ » . ولم يكن يعرف شخصية رياض الجبالي فاذا برياض يقول له : « إن القش إذا تعرضت له النار يحرق مدينة » . قال ذلك مبتسماً وعرفه بنفسه . فإذا بالمنافق يعتذر ثم يتراجع ... ثم يخشى عاقبة قوله . وعندئذ قال له رياض بك (باشا) : « لا تخف إن أحاديث المجالس أمانة عندي ، فاطمن ولكن يحسن أن تترك النفاق » .

فرياض الجبالي باشا من الرجال الذين يقولون القليل المفيد فى مواطن الكلام ، ومن الذين يؤثرون السكوت احتقاراً للثرثار ، ومن الذين يحسنون إسكات المداحى بابتسامة ساخرة إذا كان المتكلم لثيماً ، وبكلمة رادعة إن أغرق فى اللوم .

في يوم من الأيام جاءه أحد الذين يأكلون لقماتهم مغمسة
بدماء الناس، وظل يذكر له كل قبيح عن شخص كان خصماً لرياض
باشا، فإذا برياض يقول له: «وفر كلامك لحين حضوره وسيجيء»،
فهرب المغتاب اللثيم.

وهو بدوى، لم يذهل عن بداوته، وفي نفس الوقت عرف الكثير
عن لؤم الحضر ونعومتها، وضحك منه وسخر ولكن في لطف.

الشيخ محمد مصطفى المراغي

- ما رأيك يا دكتور في الأستاذ الأكبر الإمام الشيخ المراغي؟
«وكان سؤالاً هذا عقب استقالته من مشيخة الأزهر حينما عجزته
إحدى الوزارات عن إدخال الإصلاح الذي نادى به في الأزهر».
قال: «أؤكد لك أن مجرد استقالة المراغي من منصبه الضخم ذي
المرتبات الضخمة في سبيل التمسك برأيه في إصلاح الأزهر، هو عمل
لا يقدم عليه أحد من مشايخ عهدنا».

الشيخ المراغي الآن درة في تاج مصر لن تجد له ندأ ولا ضريباً.
فهو بعيد النظر، هو رجل الدين والدنيا، وصاحب فكر ورأى يكونه
ثم يمشي قدماً لتنفيذه، وقد أفضى إلى أنه سيعمل على تنقية التفاسير
القرآنية من الإسرائيليات، وإنى لجد آسف على استقالة الشيخ المراغي
بالرغم من أنها مشرفة، وفيها درس لحمة العائمه.

نعم إنى آسف لأن في ذلك حرماناً للأزهر من المراغي الذي أصبح

بحق خليفة الإمام « الشيخ محمد عبده » ينسج على منواله ، ويسير في دربه .
والعجيب أن الشيخ المراغى يعانى من بعض المشايخ مثل ما كان يعانى
أستاذه الإمام « الشيخ محمد عبده » ، ولكنهم ينكمشون أمام ذكائه
وبصيرته النافذة ، وشجاعته . على أنهم كثيراً ما حاولوا النيل منه في
الخفاء ، والدس له في الظلام ، وطالما عاونهم بعض المتزعمين الذين
لا بقاء لهم إلا بإشاعة الدجل السياسى ، وخلق ألباب الطغام بالشعوذة
والتضليل . غير أن الإمام المراغى ، درج على الاستهانة بهم جميعاً ،
والقضاء على مفترياتهم ودسائسهم ، واضعاً الإصلاح والصراحة
والإخلاص نصب عينيه .

لقد تنبأ الدكتور محجوب فى اليوم الذى استقال فيه المراغى أنه
سيعود إلى مشيخة الأزهر إذا كتبت له الحياة ، وقد تحققت نبوءته
وعاد إلى الأزهر مكرماً إلى آخر نسمة من حياته ، رضى الله عنه .

وإننا نقتطف ما دمج به يراع الأستاذ العلامة « محمد كرد على بك » ،
فى الأستاذ المراغى - ولا يقدر العظيم إلا العظيم - قال :

- وما نبغ فى مصر من المتأخرين شيخ الأزهر العلامة « الشيخ
محمد مصطفى المراغى » ، اشتهر لا لأنه تولى أعظم منصب فى الاسلام
فقد يتولى المتوسطون بعلمهم أسمى الرتب ، وهم لا يعدون حفظ
ما جرت العادة بحفظه ، ولا تمثلوا ما قرأوه ، اشتهر لأنه حرياً
بالشهرة ، جمع إلى الفقه والأصول ما تعوز العالم معرفته من أصناف
العلم . . . ومن أهم ما ساعد المراغى على تفوقه على أقرانه أنه امتاز

بذاكرة قوية، يذكر ما مر به من خمسين سنة لا يخرم منه معنى .
وقد جمع إلى ذكائه الفطرى استقلال الفكر، وحب الاطلاع ، فما
سد أذنيه وعينه عن سماع الجديد والنظر فيه ...
وصديقنا المراعى خلق عالماً ، امتاز بمروته وما كان فيه جمود
من أخملتهم التُّقىة ...

نظر وهو فى سن الطلب فى علوم لم تدخل برنامج الأزهر ،
وقد قيل لى أنه تعلم اللغة الانجليزية أيام كان فى السودان قاضياً ...
أصبح المراعى شيخاً للأزهر فى الثامنة والأربعين من عمره ،
وندرَ منهم من تولى هذه المشيخة وهو فى هذا السن ، فأتى بنشاط الشباب
وحنكة الشيوخ ، فاهتم الاهتمام كله لإصلاح الأزهر الذى كان واضع
أساس الإصلاح فيه شيخه وشيخنا الأستاذ الإمام « محمد عبده » ..
وأتّم المراعى وضع أساس كليات التخصص ككلية علوم اللغة
العربية ، وكلية أصول الدين ، وكلية العلوم الشرعية ...

أجمع أنصار السيد المراعى وخصومه على أنه كان من خير من
تولى رئاسة الأزهر لصفات كثيرة اجتمعت له وقلّ أن تجتمع لغيره
ذلك لأنه كان يعرف ما هنا وما هنالك ، ويعد من العلماء العارفين
بأزماتهم معرفة ثاقبة . طلب إليه أن يترك رئاسة الأزهر ويعطى
ما شاء من الأقدنة والمال فأبى ، وطلب إليه أن ينضم إلى جهة معينة
فى الرأى (حزب معروف) ويكون له ولأولاده وذوى قرباه ما شاء
من الكرامة فأبى وقال : « إن أولادى وإخوتى فى نظرى أقل من
أن أبيع لهم كرامتى » .

ولقد انتخبه المجمع العلمي العربي عضواً مراسلاً فيه فاعتذر
بكثرة أشغاله قائلاً : « انه استقال من المجمع اللغوي في مصر للسبب
ذاته » ودعوته اينزل على ضيفاً في دمشق ويصطاف في ربوعه فتعذر
عليه البر بوعده لأن حالته لا تمكنه من مغادرة القطر خصوصاً
بعد عودته ثانية إلى مشيخة الأزهر .

لو انتفع الناس ببعض ما تفيض به قرائح المصلحين ما بق في
الناس جهول ولا ضال ، وواجب دعاة الإصلاح ألا يتوانوا فيما
تمحضوا له مهما قل المستفيدون منهم .
المراغي كان أوفر نصيب من العلم والعمل ، فهو خير شخصية
نادرة بين أهل جيله ، رحمه الله رحمة واسعة .

المؤلف : وللاستاذ المراغي فوق ما كان يلقيه من دروس دينية ،
وما كان يجابه به طلاب العلم بين الفينة والفينة بما يزيدهم معرفة ،
ويوسع مداركهم ، تلك الإرشادات التي ألقاها في إحدى خطبه الدينية
نقتطف منها ما يلي :

أمور ثلاثة أيها المؤمنون ، هي أسمى ما يتصوره الإنسان ،
جعلها الله جزاء العمل الصالح المنبعث من الإيمان : استخلاف العاملين
في الأرض ، وتمكين دينهم الذي ارتضاه لهم ، وتبديلهم بعد الخوف
أمناً وطمأنينة .

والاستخلاف في الأرض خلافة عن الله في عمارة كونه ،
وتوزيع العدل والاحسان بين عباده ، وهو يعتمد على القوة وشمول

السلطان ونفاذ الكلمة، وهو مطلب تتفانى الأمم في سبيله، وتضحي بأبنائها وأموالها ابتغاء الوصول إليه .

وما استقامت عقيدة ولا استقر سلطان، ولا وجد مجد وسودد ولا شعرت أمة بالعزة إلا إذا حملتها القوة وبسطت عليها أجنحتها . وهذه المثل قائمة، وشواهد الماضي حاضرة في الذهن ماثلة .

وتمسكين الدين والعقيدة نعمة عظيمة ، ومقصد رفيع ، يتبعه استقرار النفوس وراحة الضمائر، والشعور بالعزة والكرامة . ليس أشهى إلى النفس ولا أمتع للقلب ولا أهنأ للروح من أن يرى الإنسان أن عقيدته صاحبة السلطان والنفوذ في نفوس الناس أجمعين . والامن بعد الخوف أعز مطلب للفرد والجماعة . وللخوف آثار تفسد العقل وتذهب بالتفكير ، وتجعل العيش مريراً ، والحياة مضطربة . وما أحل الأمن يستقر بعد الفرق ، وما أعذبه يتدفق بعد القلق عندئذ يندفع الإنسان نحو العمل صافي القلب، متجهاً إلى الله ملتمساً خير العباد .

وليس الإيمان أيها المؤمنون تصورات تتخيلها العقول وتجري عباراتها على اللسان، وإنما هو عقيدة تملأ القلب وتتبعها آثارها . ومن آثار العقيدة بالدفاع عنها بالنفس، والاستهانة في سبيل نشرها بالمال . ومن آثارها العمل الصالح . وليس العمل الصالح مجرد صلاة تؤدي بالحركات، أو صيام يؤدي بالحرمان من اللذات، أو ذكر يجري على اللسان ألفاظاً ميتة خالية من الخشية والرهبة .

إنما العمل الصالح ما اشتمل على روح الاسعاد : من إخلاص لله ،

وحبة لخير الفرد والجماعة ، وأداء للحقوق كاملة لله ، ولعباد الله .
عباد الله : لاتسعد أمة تتفرق أهواؤها وتصبح شيعاً وأحزاباً رائدها
الهوى ، وقائدها المصالح الخاصة .

لاتسعد أمة لاتعتصم بحبل الله المتين ولا تعتبر بسير الذاهبين الأولين .
لاتسعد أمة تحتكم إلى الشهوات ، وتتعالى عن الآيات ، وتدع النذر ،
وتعمى عن العبر .

لا تسعد أمة تنبذ تعاليم الدين ورائها ظهرياً وتزدرى بالأخلاق
الفاضلة حباً في الاستمتاع بالشهوات وباقي الحياة من لذات .
لاتسعد أمة ينغمس أمراؤها وأغنياؤها في الترف ، ويستعذبون
الراحة ويأنفون العمل ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفياً
ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾ .

أيها المؤمنون :

نحن بين أمرين : إما أن نستضيء بنور العقل ونهتدى بهدى
الشرع ، فنصير في الدنيا إلى عزة نعلو بها في أجواز الفضاء ونخترق
بها أطباق الأرض ، ثم في الآخرة إلى جنة عرضها السماوات والأرض
إلى مغفرة الله ورضوانه .

وإما أن نعمى عن هدى الله ، ونغمض عما حل بالأمم السابقة
أعيننا ، ونغلى مراجل الشهوات فيما بيننا ، فتأكل نيران الأحقاد
قلوبنا ، فنصير في الدنيا إلى ذلة وضعة ، ثم في الآخرة إلى نار وقودها
الناس والحجارة ، إلى خذى من الله وخذلان .

وقانا الله عذاب النار وسوء المصير ، وقادنا إلى الخير وحسن العاقبة ،

وهذاننا إلى ما يرضيه ويقربنا من عفوه ورحمته .

وقال في خطبة أخرى : شب الإسلام عزيزاً لا يعرف الذل ، كريماً لا يقبل الضيم ، وحمله كرام بررة رفعوا لواء عزه ، وشيدوا صروح مجده ، وطوفوا به الآفاق ، نافذ السلطان رفيع المسكن . ثم خلف من بعدهم خلف فتنوا بعرض الحياة الأدنى ، واتبعوا الشهوات وضلوا السبيل ، حسبوا الأمر مغانم تقسم وأسلاباً توزع ، ودنيا مملوءة بالملذات ، فيها دعة وسكون ، وترف ومجون ، وطال عليهم الأمد في ذلك ففقت قلوبهم ، وصرقهم الأهواء عن الهدى الإلهي فساء حالهم ، وصبروا على الذل واطمأنوا إليه .

تحملوا من أصول الاسلام وفضائله ، وسول لهم الشيطان أن التدين عار ، وأن الصلاة والصوم والعقائد وما شرع الله من أحكام تهذب النفوس ، وقوانين تنظم الحياة وتسعدها ؛ ليست إلا بقية من قرون خلت ، لا يليق أن يستمسك بها الرجل المتمدين الذي عرف معنى الحياة ، وما فيها من لذة ومتعة .

بهذا أصبح الاسلام في ناحية والمسلمون في ناحية ، وبينهما فجوة بعيدة المدى والأطراف . تركوا دينهم واستباحوا الشهوات ، ومهدوا لمن لا يعرفون الأديان إلا من حالة أهلها أن يقولوا : إن الاسلام دين لا يعرف العزة والكرامة ولا يميز بين الفضيلة الرذيلة ، فهو دين يبيح الميسر والبغاء والخمر ، ولأهله في ذلك قوانين تنظمها وجرائد ومجلات تعلن عنها . دين يبيح الكذب والزور والرشوة والفجور ، والفوضى في النظام ، والجور في الأحكام . دين يتفنن في السكيد

والنفاق ، وأساليب التفريق والشقاق ، والبغى والعناد ، والإثم والإلحاد .
أيها المسلمون : يقرر القرآن نفي الإيمان ممن لم يرض بأحكام
الله رضا يزيل الحرج عن صدره ويملاً قلبه استسلاماً وطمأنينة .
ويصف بالنفاق من يصد عن الداعي إلى الله ورسول الله .

إن الدين أيها المسلمون مهما امتدت آفاقه وتأول فيه المتأولون
فهو لا يحتمل هذه البوائق ، ولا هذا الإلحاد ، ولا هذه الإباحية
الجامحة ، ولا هذه الشهوات التي لا تقف عند حد . وإنما يحتمل
مدينة فاضلة تقوم على علم كامل ، وعمل صالح ، وخلق فاضل كريم .
يحتمل التمتع بزينة الله وماهياً لعباده من طيبات ، يأمرهم بالمعروف
وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث .

هذا هو الإسلام أيها المؤمنون ، فسارعوا إلى مغفرة من ربكم ،
وانقذوا الناس من أسباب الدمار والتهلكة . واعلموا أن الله أهلك
الأمم الغابرة لأقل من هذه الشرور والآثام .

كتاب الله قانون ، وسنة رسوله قانون ، وما اتفق عليه أهل
الحل والعقد من المسلمين بما لا يخالف نصاً في الكتاب ولا في السنة
قانون ، والرد عند التنازع إلى قواعد الدين العامة وأحكامه الكلية
قانون ، وكل هذه القوانين أمانة استودعكم الله إياها ، واستحفظكم
عليها ، وأنزل عليكم في محكم كتابه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا
الله والرسول وتخونوا أمانتكم وأنتم تعلمون ﴾ .

هكذا عاش المراعى ، وهكذا نهض بتعاليم الدين الإسلامى

وارشاداته تلك النهضة المباركة في مصر وغيرها ، وقد أدى رسالته هذه خير أداء ، نفع بها الإسلام والمسلمين ، وكان عمله متواصلا حتى آخر رفق من حياته .

توفيق اسماعيل بك

عضو مجلس الشيوخ عن دائرة بني احمد

هو مجاهد لا يعلن عن نفسه ، ولقد جاهد بالنفس والمال . يجمع بين الرجولة والكرامة والكرم . لما زرته في سجن مصر بعد صدور الحكم عليه من المحكمة العسكرية العرفية الإنجليزية في سنة ١٩١٩ - ١٩٢٠ لأسباب وطنية ، ألفتته غير متأقف من السجن ، ولا من الظلم الذي حلَّ به ، وهو الكريم المنبت ، مع أن « كرام الطير يريدها الحنين » ، غير أنه روى لي هذه الرواية العجيبة قائلا : « حقاً إن الكفر مخبئة لنفس المنعم ، والشكر مبعثة لنفس المفضل ... أشكو إليك يا دكتور نكران الجميل عند بعض الناس . يوجد هنا في سجن مصر ضابط برتبة يوزباشي ، يعمل هذا الضابط على اضطهادي ، ويتغالي محاولاً إكراهي على إعطائه رشوة ، مع أنه وَلِدَ في بيتي ، وتربى وترعرع في منزلي ، وأنا الذي أنفقت عليه في جميع مراحل التعليم ، وذلك لأن والده كان من خدم والدي .. فيا دكتور ، أنا لا يضايقني السجن بقدر ما يحز في نفسي لؤم هذا الضابط فوق نكرانه لجملي ، وذلك لأنه يقابلني بوجهه كالبغي رمي النقاب ، وجهه قد غاض منه ماء الحياة .. فما رأيك يا دكتور ؟ ، فقلت له : « لن تراه بعد اليوم » .

سألت الدكتور : « ماذا فعلت لهذا الضابط الذى بالغ فى نكران
جميل المحسن إليه فى وقت ضيقه ؟ » .
قال :

— توجهت إلى على طلعت بك المفتش بالسجون لعلنى أنه من
أشرف الضباط وأنزههم ، وكان على جانب عظيم من حسن الخلق ، فلما
رويت له تصرفات هذا الضابط مع توفيق بك غضب غضباً شديداً وتوجه
فى الحال إلى سجن مصر ، وأشبعه إهانة وأوسع تحقيراً ، ثم نقله فى الحال .
ثم قال الدكتور : « إنه ضحى بمال كثير فى سبيل الحركة الوطنية
فى خفاء مصحوب بالحياء ، وعاون الكثيرين من المجاهدين فى
سبيل الوطن » .

عبد الحميد البنان بك

يحرص على أن يسمع كثيراً ، ولا يتكلم إلا قليلاً وعند الاقتضاء . على
أنه يقول المفيد المصحوب بالرأى السديد ، وقد يسخر فى الغالب
من يقولون سخفاً . وعلى العموم فهو يعتبر الكلام كراس المال
يجب أن ينفق منه دون أن يمس الرصيد . ينقد كلام سماره كما ينقد
الصراف النقود ، وهو بعد ذلك الكريم الذى تهزه الأريحية ، يسارع
إلى المكreme ، وعمل الخير ، ويجانب الشر ، ويتجافى عن الإيذاء ،
واسع الصدر ، بعيد الغضب ، قريب الرضا . ثم هو حاتم زمانه
فى مادبه المتابعة . يعاون طالبى رفده المعوزين إذا قصدوه ، ويتدرهم
إذا لم يقصدوه بالعطاء الكريم فى سر وخفاء ليحفظ ماء وجوههم

ولكن لم يستطع أحد أن يخدعه من المتصلكين المتاجرين
بالتظاهر بالبؤس .

محمد حلمى عيسى باشا

هذا رجل يمثل طيبة الآباء والأجداد . ويمتاز بالعلم الغزير ،
والتواضع المحمود الكثير ، وهو عندى مثل بارز للهوّة ، وعنوان
واضح للأريحية . يحدوه دائماً حسن النية ، وفى لأصدقائه وفاؤه
لوطنه ، هو فى الرعيل الأول من الوطنيين الذين غدوا الحركة الوطنية
بالمال والجهد ، وقدّر له المرحوم حسين رشدى باشا وطنيته ونزاهته
وإخلاصه فكان يستشيريه ويعمل بموجب رأيه ، رأيته وزيراً للمعارف
سنة ١٩٣٠ إبان الأزمة المالية العالمية ، أى فى ذلك الوقت الذى
كان يقول فيه من يملك مائتى فدان : « عندى ٢٠٠ فدان ، وعندى
ولدان » ، ومعنى هذا أن القائل كان يقول ذلك ليفهم الناس أنه
ينفق على المائتى فدان ، لأن الإيراد لم يكن يفي بنفقات الزراعة
لهبوط ثمن المحصول وارتفاع نفقات الزراعة ، وهو فوق هذا ينفق
على ولديه كما ينفق على أرضه .

فى ذلك الوقت رأيت بعينى رأسى أن خصوم الحكومة ، بل
أعضاء الحزب الذى كان يطعن فى سياسة الحكومة متجنياً ويقبح
حسناتها ، يلجأون إلى حلمى باشا راجين أن يقبل أولادهم بالمجان
فى مدارس الحكومة . مظهرين عجزهم عن دفع نفقات الدراسة . فكان
يقبل رجاءهم وينفض النظر عن خصومتهم الحزبية . وإلى أعلم أن

أحد كبار موظفي الوزارة - وقد أصبح وزيراً فيما بعد - قد توجه إلى حلى عيسى باشا يوماً وقال له : « لقد كثرت المجانية وإن فلاناً وفلاناً وفلاناً ... إلى آخر الأسماء التي ذكرها ذلك الموظف الكبير أغنياء ومنهم أبناء الذين يمولون الحزب المحارب للحكومة ، . فرد عليه حلى باشا في حزمٍ بقوله : « إن وزارة المعارف هي لمجموع الأمة على اختلاف أحزابها ، وأنا جالس على هذا الكرسي لا أعرف الحزبية ، إنما يقضى على الواجب أن أعمل لمصلحة جميع أبناء الأمة ، وإن وزارة المعارف ليست وزارة تجارية وإنما هي وزارة للتعليم ، فلا يجوز إذن أن نعطل مئات الطلاب من الالتحاق بالمدارس والمعاهد خشية أن يغشنا عشرات الطلاب ، وسياسي تتلخص في أن أقبل كل طالب يجيئني ولي أمره طالباً المجانية ، وبعد ذلك نبحث عن غشنا ، .

انظروا يا بني إلى هذا الخلق وجماله ، وإلى هذه الأريحية وجلالها . ثم قال الدكتور : « أخبرني أحد نظائر المدارس قائلاً : إن حلى عيسى باشا طلبني تليفونياً وأمرني أن أقبل أحد الطلاب بالمجان ، وأن لا يطلع على اسمه أحد من موظفي المدرسة ، وأن أثبت اسم الطالب في الدفاتر بنفسى حتى لا يتداول الاسم من كاتب إلى آخر فيعرف اسمه ، وكذلك أمر زميلاً لي وهو ناظر مدرسة أخرى قبول الابن الثاني ، وكان الطالبان ابني إحدى شقيقات النحاس باشا ، وقال لي هذا الناظر - أي للدكتور محجوب - لما رويت هذه الرواية لأحد موظفي وزارة المعارف ، أخبرني بأن شقيقة النحاس باشا توجهت إلى وزارة المعارف وطلبت

مقابلة الوزير، فلما قابلها حلبي باشا قالت له : إنها جاءت ترحوه في قبول ولديها بالمجانبة . فإذا بالوزير يقول لها مُطِيباً خاطرها : كان يكفي أن تتفضلى بإرسال خطاب خاص بدل أن تتعبي نفسك بالحضور ، وعلى كل حال سيلتحق ولدك بالمدارس مجاناً في هذا اليوم .
قال الدكتور محبوب : « إن حلبي عيسى باشا ألحق مئات الطلاب بالمدارس بناء على رجائي » .

ثم قال : « لما قيل لمحمد حلبي عيسى باشا إنك تسرف في قبول أبناء الطبقات الفقيرة بالمجان أجاب : إن النابغين يخرجون غالباً من أصلاب الطبقات الفقيرة ، من يدرى لعل من أبناء الفقراء الذين نقبلهم يحمي محمد عبده آخر ، أو مصطفى كامل ، أو أمين الرافعي . إني لن أحول بين التعليم وراغبه » .

الشيخ عبد العزيز البشري

كاتب مٌصور في كتابته ، وعالم بالوراثه ، وأديب بالسليقة ، يصيب الهدف بكتابته ، حاضر البديهه في جده ومزاحه ، بارع النكته يرسلها عفواً .

عبد الله فكري أباطة بك

هو موظف كفء ، يعتز بكرامته ، ويصون شخصيته وخلقه أمام رؤسائه ، رأيته يعطف على مرموسيه غطفاً مقروناً بالعزم .

أنظون الجميل بك (باشا)

هو كاتب مجيد ، مقل في كتابته ، مسكث في معانيها ، وعلى الرغم من أنه عصبي المزاج ، فإن الكثيرين من الذين يتصلون به لا يفتنون إلى ذلك ، لأنه يكظم غيظه إذا ضاق صدره ، وتراه دائماً يجنح إلى الحلم ، ثم إنه واسع الإطلاع ، عميق التفكير ، يحب الخير للناس ويعمل لهم ما في وسعه وفوق طاقته ، وإنه كريم النجار ، شريف الخصال ، ظريف الحديث ، لطيف العشرة .

على راتب بك

هو شريف المنبت ، واسع الاطلاع ، جميل الخلق والفعل ، صريح القول ، أبى ، يعتز بكرامته ويعتد بوطنيته .

على على بسيونى بك

من نواب البحيرة

وطني للوطنية ، ذو عقيدة ، وصاحب مبدأ ، عزيز النفس ، ظل يجاهد في سبيل الوطن حتى أنفق ثروته في معاونة الحزب الوطنى وهو من تلاميذ مصطفى كامل ، ومع أنه انتخب نائباً في جميع الجهود لم يقف على باب وزير ، ولم يجر وراء مغنم ، ولم يستطع أن يساومه زعيم أو وزير ، إنه (نسيج وحده) في وطنيته ، تتقلقل الجبال الراسيات ولا يتزحزح على بسيونى عن مبدأ الحزب الوطنى قيد أنملة .

حسن فهمى رفعت باشا

أعرفه من يوم أن كان طالباً ، ثم موفداً فى بعثة علمية إلى الخارج ، كان مثال الطالب المواظب المتعطش للعلم . أما فى الوظائف الحكومية ، فهو نزيه فى عمله ، وإنى لأرى صورته فى ذهنى كالاتى : القانون فى يمينه ، وكتاب إخلاصه لعمله فى يساره ، وسيجارتته فى فمه . ولا شك أنه يتظاهر فى كثير من الأحوال بأنه محدود الذكاء ، مع أنه فى غاية الذكاء ، ثم هو عميق الغور ، بعيد النظر .

محمد فريد أبو حديد بك

كاتب عبقرى ، ومؤلف مجيد ، وهو حليم غضوب ، ووطنى مخلص يعرف متى يغضب ومتى يحلم ، يضع دائماً كرامته وعلمه نصب عينيه ونزاهته فوق كل ذلك ، لا يحسد أنداده ، ولا يحقد على حساده ، يشجع من دونه ، وأقل من القليل هم من نوعه وطرازه من حيث الضمير فوق ما تقدم .

محمد لطفى محمود بك

هو مثل طلعت حرب ، ويصح أن يكون فى قابل الأيام القرية خليفة له ، وليس أجدر منه بملء الفراغ الذى تركه صديقى طلعت حرب باشا إذا حسن الاختيار .

وطلعت حرب هو الذى غير مجرى حياته حينما أقنعه بأن ينبخرط فى سلك « بنك مصر » ، ليكون معاونه ومستشاره ، ولولا طلعت حرب وإقناعه بذلك ، لكان الآن أحد موظفى الدولة ،

ولكن ما كان يظهر نبوغه وعبقريته كما ظهر في المؤسسة القومية التي لها قدرها وقيمتها .

وهو شخص ، جميل الخلق ، دمث الأخلاق ، حسن العشرة وبجانب ذلك فهو يجمع بين الحزم والعزم ، ولا تغرنك ابتسامته إزاء مرموسيه ، فهو الرجل الصارم في عدل وحرص ، إذا ما أهملوا . وعندي أنه في صورة مشابهة لاسماعيل صدقي ، طلق الوجه ، بعيد الغضب ، ولكنه حازم صارم في مواطن الجد والعمل وفيه جوانب من عبد الخالق ثروت ، وعبد الحميد بدوي .

الأستاذ سليمان فوزي

صاحب الكشكول

كان صحافياً ممتازاً ، وكان شجاعاً مقداماً ونهاباً وهاباً . هو أستاذ النقد اللاذع ، والتهكم القاذع ، حسناته أكثر من سيئاته ، هو أستاذ لكثيرين ممن أصبحوا صحافيين ، ولكن أكثرهم قابلوا جميله عليهم بالجحود ، وفضله بالكثود ، بالرغم من أن يده البيضاء عليهم .

ولا مرأ في أن سليمان فوزي كان أستاذ النقد في هذه البلاد ، ولن يستطيع أحد من جاموا بعده أن يشق غباره . كان سليمان فوزي مدرسة للصحافة الحرة ، ومن عجب أن الذين أساءوا إليه هم الذين أحسن إليهم .

الأستاذ جورج طنوس

صحافي بارع ، وكاتب خفيف الروح مخلص لأخوانه . جميل الخلق
عمل في الصحافة باخلاص ، وكان نزيهاً فيما يكتبه سواء في المدح والثناء
أو في الوصف والتعير .

الأستاذ محمد الهياوي

كان الأستاذ الهياوي أوحداً في أدبه ، وكوكباً في وطنيته ،
شديد التمسك بالتقاليد الشرقية ، وفذاً في غيرته الدينية ، ثم هو مر
النفس ، حمى الأنف ، كان شاعراً مجيداً ، وكاتباً ممتازاً ، ولقد جاء
وقت استؤجرت فيه الأقلام ، فرفع الهياوي علم الوطنية في جريدة
الأمة . لم يستطع زعيم أو حاكم أن يغريه بالمال أو يستأجره .
ولو أنه سار في درب الأساتذة (ع ا) و (م ا) لاغتنى مثلهم .
كان نديد أمين الرافعي في وطنيته ونزاهته وقوة شكيمته ، عاش
متصوناً عن المادة ، مترفعاً عن كل ما يشين .

كان قوى الحججة ، ذرب اللسان ، شديد العارضة .

قال الأستاذ الشاعر المطبوع محمد الحناوي في رثائه للهياوي :

يا صاحب القلم العصي على المؤمل في شرائك
يا كاتب الأدب الطلي يزينه وافي أدائك
كم جزت بالرأي المسدد كل صعب الخوض شائك
وشقيت والأوشاب في النعماء تضحك من شقائقك
يتندرون بما تفشي بينهم عن كبرياتك

زعموه داء موهنا ، ياليتهم مرضوا بدائك
 جهلوك إذ حسبوا المشارف والمناعم من دوائك
 أنت الذى لو شئت لارتد الغنى عقبى ندائك
 أو لو أردت لأصبحوا من بين وصّافى ثرائك
 أو لو سلكت سيلهم لتركتهم أسرى عطائك
 لكنك اخترت الزهادة لا دنيا هنالك
 وشريت كرسى الصحافة بالمناصب والأرائك
 وأبيت أن تحيا ذليلا مثلبا يحيا أولئك
 كان الدكتور يترنم بهذه الآيات ويعجب ثم يقول : ترى
 هل يرثينى الحناوى بمثل هذه الآيات ؟ .



الورد كرومر

ولما سألت الدكتور محجوباً رأيه في اللورد كرومر ، أجاب :
 — لقد حاول أن يظهر بمظهر المحسن إلى المصريين في الوقت
 الذي كان ينتزع فيه سلطة الخديو ، وسلطة الحكومة المصرية جميعاً .
 وقد جعل الكلمة العليا على المصريين لأقل موظف بريطاني ، ولو كان
 مرءوساً للمصري ، وهو الذي أشار على وزير خارجية إنجلترا بأن
 يوجه إليه تلغرافه المشهور الذي حتم فيه أن ياتمر الوزير المصري
 بأمر أقل موظف في ديوانه «... وإلا...»

لقد أساء إلينا اللورد كرومر إساءات شتى ، في سبيل أن يجعل
 من مصر العربية ومصر الفرعونية مستعمرة بريطانية ، وفي سبيل
 انتزاع السودان الجزء المتمم لمصر ، منع الحكومة المصرية التي كان
 يرأسها مصطفى فهمي باشا ، الذي كان آلة صماء في يده ، من إخماد
 ثورة (محمد المهدي) في السودان^(١) . كان اللورد في الوقت الذي
 يمنع فيه الحكومة من إخماد ثورة السودان ، يغذيها بجميع
 وسائل التغذية . ومن هذه الوسائل : تشجيع الثائرين ، فلما استفحلت
 الثورة ، كما كان مقدراً ومفهوماً حسب الخطة المرسومة ، أصدر
 أوامره بتوجيه تجريدة عسكرية إلى السودان ، بعد أن جعل قوادها
 وأطبائها من الإنجليز ...

(١) راجع فصل (الدكتور محجوب والسير لي ستاك باشا) .

ومن العجيب أن اللورد كرومر لم يخبر رئيس الحكومة المصرية بنبأ الأمر الذى أصدره ، مع أن رئيس الحكومة كان ألوبة في يده يحركها كيف يشاء ، على أنه أخبر الخديوى والحملة في طريقها إلى السودان . أما رئيس الحكومة ، فقد أحيط علماً فيما بعد ولم يحرك ساكناً ولم يغضب ، وعلى الأقل لم يتأفف ، ولا أدرى يا بنى أى رجل كان

سألت الدكتور محجوباً : « لماذا أجبر اللورد الحكومة المصرية على عدم إخماد ثورة المهدي قبل استفحالها في أوانها ؟ » .
 فأجاب : « ليتيح لانجلترا المساهمة بذلك النصيب التافه في إخماد الثورة لتتخذها ذريعة لتلك الشركة التي أصبحت اسماً على غير مسمى . . .
 ولقد عرض اللورد كرومر عمداً حياة غردون باشا للخطر بعدم استجابة استغاثته بطلب إمدادات عسكرية ، بل تسبب عمداً في قتله شر قتلة على يد الدراويش ، لتكون الضحية الإنجليزية دسمة وثمينة بالغة القيمة في نظر العالم الأوربي ، وذلك أسلوب من أساليب السياسة الإنجليزية . »
 ثم أخرج الدكتور من درج مكتبه كتاباً انجليزياً كان يحتفظ به وأخذ يطالعه متوجعاً متهاكماً على ما جاء فيه . ثم قال :

— استمع إلى اللورد كرومر ، بعد أن خرج من مصر مستغنياً أو معزولاً بقوة حملات المغفور له مصطفى كامل باشا الذى ملأ سمع الدنيا دويماً وطنياً ، والذى حرك ضمير العالم المتمدن ، ولفت أنظار رجال السياسة إلى ما تعانيه مصر ، من جبروت انجلترا ، وطيغان معتمدها في حادثة دنشواى .

فإذا اللورد بعد أن أخرج بالانتقاد في انجلترا لتصرفه الفظيع في دنشواى وتعريضه حياة غردون للضياع ، يؤلف كتاباً دفاعاً عن نفسه من جهة والتبرير موقفه حيال غردون من جهة أخرى ، وفي سبيل محاولة إسكات ذوى الضمائر من أعضاء مجلس النواب من جهة ثالثة . لبث يدافع عن سياسته دفاعاً يزرى بدفاع أعظم محام عن أكبر جان ، وإذا به يحاول - فى سبيل الدفاع عن سياسته - ينسب إلى ضحيته غردون الغرور ، مصوراً إياه فى صورة الذى لا يقبل النصح . ولقد حاول كرومر فى كتابه أن يحيط من قدر المغفور له الخديو « عباس الثانى » ، فإذا به يرفعه - دون قصد - إلى أعلى درجات الوطنية ، ولو أتيح لى يا بنى أن أضع كتاباً فى تاريخ كرومر لقرأت العجب العجائب .

ثم قال الدكتور بعد أن أغمض عينيه لحظة :

— لو كان اللورد كرومر قد جاء إلى مصر ملاك رحمة ، كما كان يريد أن يزعم ، فإن حادثة دنشواى لتجعله شيطان الظلم الصارخ ، و « نيرون » زمنه . إن هذا الرجل الذى كان يلقب نفسه بصديق ذوى الجلايب الزرقاء ، قد أمعن فى عقابهم عقاباً جاء فريداً فى قسوته وبشاعته . لماذا ؟ لأن فلاحى قرية دنشواى المنسكوبة ، قد اعترضوا على كل من السكابتن (اليوزباشى بول ، والصاغ كوفى ، والملازم بورثر - أو آرثر ، والطبيب الإنجليزى ... إلخ) هذه الأسماء من ضباط الجيش البريطانى الذين جاءوا لحماية عرش الخديو - كما زعموا - ولتحملوا ألوية الحضارة الأوربية ، والمدنية الغربية ، إلى الشرق المتأخر

في مضمار المدينة هذا الشرق المنكوب الذي كان آباء أبنائه وأجدادهم يحملون حقاً ألوية الحضارة الحقيقية... كان خلفاء الإسلام يوصون جنودهم: (بأن لا يجهزوا على جريح، وأن لا يتبعوا مهزوماً، ولا يدوسوا على زرع... إلخ...) ولكن جنود انجلترا المتمدنة لم يكتفوا بالدوس على الزرع، في سبيل إرضاء شهوة الصيد، حرّقوا أجران الغلال، وأصابوا النساء والرجال برصاص بنادقهم، فلما اعترضهم فلاحو دنشواي ملحّين في الرجاء أن لا يتسببوا في سبيل الصيد في حرق غلالهم، كَبُرَ عليهم الرجاء فأصابوا الآدميين فإذا بكرومر «المتمدن» جداً يعاقب المعترضين بالشنق والجلد بطريقة تزرى بوسائل محاكم التفتيش في القرون الوسطى.

ارتسب اللورد كرومر ما ارتسبته على الرغم من أن أبناء جلدته هم الذين اعتدوا على ذوى الجلاليب الزرقاء، وعلى الرغم من أن الطبيب الشرعى الانجليزى قرر في فحصه أن وفاة (اليوزباشى بول) كانت نتيجة إصابته بضربة الشمس...

على أن اللورد كرومر الذى أراد بفعلته أن يذل المصريين ويدجنهم، كان بالعكس، هو الذى أيقظ النائمين، ونبّه الغافلين، ثم أعطى سلاحاً ماضياً للبخفور له مصطفى كامل باشا باعث الحركة الوطنية، الذى استغل حادثة دنشواي أحسن استغلال، وحرك ضمير العالم.

وإليك قول شوقى بعد مرور عام على حادثة دنشواي :
يادنشوايَ على ربّاك سلام ذهبتْ بأنس ربوعك الأيام
شهداء حُكِمَ في البلاد تفرقوا هيات للشمل الشتيت نظام

مرّت عليهم في اللحد أهلة
كيف الأرامل فيك بعد رجائها
عشرون بيتاً أقفرت وانتابها
يا ليت شعري في البروج حائم
(نيرون) لو أدركت عهد كرومر
نوحى حائم دنشواى وروعى
إن نامت الأحياء حالت بينه
متوجع يتمثل اليوم الذى
السوط يعمل والمشائق أربع
والمستشار إلى الفضائع ناظر
في كل ناحية وكل محلة
وعلى وجوه الثاكين كآبة
ومضى عليهم في القيود العام
وبأى حال أصبح الأيتام
بعد البشاشة وحشة وظلام
أم في البروج منية وحمام؟
لعرفت كيف تنفذ الأحكام
شعباً بوادى النيل ليس ينام
سحراً وبين فراشه الأحلام
ضجعت لشدة هوله الأقدام
متوحدات ، والجنود قيام
تُدعى جلود بحوله وعظام
جزعاً من الملاء الأسيف زحام
وعلى وجوه الثاكين كآبة

من سيئات كرومر

وقال الدكتور محجوب : « وفي مقدمة سيئات كرومر محاربته
للتعليم في مصر بواسطة المستر (دنلوب) المعروف ، الرجل الميت الضمير ،
المحدود الذمة الذى حارب التعليم في مصر ، وحارب ذوى الضمائر من رجال
التعليم ، وكان سنده اللورد كرومر ، هذا الرجل الذى لم تنسكب أمة
بمثله في أى عصر من العصور . وما أبلغ قول شوقي موجهاً كلامه
إلى كرومر رداً على ما تفرص به في حفلة وداعه :

أيامكم أم عهد إسماعيلاً أم أنت فرعون يسوس النيل

أم حاكم في أرض مصر بأمره
يا مالكا رق الرقاب يأسه
لما رحلت عن البلاد تشهدت
أوسعتنا يوم الوداع إهانة
هلا بدا لك أن تجامل بعدما
انظر إلى أدب الرئيس ولطفه
تجد الرئيس مهذباً ونيلاً
فكأنك الداء العيا رحيلاً
أدب لعمرك لا يصيب مثلاً
صاغ الرئيس لك الثنا إكليلاً
تجد الرئيس مهذباً ونيلاً

في ملعب للضحكات مشيد
شهد (الحسين^(١)) عليه لعن أصوله
جبن^٢ أقل وحط من قدريهما
لما ذكرت به البلاد وأهلها
أنذرتنا رقاً يدوم وذلة
أحسبت أن الله دونك قدرة؟
الله يحكم في الملوك ولم تكن
فرعون قبلك كان أعظم سطوة
اليوم أخلفت الوعود حكومة
دخلت على حكم الوداد وشرعه
هدمت معالمها وهدت ركنها
قالوا: جلبت لنا الرفاهة والغنى
وحياة مصر على زمان محمد
ومدارساً ببني البلاد حوافلاً
مشت في المبيكات فصولاً
وتصدّر (الأعمى^(٢)) به تطفيلاً
والمرء إن يجبن يعيش مرذولاً
مثلت دور بئاتها تمثيلاً
تبقى وحالاً لا ترى تحويلاً
لا يملك التغيير والتبديلاً؟
دول تنازعه القوى لتدولا
وأعز بين العالمين قبيلاً
كنا نظن عهداً الإنجيلاً
مصر آفكانت كالسلال دخولا
وأضاعت استقلالها المأمولا
جحدوا الإله وصنعه والنيل
ونموضها من عهد إسماعيل
حظ الفقير بهن كان جزيلاً

(١) هو الأمير حسين .

(٢) الشيخ عبد الكريم سليمان من حملة العائم وكان يتودد إلى كرومر .

ومعاقلا لا تمحى آثارها
 وجداولا بين الضياع جوارياً
 ومداثناً قد خططت وطرائقاً
 والقطن مزروعاً بفضل محمد
 قد مد إسماعيل قبلك للورى
 إن قيس فى جود وفى سرف إلى
 أو كان قد صرع (المفتش)، مرة
 لا تذكر السكراباج فى أيامه
 وامدح قصوراً شادهن بواذخاً
 لو أنه لم يينها لتخذتمو
 كم منة موهومة أتبعها
 فى كل تقرير تقول خلقتكم
 هل من نذاك على المدارس أنها
 أم من صياتك القضاء بمصر أن
 أم هل يعد لك الإضاءة منة
 انظر إلى فتياهه ما شأنهم
 حرمتهم أن يبلغوا رتب العلا
 فإذا تطلعت الجيوش وأملت
 من بعد ما زفوا لإدوارد العلا

وجيوش إبراهيم والأسطولا
 تذر اليباب مزارعاً وحقولاً
 كانت حزوناً فاستحلن سهولا
 فى مصر محلوجاً بها مغزولا
 ظل الحضارة فى البلاد ظليلاً
 ما تنفقون اليوم عدُّ بخيلاً
 فلکم صرعت بدنشواى قتيلاً
 من بعد ما أنبت فيه ذيولا
 قد أصبحت مأوى لكم ومقيلاً
 منها المضارب والحيام بديلاً
 مناً على القطن الخبير ثقيلاً
 أفهل ترى تقريرك التنزيلاً
 تذر العلوم وتأخذ (الفوتبولاً)
 تأتى بقاضى (١) دنشواى وكيلاً
 جيش كجيش الهندبات ذليلاً
 أو ليس شأننا فى الجيوش ضئيلاً
 ورفعت قومك فوقهم تفضيلاً
 مستقبلاً لم يملكوا التأميلاً
 فتحاً عريضاً فى البلاد طويلاً

(١) احمد فتحى باشا الذى عين وكيلًا للحقانية وكان من قضاء مأساة دنشواى التى سميت قضية .

لو كنت من حمر الثياب عبدتكم
أو كنت بعض الإنكليز قبلتكم
أو كنت عضواً في (الكلوب) ملأته
أو كنت قسيساً يهيم مبشراً
أو كنت صرافاً بلندن دائماً
أو كنت (تيمسك) ملأت صحائفي
أو كنت في مصر نزيراً جاهداً
أو كنت (سريونا^(١)) حلفت بأنكم
ما كان من عقباتها وصعابها
عهد الفرنج وأنت تعلم عهدهم
فارحل بحفظ الله جل صنيعه
واجمل بساقتك ربطة في لندن
أو شاطر الملك العظيم بلاده
إنا نتمنينا على الله المنى
من سب دين محمد فحمد

من دون عيسى محسناً ومنيلاً
ملكاً أقطع كفه تقبيلاً
أسفاً لفرقتكم بكاء وعويلاً
رتلت آية مدحكم ترتيلاً
أعطيتكم عن طيبة تحويلاً
مدحاً يردد في الوري موصولاً
سبحت باسمك بكرة وأصيلاً
أتم حبوتم بالقناة الجيلاً
ذلتموه بعزمكم تذليلاً
لا يبخسون المحسنين قتيلاً
مستعفياً إن شئت أو معزولاً
واخلف هناك غراي أو كميلاً
وسس الممالك عرضها والطولاً
والله كان بنيلهن كفيلاً
متمكن عند الإله رسولاً

* * *

ومن سيئات كرومر أنه أيضاً قد أشاع النفاق والرياء، وصغر النفس
في صفوف متطلبي المناصب الكبرى، من أمثال ذلك الوزير
(أبو ريال) الذي وقف خطيباً في حفلة افتتاح مدرسة محمد علي
الصناعية بالإسكندرية، في وجود الخديو، يشيد بحسنات كرومر

(١) مدير قناة السويس .

الموهومة — في غيابه — مبالغاً في الرياء والنفاق والتقرب ، وبذلك
قضى على تاريخه الوطنى ، وقد كانت له مواقف وطنية لا بأس بها ،
وهذا الوزير هو الذى خاطبه صديق شوقى يا بنى بقوله :

كبير السابقين من الكرام	برغى أن أنا لك بالملام
مقامك فوق ما زعموا ولكن	رأيت الحق فوقك والمقام
لقد وجدوك مفتوناً فقالوا	خرجت من الوقار والاحتشام
وقال البعض كيدك غير خاف	وقال رمية من غير رام
وقيل شططت في الكفران حتى	أردت المنعمين بالانتقام
غمرت القوم إطرأً وحداً	وهم غمروك بالنسب والجسام
رأوا بالأمس أنفك في الثريا	فكيف اليوم أصبح في الرغام
أما والله ما علموك إلا	صغيراً في ولائك والخصام
إذا لم تكن للقول أهلاً	فالك في المواقف والكلام ؟
خطبت فكنت خطباً لا خطيباً	أضيف إلى مصائبنا العظام
لهجت بالاحتلال وما أتاه	وجرحك منه لو أحسست دام
وما أغناه عن قال فيه	وما أغناك عن هذا الترامى
أجبتك البلاد طويل دهر	وذا ثمن الولاء والاحترام
حقرت لها زماماً كنت فيه	لعوباً بالحكومة والزام
محاسنه غراسك والمساوى	لك الثران من حمد وذام
فها قلت للشبان قولاً	يليق بحافل الماضى الهام ؟
يبث تجارب الأيام فيهم	ويدعو الرابضين إلى القيام
خطبت على الشبية غير دار	بأنك من مشييك في منام

إلى أن قال :

وكيف ينال عون الله قوم سراتهم عوامل الانقسام
إذا الأحلام في قوم تولت أتى الكبراء أفعال الطغام
فيا تلك الليالي لا تعودى ويا زمن النفاق بلا سلام
أحبك مصر من أعماق قلبي وحبك في صميم القلب نام
سيجمعني بك التاريخ يوماً إذا ظهر الكرام على اللثام
لأجلك رحت بالدنيا شقياً أصد الوجه والدنيا أمانى
وأنظر جنة جمعت ذئاباً فيصرفني الإباء عن الزحام
وهبتك غير هيباب يراعاً أشد على العدو من الحسام

وقال الدكتور : « على الرغم من أن اللورد كرومر أشاع النفاق والرياء في نفوس الكثيرين من متطلي المناصب الحكومية الكبرى فإنه هو شخصياً كان آية في نزاهة اليد . . . كان في استطاعته أن يخرج من مصر وهو أغنى رجل في العالم ، ولكنه خرج منها خالي الوفاض لم يستفد منها دانقاً ولا ملياً .

على أنه أفاد أمته . وهل يلام ؟ . . . خرج كرومر من مصر فقيراً ، فكان آية في الرجال من حيث النزاهة وعدم استغلال المركز الذى كان يشغله ، فأنا معجب به من هذه الناحية وكان صديقي المرحوم مصطفى كامل أيضاً يباهر بإعجابه به من هذه الناحية ، هو من بناء الامبراطورية البريطانية ، هو جدير بتقدير أمته ، كما أن رجالنا الذين اتخذهم آلات طيعة في يده أحرى أن يكونوا موضع احتقار المصريين ما طلعت شمس وناح قرى على غصن بان ، .

ما يبرز لمبسونه (اللورد كليريه)

هذا رجل ، من حق الإنجليز أن يقيموا له تمثالا من الذهب الخالص وذلك لأنه في سبيل بلاده خدع أمة ، وهى الأمة المصرية ، ثم كاد أن يقضى على المثل العليا فيها وعلى الوطنية المصرية ، وكاد يجعل الاحتلال الإنجليزي الباطل شرعياً ، حاول ذلك في مفاوضاته ، لولا يقظة الأمة وحذرهما ، ومواقف محمد محمود وإسماعيل صدقي واحمد ماهر ، (راجع خطبهم في مجلس النواب سنة ١٩٣٦ فى أثناء عرض المعاهدة).

ولكن المجرمين المتاجرين بالوطنية هم الذين عاونوه ، وهم الذين ظلوا يعاونون من تعاونوا معه بعد أن جرح كرامتنا جرحاً لا يندمل ... وهنا تأثر الدكتور محبوب ، واغرو رقت عيناه ، وانهمرت دموعه حتى اخضلت لحيته بالدمع الغزير ، لكنها دموع الغيظ والغضب ، وما أقسى دموع الرجل فانهزت الفرصة وسأله : « لماذا أراك غاضباً ، وكدت تذهل ؟ » قال : « إن كان لمصرى أن يجعل الحلم رائده ، والتسامح خطته ، ينبغى أن يزولا . ولكن الغضب يجب أن ينصب على المتاجرين بالوطنية من المصريين الذين تعاونوا مع اللورد كليرن . ويجب أن لا ينسى المصريون أن لمبسون كان يعلم قطعاً ، قبل إقدامه على ما أقدم عليه أن المصريين لم يفضلوا على الإنجليز الألمان أو الطليان كأصدقاء حلفاء أو كخصوم ، كما كان يعلم أن المصريين لا يكرهون الإنجليز لأنهم إنجليز إنما يكرهونهم باعتبارهم محتلين لبلادهم ، وكان لمبسون يعلم أن المصريين

يحترمون الشعب البريطاني كشعب راق ، ولكنهم يمتقنون الحكومة الإنجليزية لأنها أضاعت استقلال مصر بسياستها ، سياسة الغدر والمطالبة . وكان يعلم أن المصريين لن يفضلوا عليهم أية أمة حليفة أو محتلة ، وكان يعلم أيضاً أن من المصريين من كان حينما يسمع أنباء المعارك الحربية التي تدور رحاها بين الإنجليز وبين أعدائهم يقابلون أنباءها بإحساسين هما السرور والخوف في آن واحد ، أما السرور فكان السفير البريطاني يعلم أن سببه هو أن الإنجليز الذين أذاقوهم عذاب الهون ، وأشبعوهم تنكيلا ، وتقتيلا ، وتحريقاً للقرى الآمنة ، وإراقة لدماء الطلاب المنادين بالاستقلال في سنة ١٩١٩ ، يلاقون اليوم من أعدائهم بعض ما لاقاه المصريون منهم طوال سني اغتصابهم استقلال مصر ، أما الخوف فكان سببه خشية أن يحتاج مصر الألمان والطلبان الذين يعتبرهم المصريون أقل عدالة ورحمة من الإنجليز . كما أن لمبسون كان يعلم قبل تقديمه التبليغ البريطاني أن أشد المصريين كراهة للإنجليز لم يتمن دخول الألمان والطلبان مصر دخول الفاتحين ، وكان يعلم أن المصريين كانوا يجاهرون بقولهم لو نكبت مصر بدخول الإيطاليين لسودوا بغاياهم على أحرارهم ، وصناعهم من السمكرية وعمال الطرق بالإسكندرية على ساداتهم ، ويعلم أن المصريين كانوا يجاهرون بأن ظلم الإنجليز خير من عدل الإيطاليين ، وصلف الإنجليز أفضل من تواضع الألمان . . . لمبسون الذي كان يعلم كل ذلك ، هو الذي دبر « مع كويسلنج مصر » (١)

(١) كان الدكتور محبوب أول من لقب مصطفى النحاس باشا بهذا اللقب . وقد نعته أحمد ماهر باشا بهذا الوصف في خطبة ألقاها بكفر ربيع بالمنوفية في منزل آل أبي حسين .

التبليغ الذى رفعه باسم حكومته إلى جلالة مليكنا، وفرض بموجب هذا التبليغ عصابة على مصر سماها حكومة ، وظل يسندھا طوال مدة وجودھا فى الحكم بتبليغات .

إلى الأمام يا روميل !!

ثم قال : « أقسم أن لمبسون كان يعلم أن الذين نادوا « إلى الأمام يا روميل »^(١) ، إنما كانوا مدسوسين من قبَل صنائعه الذين جاء بهم إلى الحكم بموجب تبليغه المصحوب بالدبابات كما أنه كان يعلم أن طلاب الجامعة قد اتهموا الذين رددوا هذا النداء ، ولعل مكافأة الشاب الذى نعق بهذا النداء لأصدق شاهد على أن النداء « إلى الأمام يا روميل » جاء من قبَل الذين جاء بهم إلى الحكم ، كما سيجىء .

قلت : « لِمَ انفعلت ؟ »

قال : « ذلك لأن لمبسون الذى دبّر التبليغ البريطانى فى شهر ديسمبر سنة ١٩٤١ بواسطة أحد كبار موظفى الدار البريطانية فى منزل المستر جيز وكيل الحكمدار الإنجليزى لمدينة الإسكندرية ، وهو التبليغ المعروف بتبليغ ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ، حز فى نفسى أن كويسلنج مصر جلب له من يهتف باسمه ومن يحمله على الأعناق . »

قلت : « وكيف كان ذلك يا دكتور ١١ . »

قال : « غداة مجىء وزارة الدبابات إلى الحكم ، جلبت تلك الوزارة

(١) المارشال روميل الذى كان يقود جيوش المحور ووصل بها إلى

حدود مصر .

جماعة من عمال المطبعة الأميرية ولفيفاً آخر من العمال المأجورين ،
ولما حضر لمبسون حملوه على الأكتاف ، بعد أن نادوا بجيائه حسب
الخطة المرسومة ، فكانت « الرمية تحتفى بالرامي » ومن :

مشى على تاريخهم مستهزئاً ولو استطاع مشى على الأهرام
كما قال صديق أحمد شوقي أمير الشعراء ، وكأنه كان يتنبأ .
ثم قال : « أكان يجوز أن يصل الدجل السياسى إلى حد أن يهتف
باسم رجل هدد عرشنا ، ورمز مجدنا « الفاروق » الذى نشأ وطنياً وترعرع
وطنياً ، إذ لم يصدر أمره بتأليف وزارة يريد بها السفير البريطانى ؟ »
وقال : « إن تبليغ ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ كان فى الحقيقة ونفس
الأمر ، مُحضراً منذ أن كان على ماهر باشا رئيساً للوزارة سنة ١٩٣٩ ،
ولذلك الدليل :

قال الدكتور : إن محمد محمود قال له : « جاءنى ذات يوم
أمين عثمان (١) وقال لى — أى لمحمد محمود — أنت تعلم أنى أحبك
يا باشا ، اذلك أخشى أن يضايقك أن يصبح النحاس باشا رئيساً
للوزارة فى هذه الأيام وذلك فى استطاعتى ، الأمر الذى حملنى على
إشعارك ، فإن رأيت أن أحول بين النحاس باشا وبين الوزارة
فعلت ، ولكن أريد « آكل عيش (٢) » وليس عندى إيراد بعد أن
أُخْرِجْتُ من وظيفتى . فقال محمد محمود باشا لأمين : قابلنى اليوم فى

(١) أمين عثمان رجل عرف بين المصريين بأنه من صنائع الإنجليز ، وأنه
يتغالى فى التودد إليهم على حساب الوطن .

(٢) جرى هذا الحديث وكان على ماهر باشا لا يزال رئيساً للوزارة .

الساعة الرابعة أو الخامسة مساء .

وبعد انصراف أمين عثمان من عنده ، خاطب محمد محمود باشا احمد حسنين باشا تليفونياً وطالبه بضرورة الحضور إلى منزله ، وأفهمه أنه لولا مرضه لا تتقل إلى السراى بنفسه لخطورة الموضوع الذى سيتحدث معه بشأنه .

فلما حضر أحمد حسنين قال له محمد محمود : « أنصحكم قبل أن تفاجأوا بضغط إنجليزى أن تتفادوه بتكليف حسن صبرى باشا بتأليف الوزارة . وأحب أن تهيئوا لأمين عثمان مصدراً للعيش لأنى فهمت أنه يتلاعب » . ثم استدعى أحمد ماهر بالتليفون ، فلما حضر أفضى إليه بما تقدم وكلفه الاتصال بأحمد حسنين من جانبه أيضاً ، وبالدوائر العليا لإقناعها للأخذ بنصيحته سألقة الذكر .

وفى ذلك اليوم اتصل السفير البريطانى بمحمد محمود باشا تليفونياً راجياً مقابلته ليتناول معه كوباً من الشاي ، وكان محمد محمود فى ذلك اليوم فى حالة تعوقه عن لبس حدائه (لِتَوَرَّمِ فى قدميه) فلما حضر لمبسون إلى منزل محمد محمود ، دارت هذه المحادثة :

لمبسون : أود يا باشا أن تؤلف أنت الوزارة !

محمد محمود : ها أنت ترى أنى مريض إلى حد أنى لم أستطع أن ألبس حدائى . فكيف أشكل الوزارة وأنا فى هذه

الحالة الصحية ؟

لمبسون : لك بعد تشكيل الوزارة أن تنيب عنك (قائمقام رئيس وزراء) من تريده ، وفى استطاعتك أن تستبدله بغيره فى حالة ما إذا

أساء التصرف ولم يؤد أمانة الوكالة .

محمد محمود: وبأى حق تعرض على مثل تأليف الوزارة وأنت سفير دولة أجنبية ، والذي يجب أن يكون مفهوماً أن هذا العرض يصح أن يصدر من قبل جلالة الملك صاحب السلطة الشرعية ، ولو كان هذا العرض من قبل جلالة الملك لكان ردى الاعتذار بالمرض .

. وانتهت مقابلة لمبسون عند هذا الحد

وقال: إن أمين عثمان كان يتقرب إلى محمد محمود ويتودد إليه ليعتد به عضواً في الوزارة ومن ثم يصبح قائمقام رئيس وزراء ! وأن محمد محمود فطن إلى الهدف الذي كان يهدف إليه أمين عثمان .

* * *

كُلف حسن صبرى بتأليف الوزارة بناء على نصيحة واقترح محمد محمود وأحمد ماهر معاً .

ألف حسن صبرى وزارته ، وظل كذلك إلى ما قبل وفاته بثلاثة أشهر أو أربعة ، وهو محل الشك إلى حد ما لدى أحمد حسنين ، الذى ظن أن نصيحة محمد محمود كانت غشاً ، ولكن قبل وفاة حسن صبرى عرّف أن النصيحة كانت خالصة لوجه الله والوطن ، وأخذ يشيد بها قبل وبعد وفاة محمد محمود .

* * *

ولما توفي حسن صبرى فجأة في البرلمان أثناء إلقائه خطاب العرش إذا بمحمد محمود باشا يبذل النصيحة مرة أخرى بأن يكلف

حسين سرى باشا بتأليف الوزارة ، وبذلك سيتفادى ضغط بريطاني قد يجرىء يحتم إسناد الوزارة إلى النحاس باشا . ثم استدعى احمد ماهر كما استدعاه من قبل ، وطالبه بأن يتوجه إلى كثيرين من ذوى الشأن ومن ييدهم توجيه الأمور ، ناصحاً بتكليف حسين سرى تأليف الوزارة وقد كان .

على أن أمين عثمان « لم يأكل عيش » أى لم يلحق بوظيفة لأمر يعمله أحمد حسين باشا .

* * *

وقال : « كان التبليغ البريطانى مُحضراً وقت أن كان على ماهر باشا رئيساً للوزارة للتخلص منه ، لأنه كان ينازذ السفير البريطانى ، وكان عصياً عليه فى إجابة رغباته التى تتنافى مع الوطنية ، متمسكا بنصوص المعاهدة على ما فيها من غبن لمصر .

على أنه كان ينفذ المعاهدة بحرفيتها ، ولما قيل له وبروحها أفهمهم أنه لا يفهم المقصود بروحها ، وجاء النحاس بعد ذلك وأعلن كلمة وروحها ، وقال : قد أعجبتنى كلمة احمد رمزى بك عضو الشيوخ فى أثناء استجواب قدمه : إني أتشام من كلمة روح المعاهدة . »

أين دبر تبليغ ٤ فبراير ؟

قال الدكتور محبوب : « فى شهر ديسمبر سنة ١٩٤١ دعا المستر جيز ، النحاس باشا ، وأمين عثمان ، والمستر ريد ، والمستر سمات السكرتير الشرقى لدار السفارة البريطانية ، لحضور حفلة لإكليل

كريمته بالاسكندرية . . . في هذا الحفل يابى دبرت مؤامرة
 ٤ فبراير ... ابتدر النحاس باشا مستر سمات بقوله : « الخير
 كثير في مصر ، ومصر أمة زراعية لا تجوع مطلقاً ، وفي استطاعتها
 أن تمون جيوش الحليفة الموجودة والتي ستفد ، وفي استطاعتها أن
 تمون البلاد المتاخمة لها . غير أن الوزارة الماضية ، وزارة حسن
 صبرى ، كانت تضن ، خشية من رأى العام ، والوزارة الحاضرة
 هى الأخرى تضن ، . فقال مستر سمات : « إذن إن توليت الحكم
 أنت ، أقتطيع أن تكشف لنا عن الخيرات المخبوءة في مصر ،
 وتستطيع أن تمون الشعب المصرى والجيوش الموجودة والتي ستفد كما تقول
 مع حفظ الأمن والنظام ، ولا سيما في مثل هذه الأوقات الدقيقة ؟ »
 فأجاب : « نعم » .

فقال له مستر سمات : « سنتقابل ، ولا شأن لك بالوسيلة ، عن قريب »
 وبعدئذ سافر النحاس باشا من الإسكندرية إلى مصر ، ثم سافر
 بعدها قاصداً إلى الأقصر ، بعد أن اقترض مبلغاً من المال من مكرم
 عبيد باشا . على أنه نزل في مدينة قنا ، ووقف أمام ضريح سيدى
 عبد الرحيم القناوى ، وقال للجلوبين إليه من العامة : « اقرأوا
 الفاتحة لسيدى عبد الرحيم القناوى فإنه رجل مبروك » . ثم سافر
 إلى الأقصر ، وهو يعلم بأنه سيستدعى لإسناد تشكيل الوزارة إليه
 بموجب الضغط الانجليزى .

فلما حدثت أزمة وزارة حسين سرى باشا ، استدعته السراى
 لاستشارته أسوة برؤساء الأحزاب وذوى الرأى جرياً على السنة

التي استنها المغفور له الملك فؤاد الأول . فتعزز النحاس باشا بادی ذی بدء ، وأخيراً جاء فی صالون خاص ، ولكن هذا الصالون قد ضاق بحرمه فأصرت علی أن تعود علی متن باخرة نیلیة ضخمة من بواخر وزارة الأشغال ...

وقد علق الدكتور محبوب علی هذا قائلاً : « لو أن وكيل وزارة الأشغال ومن إلیه من موظفی الوزارة لم یكونوا علمین بأن النحاس باشا سیتولی الوزارة لما سمحوا لباخرة حكومية بأن تكون تحت تصرف حرم النحاس باشا » .

ولما جاء إلی القاهرة ، وتوجه إلی القصر للتشرف بمقابلة جلالة الملك ، التفت إلی اسماعیل تیمور بك « باشا » وهو فی حجرة التشریفات وقال له : « حینما سمعنا النبأ جئنا مسرعین ، وكنا فی زیارة ولی الله سیدی عبد الرحیم القناوی » . فرد علیه اسماعیل تیمور قائلاً : « نفعنا الله ببركاته (١) » .

واستطرد الدكتور محبوب فقال : « إنی لا أشك فی أن اسماعیل تیمور كان یتهم علی النحاس باشا حینما قال له : « نفعنا الله ببركاته » كما لا أشك — وأنا العارف بعقلیة النحاس — أنه تعمد أن یقول ذلك لیدخل فی روع العناصر الجاهلة من الجمهور (أن ولیاً میتاً جاء بولی حی إلی الحكم) ... وقال إن تبلیغ ٤ فبرایر یا بنی كان

(١) وقد نشرت جريدة الأهرام ما قاله النحاس باشا من أنه قال — أى النحاس باشا — انه كان فی زیارة سیدی عبد الرحیم القناوی فی هذه الأيام الخ .

محضراً في سنة ١٩٣٩ للتخلص من علي ماهر باشا كما ذكرت لك وشعر به محمد محمود باشا من حديث أمين عثمان معه كما تقدم . ثم كان السفير البريطاني على وشك تقديمه بعد وفاة حسن صبري باشا . أقول لك بالاختصار : إن اللذين تداركا الأمر هما : أحمد ماهر ، ومحمد محمود . أما ادعاء النحاس باشا بعد ذلك بأنه جاء إنقاذاً للوقف ، فهذا عبث بالعقول ، وهو ادعاء جرى يحتاج إلى أكثر من التكذيب . إن النحاس باشا ارتكب جريمة وطنية كبرى لا تغفر ، لو كان القانون الوطني سارى المفعول لقدم النحاس إلى المحاكمة .

السفير البريطاني وعلي ماهر

لما سألت الدكتور محجوباً لماذا عمل السفير البريطاني على التخلص من علي ماهر باشا .

أجاب : هو أن السبب في ذلك أن علي ماهر باشا كان كلما طلب منه السفير شيئاً يتعارض مع نصوص المعاهدة على ما فيها من انتقاص لمصر ، كان يرفض رفضاً باتاً النزول على إرادة السفير . وقد نقم هذا السفير على علي ماهر باشا لأنه وضع أساس « سياسة تجنب مصر ويلات الحرب » تلك السياسة التي لم تستطع أن تحيد عنها الوزارات المصرية التي تولت الحكم بعد وزارة علي ماهر ، بل أصبح كل رئيس وزارة يتقرب إلى الشعب بجعل برنامجها « تجنب مصر ويلات الحرب » وتتخذها أساساً لاستدراة ثقة الشعب .

ولما سأله : « لماذا لم يعلن علي ماهر باشا الحرب على المحور ؟ » .

أجاب : إن علي ماهر باشا رأى بشاقب فكره . لو أن مصر كانت قد أعلنت الحرب على الألمان لاستطاعت بضع طائرات ألمانية أن تخرب المدن المصرية من مصب النيل إلى منبعه في ساعات معدودة ولأودت بحياة الألوف من أبناء وادي النيل في وقت لم يكن في مصر من المدافع المضادة للطائرات في القاهرة والاسكندرية إلا ما يعد على أصابع اليد ، وفي وقت كانت فيه الأقاليم الأخرى والمرافق العامة ، وجميع مديريات الوجهين القبلي والبحري وما بها من الكبارى خالية من المدافع المضادة للطائرات .

رأى علي ماهر باشا يابني ذلك ببعد نظره ، وقدّر أن كل ما تطالب به مصر من التعويضات بعد أن تضع الحرب أوزارها بين هذه الدول التي تتنازع على السيادة العالمية ، لم تكن تفي بالحسائر التي تلحق مصر . فسياسة علي ماهر باشا كانت من هذه الناحية سليمة لا غبار عليها ، ثم كانت تتماشى مع الوطنية والمنطق السليم ، فإذا كسبت إنجلترا الحرب فيكون موقف مصر سليماً بعد أن وفّت بعهودها حسب المعاهدة . أما إذا انتصرت ألمانيا فيكون موقف مصر سليماً أيضاً ، أي أنها لم تبتدر ألمانيا بالعداء ، وحجتها قائمة في نفس الوقت ، وهي أنها كانت مضطرة إلى الوفاء بعهودها لإنجلترا ، ولكن الإنجليز ظلموا علي ماهر ، وعاونهم النحاس الذي كان يتحرق على الحكم ويعرض نفسه عليهم ، ومع أن السفير كان يعلم كما يعلم النحاس أن علي ماهر باشا لم يفضل بين سيد يفرض سيادته على مصر بالقوة فعلاً وآخر يلتمس هذه السيادة ، على الرغم من عليهما بهذا فقد نسبوا إليه أنه

كان د محورياً ، وهو الحر الذى لا يفاضل بين سيد وسيد والوطنى الصارم فى وطنيته .

وليك الدليل على أن الانجليز قد كانوا استجمعوا قوتهم للوثبة على حقوق مصر ، وفى نفس الوقت للتخلص من على ماهر باشا . لما كلف حسن صبرى بتأليف الوزارة واتصل بالسفارة أنكر السفير وجوده .

قال الدكتور : د إن حسن صبرى قال له فى حديث جرى بينهما : حينما شكلت وزارتي اتصلت بدار السفارة تلفونياً لأبلغها نبأ تأليفي للوزارة فقيل لى إن السفير غير موجود . ولما سألت عن مكان وجوده قيل لى إنه توجه إلى د مينا هاوس ، ولما اتصلت بهذا المكان قالوا : إن السفير لم يحضر ، وظللت أتصل من وقت لآخر بالسفارة آنأ وبمينا هاوس آنات ، وكانت الإجابة : أن السفير غير موجود وعندئذ اعتقدت أن السفير ينكر وجوده ، وهو موجود بدار السفارة ، لأمر ما . ولما أفضيت بما خامرنى لزميل^(١) من أعضاء وزارتي أشار على بأن تتوجه إلى القصر ونؤدى اليمين الدستورية أمام جلالة الملك ، ونعلن تأليف الوزارة ، وبذلك نفاجئ هذا السفير بالأمر الواقع ، وفعلأ أخذت بهذا الرأى فاتصلت بعد إعلان تأليف الوزارة وصدور المرسوم الملكى ، بدار السفارة ، وأخبرت المختص بأنى حسن صبرى أود أن أتصل بالسفير بصفتي رئيس الوزارة المصرية ، لذلك أرجو حين حضوره أن يتصل بى على هذا الاعتبار .

(١) هذا الزميل هو العلامة محمد حلمى عيسى باشا .

وبعد مضي ساعة اتصل بي السفير تليفونياً وخبرني بين أن أتوجه إليه بدار السفارة وبين أن نلتقي بدار الوزارة، وعند المقابلة بادرني بالتهنئة، وصارحنى بأنه كان متحاشياً مقابلتي بعد أن علم بإسناد تشكيل الوزارة إلىّ، لأن وزارة الخارجية الإنجليزية كانت قد أصدرت إلىّ تعليمات وكلفتني بتقديمها. فلما فوجئت بنبأ تكليفك بتأليف الوزارة اتصلت بوزارة خارجيتنا أستعلم منها: هل أنفذ التعليمات على الرغم من أن حسن صبرى باشا شكل الوزارة، أم أعدل وأقر الحالة الواقعة. فلأني لم أك قد تلقيت الرد أنكرت وجودي ريثما يحىء فأهنتك يا عزيزى صبرى باشا لأن وزارة الخارجية لا تعارض فى شخصك. وقال لى حسن صبرى: «إن السفير قال ذلك ليتحاشا عتابى على إنكار وجوده بالسفارة».

وقال: كان حسن صبرى رجلاً جريئاً، نزيهاً، شهماً، أدار دقة الحكم بهمة ونشاط. وكان يعمل دائماً لصالح الوطن ورفاهية أبنائه فى أشد أيام المحنة، على الرغم من أنه كان محل الشك يوم توليه رئاسة الوزارة، ومات وهو محل لإجلال من كل مصرى.

وقد تكلم الدكتور كثيراً فى هذا، ولكننا نوجز ونجتزئ... وأخيراً قال لى: «يائى، هذه المعلومات أمانة فى عنقك أذعها بجرأتك، وبها فى الجماعات، وإن كتبت لك الحياة بعدى أنشرها حينما ترفع الأحكام العرفية وتلك خدمة وطنية تؤديها لأمتك».

مع اسماعيل صدقي باشا

على أنى بناء على إيماء محبوب بادرت بمقابلة اسماعيل صدقي باشا ، وأفضيت إليه بكل تلك المعلومات ، ولما ذكرت له كل ما حدث فى غرفة مجلس البلاط بقصر عابدين بالتفصيل - بقصد أن ينبنى ما لا يتفق مع ما حدث - قال دولته : « ها أنت تعرف كل شيء » . وفى أثناء وجودى مع دولته فى حديقة قصره ، جاء أحد سعاة رئاسة مجلس النواب يحمل صورة الاحتجاج الرسمى الذى أرسله احمد ماهر باشا إلى السفير البريطانى ، فرجوت دولته أن يشرفنى بالاطلاع عليه ، وهذا نصه :

حضرة صاحب السعادة السفير البريطانى .

بمناسبة التبليغ الذى وجهتموه سعادتكم إلى حضرة صاحب الجلالة الملك بوجوب تكليف شخص بعينه اختتموه لتشكيل الوزارة المصرية ، وهو حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا وما اقترن بهذا التبليغ من التهديد المباشر بالقوة المسلحة البريطانية . فأتشرف بصفتى رئيساً لمجلس النواب بأن أبلغ سعادتكم بصفتكم ممثلاً لدولة بريطانيا العظمى فى مصر شديد احتجاجى على هذا الاعتداء الصارخ على استقلال مصر ، والذى أدخل إخلالاً شديداً بأحكام المعاهدة بين البلدين ، ومقتضيات الصداقة بين الشعبين ، وعرض علاقتهما للخطر الشديد .

ولأنه ليؤسفنى أن يقع هذا الاعتداء وهذا التدخل فى صميم شئوننا

الداخلية في الوقت الذي تدافع فيه بريطانيا عن الديمقراطية وحريات
الأمم في حرب هي بالنسبة لها حرب حياة أو موت .
وإذ أسجل هذا الاحتجاج .
أتشرف بأن أقدم لسعادتكم وافر الاحترام .

رئيس مجلس النواب

أحمد ماهر

فقلت لدولته : « حيا الله أحمد ماهر باشا (١) ، فإنه رجل أخذته

(١) أما رئيس مجلس الشيوخ فلم يحرك ساكناً يوم ٤ فبراير ، اللهم
إلا التظاهر بالاخلاص بالبقاء في القصر في أثناء رفع التبليغ البريطاني إلى القصر
انتظاراً للرد البريطاني على رد الزعماء ، قال الدكتور : إن رئيس مجلس الشيوخ
ظل في السراى انتظار صيد يظفره ، وكرر الدكتور ذلك عقب الموقف المانع
الذي وقفه رئيس الشيوخ حينما لجأ على ماهر باشا إلى حرم مجلس الشيوخ الذي
كان يرأسه محمد محمود خليل بك ليحميه من الاعتقال بلا مبرر ولا جرم ظاهر
أو غير ظاهر ، لاسيما وهو متمتع بالحصانة البرلمانية ، فإذا به يغادر كرسى
الرياسة ، ويحبس نفسه في مكتبه ويمتنع عن مقابلة الشيوخ الذين هالهم الأمر
وكان عجبهم مزدوجاً من إصرار حكومة الدبابات على القبض على ماهر باشا
ومن تصرف رئيس الشيوخ وهو يتهرب عن القيام بحماية أحد أعضائه . وأى عضو؟
عضو واحد يضارع ألف عضو بل مليوناً من أمثال رئيس المجلس — أى عضو؟
رئيس الحكومة الذى استصدر المرسوم الملكى بتعيين محمد محمود خليل
رئيساً للمجلس ،

وقال الدكتور : « إن هذا الرجل الذى اعتبره أنه ليس منا كصرى قد مالاً
النحاس طمعاً في أن يجدد تعيينه رئيساً للشيوخ ليظل محطوطاً على الكرسى ،
كرسياً حاملاً شواربه أو هى حاملة إياه ، ولكن النحاس الذى تجمععه بهذا
الرئيس جامعة الخلق وجامعة نكران الجليل ، لم يجدد استصدار المرسوم ليظل

الغيرة الوطنية، فأرسل احتجاجه هذا في غير مبالاة، مسجلاً تدخل البريطانيين في شئوننا الداخلية. فشكر الله فضله .

ثم توجهت إلى الدكتور وقلت له : « إن صدق باشا قد أيسد ما بلغك وما أفضيت إليك به من قبل » .

قال : « اذهب وقابل حلى عيسى باشا واستفسر عما حدث في السراى ، وموقف النحاس ، واحضر بعد أن تكتب حديثه » . فتوجهت إليه وقابلته ، وسألته عما كُلفت به .

أنبأنى حلى باشا بما حدث ، وزاد على ما أخبرنى به صدق باشا أن النحاس ارتبك حينما طُلب إليه أن يوقع على الاحتجاج مع الزعماء ، ثم قال : إن خلاصة القول إن حكم التاريخ سيكون قاسياً ، وعلى النحاس قال :

قائماً أو نائماً على رئاسة الكرسى ! ولكن النحاس ، لم يرم إذ رى ، ولكن الله رى .

وقال الدكتور « حيا الله حافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى فقد ثار على هذا المخطوط على كرسى الرئاسة ، ووجه اليه قوارص الكلم فتدارى وراء شواربه ، على أن حافظاً أقسم أنه سيظل بعيداً عن المجلس ما دام هذا الرجل سيظل محطوطاً على كرسى الرئاسة » .

المؤلف : ومن العجب العجيب أن هذا الرئيس جاء بعد أن أقيـل النحاس وذهبت وزارته إلى ذمة الشيطان ، ينشر على الناس بطريقة غير كريمة ، محضراً عما حدث في القصر في أثناء تقديم التبليغ البريطانى . ماشاء الله أيها المحمود هذه السهولة لتنتقد غيرك ، وبهذه الطريقة ؟ ألا إنه يجوز لكل مصرى أن يحمل على النحاس ويعيبه من غير بطائنه المأجورين المحدودى الوطنية ، والذمة ، أما محمد محمود خليل رئيس الشيوخ الذى نكبت برياسته الحياة النيابية ، فلا . . لقد كان موقف محمد محمود خليل يضارع موقف النحاس باشا .

كان موقفه يتعارض مع الوطنية ، ويتجافى مع الولاء للمليك
البلاد ، وقلت للدكتور : « إن محمد حلى عيسى باشا كان فى أشد حالات
الآلم والغضب وهو يروى تفاصيل مأساة عابدين .
فقال الدكتور : « لا غرابة فإنه شريف المحمد ، كريم المنبت . »

إنقاذ الموقف

ولما سمع الدكتور أن النحاس يزعم أنه بقبوله الحكم قد أنقذ
الموقف ، قال : « هذا رجل قد جمع بين الكذب والمغالطة وتسمية
الأشياء بغير أسمائها ، إني أقول : هب أنى أملك عزبة أو مزرعة
أو قرية ، وجاء رجل لديه من القوة والسلطان ما يمكنه من انتزاع
العزبة منى أو تعطيل وابور المياه ، أو الطحين ، أو أى مرفق من
مرافق العزبة . وقال : يادكتور محجوب إذا لم تعين صالحاً ناظراً
لعزبتك ، أو وكيلاً عنك فإنى سأنتزع منك العزبة ! فهل يستطيع
أن يقدم هذا التهديد ، إلا إذا كان صالحاً متفقاً معه على ذلك مقدماً
وقابلاً ؟ فادعاء النحاس أنه قد أنقذ الموقف كلام فى كلام .
أما ادعاؤه وقوله : « شرفتنى شرفاً فوق شرف ، والكرة بعد
الكرة .. والمرة بعد المرة » . فهذا قول هراء .

إنى أكتفى يا بنى بنص التبليغ البريطانى الذى يقول :
« إذا لم أعلم قبل الساعة السادسة أن النحاس باشا قد دعى
لتأليف الوزارة فإن الملك فاروق يجب أن يتحمل تبعه ما يحدث » .
راجع أيها المصرى ما حدث فى منزل المستر جيز (وقد سبقت
الإشارة إليه) .

أبعدَ هذا يتكلم النحاس ومن إليه عن الوطنية وعن الاستقلال
ألا فليخ الناس عقولهم . . ألا فليسموا الخيانة أمانة . .

* * *

لا شك في أن يوم ٤ فبراير هذا ، يوم التبليغ البريطاني ،
كان يوماً مؤلماً على الشعب المصرى الكريم بأجمعه . وإننا ننشر
المحضر الرسمى للجلستان التاريخيتان اللتان عقدتا في سراى عابدين العامة
وإليك هذا النص :

محضر جلستى اجتماع ٤ فبراير

في يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ اجتمع بسراى عابدين العامة
بناء على دعوة معالى رئيس الديوان العالى بعض ذوى رأى من
كبار رجال الدولة هم حضرات أصحاب المقام الرفيع والدولة والمعالى
والسعادة والعزة :

حسين سرى باشا ، شريف صبرى باشا ، مصطفى النحاس باشا ،
على ماهر باشا ، محمد محمود خليل بك . أحمد ماهر باشا ، أحمد زيور باشا
اسماعيل صدقى باشا ، عبد الفتاح يحيى باشا ، محمد حسين هيكل باشا
محمد توفيق رفعت باشا ، على الشمسى باشا ، محمد حلى عيسى باشا
حافظ عفيفى باشا ، محمد حافظ رمضان باشا ، بهى الدين بركات باشا
أحمد حسنين باشا ، محمود حسن باشا .

« وحوالى الساعة الرابعة بعد الظهر انتظم عقد الاجتماع وبعد
فترة قصيرة تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك بتشريفه ، يرافقه

صاحب المعالي أحمد حسنين باشا فوقف الحاضرون لإجلالاً ثم جلس وتفضل فأذن لحضراتهم بالجلوس ، ثم وقف صاحب المعالي أحمد حسنين باشا ، وتلا بإذن جلالته المذكرة الآتية :

« عندما واجهت البلاد هذه الساعات الخطيرة التي يجتازها العالم ناديت ، ونادى الشعب معي بوجوب اتحاد الجميع لمواجهة الصعوبات التي تقوم في طريقنا ، وكنت أرى أن أوقات الشدة يجب أن تلبنا أن ننسى أشخاصنا وندفن الماضي لنبدأ عهداً جديداً نكون فيه كتلة واحدة ، ورأياً واحداً ، وأمة واحدة .

« ذلك لأنني أعلم أن ما من خير أصاب هذا البلد إلا وهو متحد ، وما من شر أحاق به إلا وهو متفرق الكلمة .

« وهكذا بدأت منذ أمس أستدعي بعضكم ، وكنت عازماً على أن استدعي البعض الآخر اليوم لأشرح لكم وجهة نظري ، ولأدعو الجميع إلى تأليف وزارة قومية ، كنت أعتقد أن كلا منكم يضحى شيئاً قليلاً ليكسب البلد شيئاً كثيراً ، وكنت على ثقة أنكم ستلبون دعوتي ، ففي الساعات الخطيرة يجب أن ننسى أشخاصنا ولا نذكر إلا بلادنا .

« ولكن قبل أن تبدأ مشاورات أمس طلب السفير البريطاني أن استدعي النحاس باشا ، وأكلفه بتشكيل الوزارة ، أو أن أقبل من يقترحه النحاس باشا رئيساً للوزارة ، وحدد السفير البريطاني الساعة الثانية عشرة ظهر الثلاثاء (أمس) موعداً استقبل فيه النحاس باشا فأجبت السفير على ذلك بأنني كنت قد قررت فعلاً — وقبل وصول

هذا الطلب - أن استدعى النحاس باشا ورؤساء الأحزاب لاستشارتهم في تأليف وزارة قومية تواجه صعوبات البلاد الداخلية والخارجية وبذلك تحقق رغبة الشعب وتجمع مصر في وزارة واحدة وكتلة واحدة . « و انتهت مشاورات أمس ، وعلى إثرها مباشرة طلب السفير البريطاني مقابلة رئيس الديوان وأخبره أنه علم أن النحاس باشا رفض فكرة الوزارة القومية وطلب السفير من رئيس الديوان أن يرفع إلى نصيحة السفير أن أكلف النحاس باشا بتأليف وزارة ، وفدية ، فرد عليه رئيس الديوان بأن المسألة بين الملك ورؤساء الأحزاب . « واليوم طلب السفير مقابلة رئيس الديوان ، وأعطاه إنذاراً ، هذا نصه :

« إذالم أعلم قبل الساعة السادسة مساء اليوم أن النحاس باشا قد دعى لتأليف الوزارة ، فان الملك فاروق يجب أن يتحمل تبعه ما يحدث ، « إننى دعوتكم لاستشيركم فى هذا الموقف ، وإننى واثق أن رأيكم ستمليه الوطنية والحكمة ، وأنكم ستجلسون هنا ك مصريين ، ترجون الخير والكرامة لهذه البلاد . «

عند ذلك وجم الحاضرون وبدأ على وجوههم الكدر والالام ، ومضت فترة من السكون قطعها حضرة صاحب الجلالة بقوله : « لقد دعوتكم وكلكم من ذوى رأى لاستنير برأيكم فى الموقف ، وكل رجائى أن تضعوا نصب أعينكم مصلحة البلاد والوطن دون سواها فلا يعينكم شخصى ولا مصلحتى وإنى مستعد لأحتمل كل مسؤولية مهما عظمت فى سبيل بلادى ، وأعتقد أنه لن يصينى أذى بفضل الله

وهذا الكتاب (ورفع كتيباً صغيراً علم لنا أنه القرآن الكريم)
ولاني سأترككم لتبادل الرأي وعندما تتفقون على وجهة نظر معينة
تخطرونني بها. فقط أرجو ملاحظة أن الرد مطلوب منا قبل
الساعة السادسة .

ثم وقف ، فوق الجميع تعظيماً لجلالته ، وترك الجلسة تشييعه القلوب
بالمحبة والإجلال ، وترمقه العيون بنظرات الإعجاب والتقدير على هدوئه
وثباته واطمئنانه وصدق إيمانه .

وبعد انصراف جلالته خيم السكون على الجلسة حوالى دقيقة ،
والحاضرون مذهولون من خطورة الموقف ، معجبون بشجاعة مليكهم
وحبه لبلاده . ثم قطع هذا السكون أحمد ماهر باشا بقوله : الكلمة
الآن لحضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا .

فقال رفعته في حركة عصية مانصه : « لاني فوجئت بالتبليغ البريطاني .
ولكني أقرر أن الذي أوصلنا إلى هذه الحال هو نظام العهد الحاضر
وما جره على البلاد من أضرار ومفاسد ، ١١١ .

وأخذ يطعن في هذا النظام بقوله : « إنه نظام أشاع الفساد في
البلاد وأجاع العباد ، فاني أينما سرت وحللت : تقدم إلى الأهالي
بالشكوى من الجوع والعري ، ٩١ .

وأخذ يضرب على هذه النغمة حتى قاطعه حسين سرى باشا ، إذ كان
وقتئذ لا يزال رئيساً للوزارة لأن استقالته لم تكن قبلت بقوله : « يا باشا
لاني أسلم لك بأن النظام الحاضر نظام فاسد ، وأن أسوأ عهوده العهد الذي
قت فيه أنا بالحكم ، فارجو ترك الكلام في ذلك ، وإفادتنا عن رأيك في

الموقف السياسى بعد التبليغ البريطانى .

فأجاب على الفور : « إنكم أنتم الذين وصلتكم بنا إلى هذه الحال ،
ولست مسئولاً عنها ، وإنى أقرر أنه إذا عرضت على الوزارة فإنى أقبل
تشكيلها وزارة وفدية . »

عندئذ تدخل الحاضرون ، فمنهم من طلب إليه أن يشكلها وزارة
قومية ، فرفض بتاتاً .

فطلب آخرون أن يشكلها قومية وله الحرية المطلقة فى اختيار من
يشاء من رجال الأحزاب الأخرى بغير تدخل من رؤساء أحزابهم ، فأبى .
وطلب غيرهم أن يقبل تشكيل وزارة قومية لإجراء الانتخابات ، ثم
يشكل بعد الانتخابات وزارة وفدية ، فلم يقبل .

ثم اقترح آخرون تشكيل وزارة محايدة لإجراء الانتخابات وبعدها
تشكل وزارة وفدية ، وغير ذلك من العروض والحلول التى رفضها كلها
رفضاً باتاً ، وأصر على أن تكون وزارته وفدية لحماً ودماً .

وقد كان يشايعه فى هذا رأى دولة زيور باشا الذى رأى من بادية
الامر قبول التبليغ البريطانى بلا قيد ولا شرط رغماً من احتجاج باقى
الحاضرين عليه احتجاجاً مرأ .

وهنا قام أحد الحاضرين وقال : « إنى أظن أن حضرات الأعضاء
أرادوا بهذه الاقتراحات المختلفة اجتناب التبليغ البريطانى كما هو . ولكنى
أعتقد أن فى تكليف النحاس باشا بتأليف الوزارة وقبوله لها مهما كان
لونها يعد قبولاً للتبليغ البريطانى . وإننى أرى أن وطنية النحاس باشا
تقتضى منه أن يتقدم هو إلى جلالة الملك ويطلب إليه ألا يكلفه بتشكيل

الوزارة لأن في تكليفه بذلك بعد التبليغ البريطاني هدماً لاستقلال البلاد وعدواناً على معاهدة الشرف والاستقلال. فانه بهذا وحده يسقط التبليغ، لأنى لا أظن أن الانجليز يريدون فرض الوزارة على النحاس باشافرضاً، إلا إذا كانوا على علم مقدماً بأن رفعتة سيقبل تشكيل الوزارة مع هذا التبليغ.

فلم يحر رفعتة على ذلك جواباً.

ولما طال الجدل، والنحاس باشا مصرّ على موقفه لا يتزحزح عنه، وقد اقتربت الساعة السادسة. رُئى وضع حد للجدال والمناقشة، فعرض دولة صدق باشا على الحاضرين هذا الاقتراح:

« إن في قبول التبليغ البريطاني اعتداء على استقلال البلاد ومساساً بمعاهدة الصداقة ولا يسع جلالة الملك أن يقبل ما يمس استقلال البلاد ويخل بأحكام المعاهدة،

فوافق الحاضرون على ذلك بعد أن عدل صدر الاقتراح بما يأتى « إن في توجيه التبليغ البريطاني ... إلخ ».

وقد وافق النحاس باشا بعد تردد على هذا الاقتراح، ووقع عليه هو وزيور باشا مع باقى المجتمعين.

خرج أحمد حسنين باشا ليبلغ جلالة الملك ما انتهى إليه رأى الجماعة. فعاد جلالتة، وشرف الاجتماع مرة ثانية حيث عرض على جلالتة حسين سرى باشا ما دار من المناقشة، ولخص لجلالتة أقوال النحاس باشا. فقال النحاس باشا: « إن هؤلاء الناس (يقصد الانجليز) محرجون،

وأخشى إذا رفضت قبول الوزارة أن يلجأوا إلى تصرفات خطيرة قد يكون فيها ضرر كبير .

فرد عليه جلالة الملك : « نحن شخصياً مستعدون لاحتمال المسؤولية » .
 تخففت لهذا النطق السامى قلوب الحاضرين ، وبدأ على وجوههم علامات الإكبار والإعظام لجلالته ، ولكن النحاس - رغماً مما تضمنه هذا التصريح الكريم من مغزى لا يخفى - أصر على موقفه ، عندئذ وافق لجلالته على اقتراح الهيئة ، وأمر بأن يبلغ للسفير البريطانى ردّاً على هذا التبليغ .

انقرط بعد ذلك عقد الاجتماع ، بعد أن قال جلالة الملك للحاضرين :
 « إنه يحتمل أن يدعوا للاجتماع مرة أخرى » .

وفعلا حصلت هذه الدعوة الساعة التاسعة من مساء يوم ٤ فبراير وحوالى الساعة العاشرة تكامل الجمع ، وانعقد الاجتماع فى جو مكهرب ، ومشبع بالحزن والألم ، ولا حديث للباحثين إلا فيما جرى من الأحداث بين الساعة السادسة والساعة التاسعة .

وبعد برهة قصيرة شرف جلالة الملك ، تحيط به المهابة والعظمة ثم قال : « أرجو أن تنسوا ما دار بينكم من الحديث ، وما قررتموه بعد ظهر اليوم ، وإنى أكلف النحاس باشا بأن يشكل الوزارة ، ويعرض على أسماء الوزراء لصدور الأمر بذلك ، وأطلب إليه عند انصرافه من هنا أن يمر على دار السفير البريطانى ويبلغه أنه كُفِّ بتشكيل الوزارة لأنه طلب إلى ذلك ، وكل ما أرجوه من النحاس باشا أن يسير فى حكمه سيرة قومية بعيدة عن الأغراض الحزبية ، وله

أن يعتمد على تسهيل الأمور إليه ، كما له أن يعتمد على مساعدة السفير البريطاني الذي وعد بذلك .

وقد كانت هذه الأقوال كحراب مسمومة لمن يفهم معنى القول ويدركه . فتقبل النحاس باشا هذا العطف السامى بالشكر والامتنان وأنه يقبل تأليف الوزارة بأمر جلالة الملك ورضائه . فابتسم الحاضرون ابتسامة لها مغزاها .

عندئذ طلب احمد ماهر الكلمة فأذن له جلالة الملك فقال :
« كنت أظن أن النحاس باشا ، وهو كما يقول عن نفسه زعيم البلاد ، وصاحب معاهدة الشرف والاستقلال ، أن يرفض تشكيل الوزارة ، أما وقد قبلها ، فإنى أعلن فى هذا المكان المقدس ، وفى حضرة ملك البلاد ، وسأقول للناس إن النحاس باشا يتولى الحكم الليلة مستنداً إلى أسنة الرماح البريطانية . »

فسرى بذلك عن نفوس الحاضرين ، وترجم بهذه العبارة القوية عما يجيش فى صدورهم .

وهنا قال النحاس باشا : « لست أنا الذى يستند إلى أسنة الرماح البريطانية . »

فرد عليه دولة اسماعيل صدق باشا بقوله : « أظن أن رفعتكم واصلتم إلى هنا بعد انصراف الدبابات ؟ »

وهنا وقف جلالة الملك ، وخرج مرموقاً بعين التعظيم والمحبة والإجلال ، وانصرف الحاضرون دون أن يوجه واحد منهم كلمة تهينة إلى صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا .

وهكذا انتهت مأساة عابدين حيث عملت في صرح استقلال
البلاد معاول الهدم والاعتداء ، والسكنانة رب يحميها ، وللمليكة
الحب والاحترام وحسن الجزاء والفداء .

* * *

هكذا تمت مأساة ٤ فبراير ، وهكذا كلف مصطفى النحاس باشا
بتأليف الوزارة . وقد تم ذلك في ظروف صعبة كانت ستقع فيها
البلاد بسبب الضغط الاجنبي لولم يعين مصطفى النحاس رئيساً للوزارة ؟؟ .

* * *

كان حسين سرى باشا عندما كان رئيساً للوزارة قد أمر باعتقال
الشاب « عبد السلام وفا » الذي كان يقود المظاهرة التي كانت تنادى
بقولها : « إلى الامام ياروميل ! » ، وظل هذا الشاب معتقلاً إلى
أن تولى فؤاد سراج الدين باشا وزارة الداخلية في عهد مصطفى النحاس
باشا ، فعينه استثناء بمرتبة قدره ١٥ جنياً في وظيفة على ربط ميزانية
مجلس مديرية الشرقية ، وهو لا يحمل الشهادة الابتدائية . ثم انتدبه
سكرتيراً سياسياً له بوزارة الشؤون الاجتماعية إلى أن أقيمت الوزارة .
وكان هذا الشاب في عهد وزارة حسين سرى باشا موظفاً بمصلحة
الضرائب في الدرجة التاسعة بمرتبة قدره ثلاثة جنهات ، وكان قبل
ذلك عاملاً للأسانسير بمستشفى قصر العيني !

فماذا يفهم المؤرخ من ذلك ؟ ...

* * *

بعد أن انحط النحاس على كرسى الحكم بموجب ذلك التبليغ البريطاني

أطلق مأجوريه يرددون كالبغاوات : « لقد أنقذ النحاس الموقف » .
قال الدكتور ، وقال المؤلف ، وقال كل مصرى وطنى شريف :
« إن هذا كذب وادعاء » .

وليك ما قاله النحاس باشا مدافعاً به عن نفسه : « إنه لم يكن
يعلم أن هناك إنذاراً بريطانياً قد زج باسمه فيه ، وإنه فوجئ به !
ولم يكن يعلم عنه شيئاً قبل تلك اللحظة ، وإنه أبدى دهشته منه
وإنه كان فى رحلة بالصعيد ، وإنه استدعى من قنا ، وإنه بصر المجتمعين
بنتائج الاحتجاج إذا لم يكن مقترباً بجمل للخروج من المأزق » .
ما شاء الله ! أى مأزق ؟ والإنذار البريطانى يحتم أن تكلف أنت
بتأليف الوزارة .

* * *

ثم قال بعد ذلك ليبر موقفه : « إن جلالة الملك أمره أن
يتوجه إلى دار السفارة وأن يبلغ السفير أنه كلف بتشكيل
الوزارة الخ... وأنه كان معارضاً فى الذهاب ليلاً إلى دار السفارة ،
ولكن جلالته أمره بذلك ، فقد كان من المتعين معالجة الموقف » .
ما شاء الله ! أيها الزعيم الوطنى ، دعنا نتألم من هذا ، ونسخر
ونبكي فى نفس الوقت .

وقد حاول بعد ذلك أن يهون من وقع النطق الكريم (أنه
- أى النحاس - يستطيع أن يعتمد على جلالته فى تسهيل الأمور ، وأن
يعتمد أيضاً على مساعدة السفير البريطانى الذى وعد بذلك » .

ما معنى هذا ؟

قال حلى عيسى باشا : « لو تمهل النحاس باشا قليلا .. لكان له شأن آخر » .

وعندما سمع الدكتور حديث حلى عيسى قال : « لكنه لم يدخل القصر الملكي إلا بوجه رمى صاحبه نقاب الحياء » .

والمدحش المصحوب بابتسامة الغيظ ، أن النحاس يزعم أنه كان يعتذر عن قبول الوزارة ، وأنه كان يلح في الاعتذار .. .
فيا للمنطق العجيب ! . . .

أبعد كل ما تقدم يتحدث النحاس باشا عن الوطنية المصرية ، والكرامة القومية ؟

ألا فليتكلم الجاني عن البراءة ، والخائن عن الأمانة إذا تمسحق النحاس بكلمات الوطنية بعد ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ .

موقف النحاس بعد اعتقال على ماهر

لعل مما يدعو إلى أكثر من العجب ، أنه حينما علم النحاس شدة استنكار أبناء الأمة ولاسيما طلاب الجامعة من اعتقال على ماهر ، أراد أن يقلل من أهمية فعلته ، ثم حاول جاهداً في نفس الوقت أن يصرف نظر الرأي العام عن على ماهر فكلف مأجوريه من فلول ذوى القمصان الزرق ومن إليهم من أشباه الطلاب الذين تمكن من شراء ذمتهم بعد إفساد أخلاقهم عن طريق الإغراء والمادة مضافاً إلى هؤلاء لفيف من بعض المائعين الذين يسمون أنفسهم « حزب مصر ؟ » . أو عز

إلى هؤلاء أن يذيعوا في المنتديات أن النحاس إنما اعتقل على ماهر شفقة عليه وحفظاً لكرامته ! مدعياً بأنه أصيب بمرض عصبي وقد توجهت بعد ذلك إلى الدكتور وأفضيت إليه بما يذيعه المأجورون . فقال لي : « من الآن تفرغ لدحض هذه المفتريات ومقاومة هذا الإفك ، ولا تقابلني بعد اليوم حتى تؤدي هذه المأمورية .. انتشر في البلد .. كن أكثر انتشاراً من الجرائد .. بل كن جريدة ناطقة مُنْتَقَلَةً في المدينة . جس خلال الديار اغش المنتديات .. سافر عند الاقتضاء إلى الأقاليم — كما كنا وكنت تفعل في سني ١٩١٩ و ١٩٢٠ و ١٩٢١ و ١٩٢٢ .. ابدأ اليوم بالطواف والجلوس في مقاهي (العتبة الخضراء) ، ميدان الملكة فريدة التي يتردد عليها أبناء القطر من الإسكندرية ، ورشيد ودمياط ، وأسوان ، وحلفا والخرطوم فكل تكذيب لمأجوري النحاس سينتشر في البلاد .. ادحض بقوة الحججة ، وسلاح الحق كل ما قيل ويقال عن علي ماهر ، وارقب الأجر والثواب من الله ، والجزاء من هذا الوطن الذي أخلص ويخلص له علي ماهر » .

وبينما أنا في مهمتي قد هذه عثرت على موظف ينشر الدعاية النحاسية بمقهى الانجلو ، فالتقيت عليه درساً قاسياً . ولما أخبرت الدكتور بذلك قال : « ما أشد كذب هذا الموظف ، وما أكثر شعورته وخداعه إن النحاس ينسب إلى غيره ما هو غارق فيه يتهم الوطنيين في وطنيتهم وهو الممسوس في وطنيته ، ويمس ذوى النزاهة في نزاهتهم وهو المحدود النزاهة . فإذا جابهه الناس بما فيه سرعان ما ينسكبهم بسيل من الادعاءات وطوفان من الأكاذيب حتى إذا أراد الإنسان أن يرد عليه ، ويعيد الحق

إلى نصابه يحتاج إلى مجلد فيأس ذو اللب والطهى العقلى ، فيسكت ، إنه يستغل ذلك أبعد استغلال .

النحاس باشا والأحكام العرفية

قال الدكتور : « إن هذا الرجل الذى قفز إلى الحكم على أجنحة الدبابات الانجليزية يستغل سلطة الحاكم العسكرى استغلالاً غير كريم ، بطريقة لم يسبق لها مثيل . هو يستغل الحكم العرفى ضد « على ماهر » بمنع الصحف عن طريق الرقابة عن ذكر اسم على ماهر ، وكتابة كلمة دفاع عنه ؛ ويستغل الحكم العرفى فى شراء السيارات من كوتسكا ثم فى تكيم أفواه الوطنيين ، واستغلال النفوذ الحكومى للثراء . كما يبنه زميله . بل موجوده ، مكرم عبيد صاحب الكتاب الأسود .

ويستغل سلطة الحاكم العسكرى أيضاً ضد خادمه ، .

المؤلف : لا بد لنا أن نذكر هنا ما بعث به النحاس باشا إلى جريدة الأهرام محاولاً به الدفاع عن نفسه ، بعد أن عرف المصريون حقيقة جريمة ٤ فبراير التى ارتكبت فى الظلام الدامس . قال :

« لم يكن لى بعد الحقائق الدامغة التى ضمنها بيانى الأخير بشأن حوادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ أن أعود إلى تناول هذا الموضوع مهما كابر المكابرون ، وادعى المدعون ، لولا أنكم نشرتم فى عدد أمس كلاماً (لقانونى كبير) سماه محضراً لجلستى اجتماع ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ويدهى أن القانونى الكبير المذكور كان من بين المجتمعين ، ولعله كان يطمع فى أن يشترك فى الوزارة القومية التى ألحوا علىّ فى

قبول تأليفها . وقد تضمن هذا الكلام تشويهاً لكثير من الحقائق يضطرنى إلى تصحيحها، وضعاً للأمر فى نصابه ، ودفعاً لكل خطأ مقصود أو غير مقصود فى هذا الموضوع الخطير ، خاصة وقد نسب القانونى الكبير فى كلامه عبارات معينة إلى أسمى مقام .

١ - ذكر القانونى الكبير « أن المجتمعين بعد أن انتهى رفعة حسنين باشا من تلاوة المذكرة التى أمر جلالة الملك بتلاوتها ، وبعد انصراف جلالتهم ، خيم عليهم السكون نحو دقيقة ، ثم قطع هذا السكون المرحوم احمد ماهر باشا بقوله : الكلمة الآن لحضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا » .

وليس صحيحاً أن المرحوم احمد ماهر باشا كان أول المتكلمين ولكنى أنا الذى بدأت الكلام عقب انصراف جلالة الملك . وقلت إنه قد ظهر لى من البيان الذى تلاه رفعة حسنين باشا أن هناك إنذاراً بريطانياً زج فيه باسمى ، وأن من واجبي أن أبين حقيقة موقفى من هذا الإنذار الذى فوجئت به ، ولم أكن أعلم شيئاً عنه قبل تلك اللحظة . وأبديت دهشتى منه ، ثم أوضحت لهم أنى كنت فى رحلة بالصعيد ، واستدعيت منها وأنا فى قنا ، ولم يخبرنى جلالة الملك عندما تشرفت بمقابلته فى اليوم السابق « أى فى يوم ٣ فبراير » ، بأى شىء من ناحية الإنجليز .

ثم دار الحديث بعد ذلك عن الحل الذى نراه للخروج من المأزق ورأيت فيه معروف .

٢ - ذكر القانونى الكبير أنى وافقت بعد تردد على الاقتراح

الخاص بالاحتجاج على الانذار، وهذا أيضاً غير صحيح، إذ أنى وافقت عليه بلا تردد، وكنت أول الموقعين على الاحتجاج . وكل ما حصل هو كما أوضحت فى خطاب « ١٣ نوفمبر، وفى بيانى السابق أنى بصرت المجتمعين بنتائج هذا الاحتجاج إذا لم يكن مقروناً بجل للخروج من المازق .

٣ - وذكر القانونى الكبير أنى قلت : إن هؤلاء (أى الإنجليز) محرجون، وأخشى إذا رفضت قبول الوزارة أن يلجأوا إلى تصرفات خطيرة قد يكون فيها ضرر كبير ، فرد على جلالة الملك قائلاً : « نحن شخصياً مستعدون لاحتمال المسؤولية » .

وقد تعمد القانونى الكبير أن يغفل ما قلته على الفور تعقياً على كلام جلالاته وهو : « إن جلالتك لست ملكاً لنفسك ولحكومتك ملك للأمة، فأنت تاجها ورمزها، وهى تفديك بأرواحها ولا زالت، أطل الله بقاءك فى مستقبل العمر ، أما الوزارات فليست تخليداً وعليها وحدها أن تتحمل التبعات والمسئوليات » .

٤ - وذكر القانونى الكبير فيما أورده عن الاجتماع الثانى « أن جلالة الملك طلب إلى أن أمر^ه بعد انصرافى من القصر على دار السفير البريطانى، وأبلغه أنى كلفت تشكيل الوزارة لأنه طلب ذلك إلى جلالاته » .

وهذا أيضاً لا يطابق الواقع، إذ لم يقل جلالة الملك أن السفير البريطانى طلب ذلك إليه . وقد كنت معارضاً فى الذهاب ليلاً إلى دار السفارة . ولكن جلالاته أمرنى بذلك، فقد كان من المتعين كما

أوضحت في بياني مغالطة الموقف مع الإنجليز .

هـ - وذكر القانونى الكبير أن جلالة الملك قال لى عندما كلفنى تشكيل الوزارة : « إني أستطيع أن أعتمد على جلالته فى تسهيل الأمور ، وأن أعتمد أيضاً على مساعدة السفير البريطانى الذى وعد بذلك » .

أما الشطر الأول من هذه العبارة فصحيح ومفهوم ، لأنى كنت أعتذر من عدم قبول الوزارة وألح فى الاعتذار ، وانتهى الأمر بأن أصر جلالته على تكليفى تشكيلها . وطبيعى والحالة هذه أن يتفضل فيذكر لى أنى أستطيع الاعتماد على معونته السامية . ولكن الشطر الثانى من العبارة لا أصل له بتاتاً إذ لم يقل جلالة الملك إني أستطيع أن أعتمد أيضاً على مساعدة السفير البريطانى .

هذا ما يستحق التصحيح من كلام القانونى الكبير . وقد أتاح لى أن أنشر مفاخر أخرى لم أذكرها فى خطابى وبيانى السابقين . أما ما ورد فى كلامه من قبيل التعقيب والتعليق فلا أحسبه جديراً بعنايتى .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ؟

مصطفى النحاس

وقد رد اسماعيل صدق باشا فى جريدة الأهرام على النحاس باشا مفنداً ومجانباً له بالحقائق فقال :

إن مأساة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ التى ارتكبت فى ليلة ظلماء حالكة

السواد ، والتي حرصت الوزارة التي خرجت منها والسلطة الأجنبية التي أمرت بها على أن يبقى أمرها مكتوماً ، مسدلة عليه الأستار ، كان جديراً أن تترك ليخيم عليها النسيان ، إذ لا خير في استعراض سقطات الرجال إن لم يكن لاستخلاص بعض العبر منها . والقوم مع الأسف في حالة من التناؤد والتطاحن ، ومن تحكيم الهوى والشهوة في شئونهم السياسية ما تتمتع معه أية استفادة من عبر الأيام .

لذلك عجبت لتصدى رفعة النحاس باشا ، وقد كان الحريص على كتمان حوادث ٤ فبراير وإخفائها حتى على البرلمان ، عجبت لتصديه لهذا الموضوع بما كان محتما معه ، لتبرير موقفه ، أن يلجأ إلى الكثير من ضروب الخيال ، ولا أقول الكثير من التشويه ، لأن التعبير به لا يتفق مع المركز الممتاز الذي يشغله الرجل في المجتمع المصري . نعم ، كان النحاس باشا في غنى عن هذا « النبش » الذي لا يخرج منه إلا ما يسوءه ، كان في غنى عن أن يتصنع في بيانه الأخير الجهل بكل شيء ، وأنه لم يعلم بالإنداز البريطاني إلا في الجلسة التي دعانا إليها الملك . وقد فاتته أن الحكومة البريطانية لم تكن لتفرض تعيينه بالذات ، ولم تكن لتشرط منحه كامل الحرية في اختيار نوع الحكم الذي يرتضيه ، وأشخاص الزملاء الذين يطلبهم لمعاونته ، إلا وهي متفقة معه من قبل ، وخصوصاً بعد أن علمت - وما كان يمكن أن تعلم إلا منه - أن ميل الملك يتجه لتأليف وزارة قومية دون الحزبية ، وأن النحاس باشا لا يقبل إلا وزارة من حزبه .

وما من شك في أن الحكومة البريطانية ما كانت لتعرض لرفض

قبول النحاس باشا للوزارة ، بعد أن تكون قد أُنذرت المليك من أجله . والحكومة البريطانية كما هو معروف حريصة دائماً على تحقيق وسائل النجاح والتوفيق لسياستها .

نعم كان النحاس باشا في غنى عن أن يبدىء ويعيد في أمر اتجاه المليك إلى وطنيته المعروفة ليحمله على قبول الوزارة، وفي الدعوى بأنه لم يقبل الوزارة إلا نزولاً على الرغبة السامية . إلخ . . . وهى دعاوى لا تتفق إطلاقاً وظروف الموقف وملابساته، ولا تلتئم مع قعقعة السلاح تحت نوافذ القصر وضخامة وسائل القصر والقهر من حوله ،

نعم كان في غنى عن أن يطعن الزملاء المجتمعين في عابدين في صميم شعورهم الوطنى بأن ينسب إليهم في « بيانه المنتظر » أنهم كانوا يتوقون إلى أن يشتركوا معه في الحكم في وزارة قومية، فلما رفض الفكرة ويئسوا من إقناعه بالعدول عن الرفض فكروا في الاحتجاج على الإنذار البريطانى إلخ . . . وقد نسى رفعة الباشا أو تناسى أن الإلحاح عليه في تأليف وزارة قومية ما كان إلا للخروج من مأزق الإنذار وإزالة كل أثر له . وربما يذكر الباشا أن الاقتراحات في هذا المعنى أخذت تنهال عليه وكلها ترمى إلى محو الأثر السيئ للإنذار، ولكنه كان يقابلها جميعاً بالرفض حتى ذلك الاقتراح المتواضع الذى تضمن تعيين وزير واحد غير وفدى لإيجاد مظهر ولو ضعيف للقومية أفأين ذلك من دعواه الظالمة بأن مستشارى الملك لم يفكروا في الاحتجاج على الإنذار البريطانى إلا بعد أن تولاهم اليأس والكمد تحرقاً على الوزارة ؟ .

والحقيقة يارفعة الباشا ، أن المجتمعين في القصر لم تكن يسودهم في
الظرف الرهيب الذى اجتمعوا من أجله أية رغبة في الاشتراك في حكم
يأتى من طريق الضغط الأجنبي . وإنما الذى كان يسودهم هو الشعور
بالآلم العميق من تدخل لم يحسب للعهود حساباً ، ولم يقدر للكرامة
قديراً . إنما الذى كان يسودهم هو شعور إشفاق لا على البلاد
وحسب ، ولكن على خليفة سعد الذى كانوا يودون أن يكونوا إلى
جانبه في مواقف الذود عن حقوق مصر لا في مواقف الإذلال .
إننى إذا نسيت فلن أنسى أن رفعة النحاس باشا لم يفز يوم
مأساة ٤ فبراير بأى تأييد من أحد المجتمعين ، وكلمهم من لهم في تاريخ
النهضة المصرية كبير الأثر ، وبعضهم ممن تربطهم به أواصر الصداقة
من قديم ، اللهم إلا إذا اعتبر من ضروب المعاونة والتأييد الكلمة التى
قالها المرحوم زيور باشا في أثناء الاجتماع وقوبلت في صمت كصمت
القبور وهى : اعلوها أيها السادة أن انجلترا قوية ومن الخرق في
الرأى أن لا ندعن لقوتها ...

اسماعيل صدقي

تلك جريمة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ، نذكرها للحقيقة والتاريخ .

أما الإفاضة فإلى كتابنا « حوادث مصر السياسية » .

المؤلف : قال أحد الكبراء حينما رويت له مضمون هذا الفصل
شفوياً أن السفير البريطانى كان يصيد البط في أوшим فلما قيل له
إن على ماهر يؤلف الوزارة . قال ممتعضاً : « هذا رجل متعب ،
وحسبى أن أقول إن الرجل الذى يوصف بالمتعب هو الوطنى .
ولما سألت الكبير عن اسم الذى أخبر السفير البريطانى نبأ تشكيل
على ماهر للوزارة ، أجاب : هو مأمور مركز سنورس وقتئذ .

مراعات أمير الشعراء

كان شوقي أمير الشعراء، الغزير شعره، القليل كلامه، كثير المقالب يخلقها بقصد الدعابة مع الدكتور محبوب. وبما يدعو إلى العجب أن شوقي كان مغرماً باستشارة كامن الغضب في قلب الدكتور! ولطالما كان يدبر المؤامرات الخفية الحبيية ضده، مستعيناً بغيره على معاكسته معاكسة « حبية » . . كان أمير الشعراء يجد فيها نشوة تضارع النشوة التي كانت تنتابه عقب وضعه إحدى قصائده الحسان وخرائده الغاليات الخالدات . . .

وكان شوقي - رحمه الله - كان يعمل على استشارة الدكتور محبوب متعمداً، ليستوحى من غضباته شعراً، بل ليتخذ من تلك الغضبات المضرية والانفعالات الثائرة « شيطاناً » لشعره . . . وكيف لا أقول ذلك وقد رأيت شوقي ينفق مبالغ ليست بالقليلة في جمع الأصدقاء الذين كان يستعين بهم على إثارة الدكتور محبوب واستفزازه فإذا ما أصابت رميته، راح مبرود الغليل، مستريح الضمير، هادئ البال. وحينئذ، يحضره « شيطان الشعر »، فيذهب ملتصقاً خلوته يفيض وجدانه شعراً .

ولاني أذكر أن شوقي عندما علم بأنني أحبط المؤامرات الحبيية التي كان يدبرها أصدقاء الدكتور، جاءني ذات مرة ودفع إليّ من الجنيحات خمسة لأتغيب عن (مقهى الشيشة) حيث كان يجلس

الدكتور محبوب . وكان معلوماً للأمير الشعراء أنى كنت أنصب
نفسى لإحباط تلك المؤامرات والمداعبات . أليس هذا بدليل على
أن شوقى كان يجد اللذة فى معاكسة الدكتور على هذا الأسلوب ؟
ولطالما كنت أرى بريق الارتياح يلمع فى عيني شوقى عندما كانت
تنجح هذه المؤامرات الخفية التى يدبرها ، ثم يحىء ويقف من بعيد
أحياناً ، ويشرف على مشاهدة الرواية التى وضعها وأحكم فصولها ،
فكان الدكتور محبوب يفطن إلى ما هنالك ويعود متظاهراً بالغضب إذا
لم يكن منتصراً على شوقى وصحبه . أما إذا آب متغلباً عليهم فكان
يروح منشراح الصدر ضاحكاً مسروراً .

وفى هذه الحالة التى يكون فيها منتصراً - وكثيراً ما يتغلب
على شوقى عفواً الخاطر - فإنه كان يعود مغتبطاً فرحاً ، تعلو ثغره ابتسامة
عريضة وهو يكرر القول : « مرحى مرحى .. لقد أدميت كبد شوقى
وأضعت عليه غرضه ! لقد فاتته القطار ، وطاش سهمه . لقد أعلنته
بالمقاطعة وقلت إنى سأقاطععه ، ولن أكله مطلقاً . ويقينا يا ولدى لن يقدر
على مقاطعتى .. سيقابلنى غداً ، سيحىء إلى العيادة ولن يصبر على المقاطعة
مطلقاً . إنى أقطع أن شوقى سيتناول القهوة عندى هنا .. هنا .. ألا تصدقنى
يا ولدى ؟ فإذا لم أوافق ، سيوسط نقرش .. سيقابلنى فى .. صولت .. »
وفى خلال هذا الزهو البرىء بانتصاره على شوقى تسمعه يترنم -
وهو يقطع حجرات العيادة جيئةً وذهوباً ، بقول القائل :

إذا ما الخليل أحدث لى صرماً وملى الصفاء أو قطعاً
لا أحتسى ماءه على رنق ولا يرانى لبينه جزعاً

أهجره ثم ينقضى زمن السهجران ولم أقل قذعا
احذر وصال اللثيم إن له عضها إذا حيل وصله انقطعا
إلا أنه كان يراجع نفسه بقوله : « لكن أصدقائي ليسوا لثاماً ، بل
لا ينفكون كراماً ، غير أنهم يهزلون مداعبين ... كان شوقى يريد أن
يضحك منى فضحكت أنا منه وقهقهت . أقسم أن شيطان شعره قد أبق
منه ، وفى ظنى أنه لن يقرب منه اليوم ، فشوقى اليوم غير شوقى بالأمس
القريب ، ... »

كان لكلا صاحبين : شوقى ومحجوب ، غرام بأمنية خاصة تطمح إليها
نفسه . فشوقى مغرم برتبة (الباشوية) ومحجوب يرجو (وزارة الصحة) .
وإذن فلتسكن بينهما مداعبات حلوة مرحة ، وليهيئ كل منهما لصاحبه
« مقالب » المزاح المهنذ الطروب .

هذا هو الدكتور محجوب فى ندوته بالعيادة وإذا بشوقى أمير الشعراء
قد أقبل ... فما باله مكهر الوجه ، منقبض الأسارير ! وعهدنا به دائماً
مشرق الحيا ، لاتفارق ثغره الابتسامة الوديدة . لقد جاء إلى صاحبه
محجوب مهموماً أسفاً ، لأنه يحمل إليه أنباء لاتسره ، وينظر إلى الدكتور
محجوب هزأ رأسه متألماً ، ثم يقول له : « كم أنت ضائع الحق يا محجوب
فى هذا البلد ، حتى ليحاربك خلانك فى السر والعلانية . فهذا صاحبك
النقراشى يعترض على تعيينك وزيراً للصحة ، وقد وضع اسمك مرشحاً
الأول . فلم يهدأ للنقراشى بال إلا بعد أن حذف اسمك من قائمة الوزارة .
فإذا حدث أن عاتب الدكتور محجوب صاحبه النقراشى ، لا يرد

العتاب بأنها رواية مختلقة ، بل يحاول إلقاء ذلك على أحد غيره ، وآخر الأمر تنكشف الحقيقة ، وتظهر أنها كانت مؤامرة مدبرة .

وما تكاد ذكرى تلك المؤامرة تفتّر أو تختفى حتى يرجع شوقي إلى صاحبه الدكتور محبوب متصنعاً الجذ الخالص الذى لاتظن فيه رية ، فيروى للدكتور أن السراى قد اعترضت على تعيينه وزيراً للصحة .. لماذا ؟ لأنه لم يذهب فى التشريعات فى عيد (كذا) ... ثم يؤكد شوقي روايته بقوله : « إن الذى أثار عليك غضب السراى هو (فلان ...) » لأنك أغفلت اسم جده فى مقال لك عن السودان ، وكان له بتاريخه صلة وله بالسراى قربى . فأنت يادكتور متهم بأنك تجاهلت شأن عائلة (فلان) فاتخذ من عدم حضورك بالتشريف ذريعة وانتقم لنفسه بحذف اسمك من قائمة المرشحين للوزارة . .

وهكذا تتكرر المداعبات والمقالب الحبية ، يقحم فيها رجال هم بعيدون عن شوقي وعن محبوب . وهذه المؤامرات يكون لها غالباً (رد فعل ..) مستملح طريف ، كما حدث حينما استفز أمير الشعراء الدكتور ضد كبير موظف بالسراى فاذا بالدكتور محبوب يستقل سيارته ويقابل ذلك الكبير المنسوبة إليه رواية شوقي ... فيعاتبه مفنداً مانسب إليه . . فيجد ذلك الكبير نفسه خالى الذهن مما يحاسبه عليه الدكتور وتنكشف الحقيقة ويتضح أنه (مقلب) من مقالب أمير الشعراء ، فيعود الدكتور محبوب وهو مذبذب التفكير فى تدبير مقلب أو دعاية مماثلة يثار بها لنفسه من صاحبه .

نار بشار

تمضى أيام كافية للنسيان ... وإذا بالدكتور محبوب يتعمد
القدوم على شوقي في مجلس تعودا أن يضمهما وبعض الرفاق والخلان
وقبل أن يأخذ الدكتور محبوب مجلسه إلى جوار صاحبه شوقي يخاطبه :
« أنت هنا في مرحك وخيالك جالس تفرح والدسائس تعمل لك
في الخفاء ... » . فيرتاع شوقي ويعتدل التماساً للتفصيل ، فيستطرد
الدكتور محبوب في حديثه : « لقد كنت قاب قوسين ياشوقي
من الباشوية ، وقد كادت البرامة بها تصدر بالأمس ، لولا أن صاحبك
يا سيدى ... » يقول شوقي متهجاً : « من صاحبي هذا يا دكتور ؟ »
فيقول محبوب : « صاحبك حافظ إبراهيم ، يدس عليك وصمة قاتلة ،
قاتلة يقيناً . فقد كتب إلى السراى يتهمك بأنك ممسوس الولاء فأضاعت
هذه الوشاية منك رتبة الباشوية » .

هذه رواية خلقها الدكتور محبوب فأمن بصحتها شوقي وصدق
كما آمن الدكتور محبوب برواية شوقي من قبل . وهكذا يهاجم
كل منهما صاحبه بالرواية والمقلب وهو خالى الذهن . فيجىء شوقي
إلى محبوب وهو منصرف إلى مشروعاته ومشاغله العامة ، كما يجىء
محبوب إلى شوقي ، وهو مشغول بشعره ، مستغرق في خياله .
وهكذا كما كان يقول محبوب : « دقة بدقة ، وواحدة بواحدة
والبادى أظلم ... »

بعثة من البراغيث

تخلف أمير الشعراء عن زيارة الدكتور محبوب في العيادة أياماً طالت خلافاً للعادة ، فلما التقى الدكتور بصاحبه شوقي في ناد من الأندية ، عاتبه الدكتور لانقطاعه عن العيادة ، فاعتذر شوقي بأنه في آخر مرة كان فيها بالعيادة ، هاجته كتيبة من البراغيث أدمت جسمه وامتصت دمه . ولم يقبل الدكتور محبوب هذه التهمة ولم يرض بهذا الافتراء ، فرد على شوقي بأن هذه البراغيث إنما حملتها سيارته ، فنقلها شوقي في طيات ملابسه وألقى بها في العيادة — قاتل الله سواك لأنه لم ينظف لك السيارة — ويصر شوقي على أن البراغيث من زرع العيادة وحصادها ، ويطول بينهما النزاع حول إثبات ملكية البراغيث ، وكادا يطلبان الاحتكام إلى علماء (الحشرات) لتعرف البيئة التي نبتت فيها هذه البراغيث ، أهي عيادة الدكتور محبوب ، أم سيارة أمير الشعراء شوقي . وآخر الأمر يعلن شوقي صحيفة الاتهام تحملها قصيدة من شعره المستملح وهي الدعابة بين الحبيبين الصافيين في الود والوفاء :

براغيث محبوب لم أنسها ولم أنس ما شربت من دمي
تشق خراطينها جوربي وتنفذ في اللحم والأعظم
إذا ما ابن سينا ^(١) رمى بلغيا رأيت البراغيث في البلغم
وتنظرها حول بيب الرئيس وفي شاريه وحول الفم

(١) ابن سينا ، هو الدكتور محبوب تشبهاً له بالرئيس ابن سينا .

بواكير تطلع قبل الشتاء فتحمل ألوية الموسم
 قد انتشرت جوقه جوقه كما رشت الأرض بالسسم
 ترحب بالضيف عند الطريق فباب العيادة فالسلم
 أثار نشر قصيدة البراغيث غضب الدكتور وآلم نفسه ، وكان
 غضبه في هذه المرة شديداً ، رغم ما قصد بها من مداعبة . وكانت
 غضبة الدكتور تحمل معاني كثيرة ، منها : النظر إلى عقلية كثيرين
 من الناس الذين قد لا يفرقون بين المزاح العابر الذي يذهب بمضى وقته .
 وإلى هنا أستطيع أن أقول مرتكناً على آراء الدكتور نفسه : إن
 سبب غضبه ومؤاخذه لشوقي ، أن شوقي لم يراع عقلية الجمهور الذي
 يصدق كل ما يقرأه . ولو كان مجافياً للعقل ومنافياً للمنطق . وبما ضاعف
 في غضب الدكتور وزاد في ألمه . أن بعض الماجنين ، وبعض الثقلاء
 المتطرفين كانوا يتصلون بالدكتور مداعبين ومتندرين ، ينشدونه قصيدة
 البراغيث ، وحينئذ نقد صبره ، وضاق صدره ، فصمم على أن يثار
 لنفسه من شوقي بأن ينقد شعره .

لقد اتصل الدكتور بشوقي «تليفونيا» ، وهو في ثورة الغضب ،
 وخاطبه قائلاً : « ما هذا ؟ ألكي ترضى شاعريتك على حسابي ، تعمل على
 هدمي ؟ تالله ، إنى لقدير على نقد شعرك ، ومستطيع أن أغذى النقد
 وإنى لجد قادر على أن أجد لكل بيت من شعرك نظيراً من نظم
 القدامى ، وفي متناول يدي المصادر ، وفي تلافيف ذهني الموارد . ثم
 ترك التليفون ، واستدعى كاتم سره ، وأخذ يملئ عليه نقداً لشعر شوقي .
 ثم بعث بالرسالة الأولى إلى الطيب الذكر داود بركات بك شيخ الصحافة

ورئيس تحرير «الأهرام»، وهو الصديق الحميم للصاحبين : شوقي ومحجوب وما أن أقبل مساء ذلك اليوم حتى عاودت الدكتور محجوب أريحية الوفاء وصدق الإخلاص وراجعت ذكرى الصداقة . فقال لأمين سره وكتبه : « كيف أرضى أن يمس شوقي في عظمته من جانبي . وكيف أنال منه فأكون السبب في شماتة الحاسدين الحاقدين .. لا .. لا .. أنا لا أرضى بهذا أبداً .. اطلب الأهرام « هات داود بركات » . ولما طلب الدكتور من صديقه بركات العدول عن نشر نقده أراد رئيس تحرير الأهرام استغلال الموقف للدعاية فأكد للدكتور أن نقده قد نزل إلى المطبعة ، وأن الحروف قد جمعت ، وأن عملية سبكها قد انتهى العمل منها ، فهذه استحالة مادية تحول بينه وبين العدول عن النشر ، لقد سبق السيف العذل .

إلى هنا انقلب الدكتور ثائراً غاضباً ، على شيخ الصحافة لتسرع الموافقة على النشر . ثم طالبه بأن يعدل مهما تكن الظروف .. ثم اتصل بالطبيب الذكر صاحب الأهرام جبرائيل تكلا باشا ، وأخذ يذكره بالصداقة ويطلبه باسم هذه الصداقة بأن يصدر أمره بعدم نشر نقده لشعر شوقي . وكان شيخ الصحافة قد اتصل بصاحب الأهرام وأفهمه بأنه يستغل التظاهر بعدم استطاعته العدول عن النشر . ولما رد صاحب الأهرام على الدكتور قائلاً : بأنه سيعمل كل جهده في سبيل عدم النشر إذا كان ذلك في الإمكان . فإذا بالدكتور يعلن بأنه سيتوجه إلى المطبعة بنفسه لينع صدور الجريدة ، لأن كلمة « إذا كان في الإمكان » . لا أطمئن لها ، إنما أريد أن تصدر أمراً حاسماً نافذاً بما أرجوه منك . وإذا بالتليفون

يهتف وهو في هذه الحالة من منزل المغفور له محمد محمود باشا يطلب الدكتور لقضاء السهرة معه وفاء لسابق اتفاق بينهما . ولكن الدكتور قد أصرّ على التخلص من إجابة دعوة محمد محمود باشا لأنه لا بد من ذهابه إلى الأهرام لينع النسر .

وقد كان ، وصرف الدكتور محبوب سهرته في بار اللواء ، وقد أجمل القدر بالتوفيق في تلك السهرة إذ أقبل شوقي ، فكملت الندوة ، وطاب الحديث الجميل ، وعاد الصفاء والإخاء ، والتسامر الحلو بين الأحياء الأوفياء .

تلك ناحية من نواحي الدكتور محبوب ثابت اللطيف العشرة ، الظريف الحديث ، الطريف المحاضرة ، الذي لم يقتب خصماً ولا صديقاً ولم يحسد أحداً ، ولم يحقد على جماعة أو فرد أبداً .

أرأيت كيف كان ، وهو في ساعة غضبه ينقد شعر شوقي ، وكيف راجع نفسه فعزّ عليه أن ينال من صديقه ؟ .. أرأيت هذا الوفاء .. انظر إليه حينما يغضب على صاحبه ثم يراجع نفسه ويعدل عن النيل منه استبقاء للود . ثم انظر إليه كيف يجاهد في سبيل منع الأهرام عن نشر نقده قائلاً : « إذا أساء مرة ، هل يجدر بي أن أنسى إحسانه مراراً ؟ » .

إني أربأ بنفسى أن أنسى قصيدته التي ترنم بها :

« محبوب ، إن جئت الحجا ز ، وفي جوانحك الهوى له
شوقاً وجباً بالرسو ل وآله أذكى سلاله
فلبحت نضرة « بانه » وشملت كالريحان « ضاله »

وعلى «العتيق» مشيت قد
ومضى السرى بك حيث كا
وبلغت «بيتاً» بالحجا
الله فيه جلا الحرا
ف هناك طب الروح . ط
وهناك أطلال الفص
وهناك أزكى مسجد
وهناك عذرى الهوى
وهناك مجرى الخيل يُجرى
وهناك من جمع الساحة
وهناك خيمت النهى
وهناك سرح حضارة
إن الحسين ابن الحس
قرر الحجيج إذا بدا
أنت العليل فلذ به
لا طب إلا جده
قبل ثراه وقل له
أنا يا ابن أحمد بعد مد
أنا فى حمى الهادى أيب
شوقى إليك على النوى
يا ابن الملوك الراشد

ظرفيه دمعك وانهماله
ن الروح يسرى والرساله
ز يبارك البارى حياله
م لخلقه وجلا جلاله
ب العالمين من الجهاله
احة والبلاغة والنباله
أزكى البرية قد مشى له
وحدث «قيس» والغزاه
فى أعتها خياله
والرجاحة والبسالة
والعلم قد ألقى رحاله
الله فى أنا ظلاله
ين أمير مكة والاياه
دار الحجيج عليه هاله
مستشفياً واغنم نواله
شافى العقول من الضلاله
عنى وبالغ فى مقاله
حى فى أيبك بخير حاله
لك أحبه وأجل آله
شوق الضير إلى الغزاه
ين الصالحين أولى العداله

إن كان بالملك الجلالة فإلني لكم جلاله
أو ليس جدم الذي بلغ الوجود به كماله

كان شوق لا يعلم الجهد الذي بذله الدكتور في سبيل منع نشر
نقده الذي دبحه يراعه . فلما علم بما تقدم بعد انقضاء السهرة ،
زار صاحبه في الصباح الباكر شاكرآ ، ومقدراً ، بعد أن أيقظه
ثم استسمحه معتذراً . ورضى محبوب مبتسماً متناسياً .

وسرعان ما كان يرضى عند الاعتذار .

وبعدئذ قال شوق : « عجل يادكتور بارتداء ملابسك ، لأن
الرجل الطيب الأصل ، والكريم المنبت السيد وحيد الأيوبي ينتظرنا
في « صولت » ليصلح بيني وبينك . وقد قال لي إن عينيه لم تتفاهما
مع سلطان الكرى ، لأنه ظن أننا قد تخاصمنا ، وإنك لتعلم رقة
إحساسه ومدى حبه لكلينا » .

سرور وحيد بك

وما أن رأى وحيد بك صاحبيه ينزلان من السيارة ، حتى
بادرهما بالعناق ، ولم يكذب يستقر بهم الجلوس حتى قال محبوب
لشوق : أنت قلت بلساني دون إذني :

أيشتمنى سليمان بن فوزى وببي في يدي ومعى طباق
بقارعة الطريق يسب عرضي ويوسعني عناقاً في الزقاق
وعلى أية حال فإن العهور سليمان فوزى يختلق على كثيرآ ،

وإذا لم يجد ما يقوله فإنكم تغذونه . وأنت بالذات ياشوقى الذى تغذيه ، وها هو القدر قد سخر لى من يقول لك بلسانى دون على ، ليشأر لى منك :

أمير الشعر يقرؤك السلامأ أبو عبده ويهدى الاحتراما
أما بعد فاعلم يا عزيزى بأن لى وياك يا ولدى كلاما
يقيناً أن فى المسكوى هدى وعار إن أتيتك بالبيجاما
بلغنى أن شعرك بات قدحاً وتقطيماً وقفشاً واتهاما
فضحكا، وضحك وحيد بك، واغتبط، ثم أولم لهما وليمة أنيقة
احتفالاً بعودة الصفاء ، وانقشاع سحب الغيم التى كانت تلبدت فى
سماه الصاحبين الحميمين وكان فى صحبتهما المؤلف .

لابد من المقابل !

وبحكم العادة لم يستطع شوقى إلا أن يداعب ، وإلا أن يدبر مقلبا من نوع آخر فبعد أيام قد أوعز بعد انتهاء السهرة إلى سائق سيارته بالانصراف وكان يفضل المشى على الأقدام ليلا . وإذا به يروى للدكتور رواية تاريخية متعمداً المغالطة فى وقائعها . ولما صحح له الدكتور الوقائع ظل شوقى يغالط والدكتور يأتى بالحجج والمصادر ، وينتقل الموضوع إلى جدال ومناظرة .. وشوقى ينسب إلى الدكتور ضعف الذاكرة واختلاط الأمر فيمعن الدكتور فى الاستشهاد بأقوال المؤرخين الموثوق بهم ، وشوقى يغلو فى تنفيذ كلام الدكتور ، حتى وصلا إلى كرامة ابن هانىء « منزل شوقى » والدكتور فى تيه من نفسه ، منهمك فى تصحيح الرواية

التاريخية، وكان الناس من حولهما يسرون، مستمعين، مستفيدين من استفاضة الدكتور .

الشار

وبعد أيام مضت بينما هما يغادران مقهى « الشيشة » كان الدكتور ينشد إحدى خرائد شوقي الخالدة، واغتنب شوقي ونسر، وإذا بالدكتور يهاجمه فجأة بقوله : « هذا البيت مسروق من قصيدة قديمة ، وشوقي يدافع عن قصيدته ، ومحجوب يصصر على رأيه ويطعن في نسب القصيدة ، وظلا كذلك في جدال، ودفع، ودحض، حتى وصلا إلى العيادة، وهنا قهقه الدكتور ضاحكا، واعترف لشوقي بأن البيت غير مسروق ولا مقتبس . غير أنى أتعمد معاكستك لتوصلنى إلى دارى، كما أوصلتك من أيام . سأل محجوب صاحبه شوقياً في بعض مجالسهما الدعائية : « لماذا تتحرق على رتبة الباشوية ، وأنت خالد بشعرك ما بقيت لغة القرآن الكريم ؟ لماذا تهتم برتبة الباشوية مع أنك ستخلد خلود اللغة العربية، بينما حملة هذه الباشوية سيذهبون بموتهم إلى مجاهل النسيان ؟ فقال شوقي : « فقط ، لأشعر بأن أمتى قد قدرتنى وأنا عند ليها ، والرافع للواء الشعر فيها . وسأل شوقي محجوباً : « وأنت مالى أراك تتحرق على كرسى الوزارة ، مع أنك غنى بمشروعاتك وعلمك وجهادك وماضيك ؟ » فأجاب : « لاستطيع عن طريق الوزارة تنفيذ مشروعاتى ، والمناذاة برأى داخل مجلس الوزراء، بدل صفحات الجرائد وأعواد المنابر .

هذا نوع من المداعبات التى كثيراً ما كانت تتبادل بين الصاحبين الكريمين شوقي ومحجوب . رحهما الله وأكرمهما فى جواره الكريم .

لماذا لم يتزوج محبوب . . ؟ ؟

كان السبب الأول في عزوف الدكتور محبوب عن الزواج ، مراد سيد أحمد باشا صديق الصبا الوفي ، ولهذا قصة تفصيلها : أن محبوباً — وهو طالب بإحدى جامعات سويسرا — تعرف بطالبة روسية حسنة ، كانت معه في كلية الطب هناك . وكانت ثرية من طبقة رفيعة تتصل بوشيجة النسب إلى أسرة الأمراء ، وكانت تجمع بين الجمال الرائع والعقل الرصين ، فامتزجت روح محبوب ثابت الطالب بروح زميلته الروسية . فأحبته وأحبها ، ورضيت به خطيباً ، ورضى بها زوجاً .

وكان محبوب وقتئذ يستعد للامتحان في علمين في آن واحد . ولم يكن مناص من سفره إلى باريس ، مدينة العلم والنور ، مدينة الجد والمجون ، مدينة العقل والجنون ، مدينة الاجتهاد والخود ، كما كان يقول الدكتور محبوب .

وطلبت الغادة الروسية من محبوب أن يقول كلمته قبل مغادرته سويسرا إلى باريس . فلما استشار صديقه الطالب مراد سيد أحمد (١) في الاقتراح بالروسية الحسنة ، نصحه بعدم التأهل بأجنبية (ولو أنها في الحقيقة شرقية) ولكنهم سيقولون في مصر ، إذا تأهلت بها : إن

(١) هو مراد سيد أحمد باشا الذي صار بعد ذلك وزيراً للمعارف فوزيراً مفوضاً لمصر في أوروبا .

محجوباً الطالب المصرى السودانى قد فضل الأجنبية على المصرية ، وهو الذى يتكلم عن الوطن والوطنية ، وعن الكرامة القومية ، فلما سمع محجوب ذلك من مراد تعجل بالسفر إلى باريس دون أن يخبر خطيبته ، أو يستأذنها ، وطالت غيبته فى باريس دون أن يتصل بها أو يعتذر إليها . وهنا يقول محجوب : « إن خطيبتى ، وغادق الحسنة ، فهمت أنى قد عدلت عنها ، فخطبها بلغارى يدعى « جورجيكوف » فكان مراد سيد أحمد ، الزميل الصديق ، هو السبب الذى جعل الروسية الحسنة تفلت من يدى بعد أن ظفرت بها — سامحه الله — ولو أنى اقترنت بتلك الروسية . ربما كانت قد غيرت مجرى حياتى » .

قال لى الدكتور النطاسى « حلى يعقوب مكارى » خريج جامعات سويسرا ومدرس الثقافة والدعاية الصحية بوزارة المعارف :
— قابلت الدكتور محجوباً فى سويسرا عام سنة ١٩٣٧ حينما كنت طالباً ، وهو يدرس الشئون العمالية . وكان قد اشتعل رأسه شياً ، وأصبح شيخاً وقوراً . فلما أخذنا تتجاذب أطراف الحديث قص على قصة الفتاة الروسية ، قلت له : بأنى أعرف هذه السيدة الروسية ، وقد تأهل بها بلغارى أنجبت منه ابنة هى آية فى الجمال ، وهى زميلتى فى الكلية الآن ، كما كانت أمها زميلتك ، والأسرة هنا تقيم » .

وهنا قال محجوب : « هيا بنا لزيارة من كادت تكون شريكة حياتى ، لأمتع ناظرى بجمال شبيها ، كما تتمتع بجمال شعرها العسجدى ولارى تلك الابنة التى كان من المحتمل أن تكون ابنتى ، لو أنى

تأهلت بأمها . . . هيا بنا . هيا بنا . إنها الذكريات الحلوة . . .
لإنها قينة أن تثير شجوني .

وقال الدكتور في معرض حديثه عن ذكرياته في محاولات
الزواج : « أما السبب الثاني في عدم اقتراني ، فهو الصديق اللدود
(.) وذلك أنه اختطف مصرية كنت قد اعتزمت التأهل
بها من أسرة مجيدة عريقة . . عندئذ تراءى لي حظي في محاولات الزواج
قد تعثر ، ثم أفلح ، ولذلك ظلمت بغير زواج ، حتى فانت فرصة
الشباب وأدركني الكبر .

وقد استغل شاعر النيل المرحوم حافظ إبراهيم بك قصة خطبته
ومحاولاته غير الموفقة للزواج — وأراد أن يداعبه مداعبة شعرية
طريفة ، فأنشأ قصيدته المعروفة ، التي جعلها شاعر النيل إحدى درر
ديوانه المطبوع وهي :

يرغى ويزبد بالقافات تحسبها	قصص المدافع في أفق البساتين ^(١)
من كل قاف كأن الله صورها	من مارج النار تصوير الشياطين
قد خصه الله بالقافات يعلكها	واختص سبحانه بالكاف والنون
يغيب عنه الحجا حيناً ويحضره	حيناً فيخلط محتلاً بموزون
لا يأمن السامع المسكين وثبته	من (كردفان) إلى أعلى فلسطين
بيننا تراه ينادى الناس في حلب	إذا به يتحدى القوم في الصين
ولم يكن ذاك عن طيش ولا خبل	لكنها عبقریات الأساطين

(١) بساتين فتح الله بركات حيث قضى الدكتور أياماً في صحبة سعد زغلول .

يبيت ينسج أحلاماً مذهبة تغني تفاسيرها عن علم ابن سيرين
 طوراً وزيراً مشاعراً في وزارته يصرف الأمر في كل الدواوين
 وتارة زوج عطبول خدلجة حسناء تملك آلاف الفداين
 يعنى من المهر إكراماً للحيته وما أظلمته من دنيا ومن دين
 وقد كانت بين حافظ إبراهيم ومحجوب مداعبات كثيرة مستملحة
 ولكن إذا أغرق حافظ في المداعبة ، انبرى له الدكتور محجوب
 معنفاً مهدداً . ومن قبيل ذلك ما حدث بعد أن نشر حافظ إبراهيم
 قصيدته التي أتينا بها ، فقد التقى به الدكتور محجوب وأخذ يهدده
 بأنه سينقذ شعره ، وسيملي على أصحاب المجلات الأدبية ، ويلفت
 نظرهم إلى القصائد التي أغار عليها من شعر القدامى وسرق معانيها
 وقوافيها . ثم يقول له : « أتريد أن تنتزع لنفسك معنى ما تزعم أنه
 من قولك في مثل :

خمرة قيل لأنهم عصروها من خدود الملاح في ليل عرس
 إني أعرف صاحب البيت ، ومن هو ، ومن أى قبيلة ، وفي
 أى كتاب ،

وأخيراً تنتهى المعركة إلى تصفية وترضية يتقدم بها شاعر النيل في
 إجلال لمحجوب ، وتقدير لعلبه ، وسعة اطلاعه ، وطول باعه في فهم
 فنون الأدب .

قصيدة

الإستاذ محمد أحمد الحناوى

فى رثاء المغفور له الدكتور «محبوب ثابت»

كنت فى الأزهر والثو رة تزداد طيبا
والجهاد الحق قد ألهى من الشعب مجيبا
ضمت الراية رمزيه لنا هلالا وصلبا
والتقى القسيس بالشيعه خ حبيباً وحيدبا
وعلى المنبر ألفيه ت من القوم خطيبا
مرسل اللحيه ييه دو ثابت العزم مهيبا
قلت من هذا : فكا ن الرد من قلبى وجيبا
صاح فى الناس منا د ملأ الجو نجيبا
الجنود الحمر قد قا موا على الدرب رقيبا
ولدى الباب رموا بالنار شيخاً فأصيبا
فإذا القوم وجوم وبدا اليوم عصيبا
وإذا صوت يشق الصمم ت كالرعد رهيبا
أيها الصائح خذنى إن تكن تبغى طيبا
واحبس الدمع فقد جشت من الأمر معيبا
نحن لاندمع إن نلق دماً سال صيبا
فألدم المسفوك فى الميدان لا يبدو غريباً

إنما ندمع إن خبنا وحاشا أن نخيبا
 كان «محبوب» الذي نرثيه ذياك الخطيبا
 وهو من كان من الصا نح ذياك الطيبا
 كان يرى القول سهماً لا يني حتى يصيبا
 وينادي القوم أن ج دوا نجد فوزاً قريباً
 واصطلينا بعدها الثور رة شباناً وشيبا
 لم أجده مادعا الوا جب إلا مستجيبا
 يفتدى مصر وإن لم ينتهب منها نصيبا
 ويرى السودان لا يـ كن عنها أن يغيبا
 فهو منها لم يكن إلا شقيقاً أو نسيباً
 وهو ليلاه وكم غنى له كي يستطيعا
 وهو لا يرضى بأن نبي من رمل كثيبا
 بل يناجي وحدة الوا دى عساها أن تجيبا
 ويناجي فيه شع باً اتخذ المجد ريباً
 ذاك من دب إليه الموت بالأمس ديباً
 ففقدنا إذ فقدنا ه سياساً أريباً
 وطيباً لم يلد من مث له الدهر ضريباً
 وخطيباً عالماً حراً ومنطقياً أديباً
 أيها الراحل قد خلفت من ذكراك طيباً
 خالداً كالنيل لا يع رف عن مصر مغيباً
 فاقطف الآن جنى الجنة في الخلد رطيباً
 واسترح إن الليالي موشكات أن تطيباً

وفاء وتقدير

تقدير للوفى المسرف فى وفاته، ووفاء المخلص الصادق فى إخلاصه..
هو تقدير منى لصاحبي الأستاذ صالح على عيسى السودانى « . ثم هو
وفاء من صاحبي للشهيد الوطنى « محبوب ثابت » . وكلانا مدين له
بهذا الوفاء . لأنه كان الرجل الذى أدى لمصر أجمل الأداء ، وبذل
لوادى النيل أسخى البذل وأكرم العطاء... احتواه الموت فى زمن
سرعان ما ينهال فيه ستار النسيان على الأبطال والفدائيين الشهداء .
كنت فى موقف الوداع ، وفى موكب الرحيل ، تقلنى عربة الموتى
ألازم التابوت الذى احتوى جثمان « محبوب » ، لأملك غير الدمع يتساقط
فوق التابوت طيِّعاً سخياً . وقد تراءى لى خيالات الأسى فى الجموع
الحاشدة ، لأنها آخر عهد « محبوب » بزحام الجماهير . وتراءى لى ساعتئذ
أن « محبوباً » سينزل إلى محراب الموت منسياً فى المنكورين المجهولين .
ومر بخاطرى وأنا فى رجفة البكاء ما لأمير الشعراء من حكمة
فى قوله :

نسيت روعته فى بلد كل شيء فيه ينسى بعد حين
وإذا بي - والموكب يتهاى للسير - ألمح صاحبي « صالحاً السودانى »
وكبار من رجال مصر يعزونه يداً بيد فى فقيد يومنا الباكي ، ثم

إذا به متجه ناحيتي يطوف حول «عربة الجثمان» كالمأخوذ الذاهل
نال منه المصاب الفاجع المير... حاولت أن أجد له مكاناً ليرافق معي
جثمان فقيدى وفقيده وفقيد وادى النيل. ولكن ضاق عما أردت
له ما شغله المصانعون المراءون من مقاعد حول تابوت الفقيد.

التقينا وكلانا الباكي الموجه الحزين... و «صالح» الأمين على
العشرة، الحريص على الوفاء... هو «صالح» الذى رافق «محبوباً»
ولازمه ملازمة الصنى لأطهار الرجال... ثم هو مؤرخ المعاصرين...
وللفقيد «محبوب ثابت» صفحة من المجد، بل له فى غمار الأحداث
تاريخ حافل بالبطولة...

التقينا فى مساء ذلك اليوم. فإذا هو يفضى إلى بما اعتزم...
سيضع كتاباً لمحبوب... سيؤرخ الرجل الذى توارى عن دنيا الأحياء.
وها هو قد فعل... ها هو قد أدى ما دفع به عن نفسه دين
العشرة ووفاء الصغبة وإرضاء الضمير... أرخ «محبوباً» فأنصف
تاريخه. وصدق العزم فأحيا ذكراه، وكشف عما نسى المعاصرون
من جهاده فحيا عن اسمه الغبار.

بعث «محبوباً» بعثاً جديداً محصناً بالخلود والبقاء لأنه أحياء تاريخاً لهذا
الجيل ولن سيتعاقب مع مسير الزمن من أجيال يقرأها المستقبل وأهلوه
صفحات من التوجيه الوطنى، والتربية السياسية، والوعظ الاجتماعى...
دروس كلها عظمت وعبر، وإنشاء للرجال يحتويها كتاب «الأسرار
السياسية وأبطال الثورة المصرية وآراء الدكتور محبوب ثابت»، لأن

محبوباً كان - حقاً وصدقاً - مثلاً ندر أن يجود الزمان بنظيره في الرجال .

* * *

صحبت الأستاذ « صالح على عيسى السوداني » خلال أشهر ستة وهو دائب جاهد صابر في أداء واجبه لذكرى « محبوب » .
وصالح الشموس العيوف المقل المعدم ... يعطى من وقته أشهراً ستة ضاقت به أيامها عن السعى حتى في سبيل قوته إلا السكاف ، وأمضته لياليها احتجاباً عن سهراته ومجالسه ، حتى التمسه محبوه فلم يجدوه إلا لماماً . واشتاقه أصحابه وسماره لا يرونه إلا في لمحات طارئة ... لأنه مشغول في أحشاء الذكريات يستخلص من أغوارها أيام محبوب ، وجهاد محبوب ، ومواقف محبوب ، ومآثر محبوب ، ليخرج إلى الناس من احتواء الموت حياً مسطوراً في كتاب منشور .
التقيت بصاحبي « صالح » في الإسكندرية . . وأجزم موقناً أنه كان ذاهلاً عن الإسكندرية ، وعن كل شيء مما يلتمسه طلاب الاستجمام في المصيف ... ثم رأيته بعد ذلك في بيته في القاهرة . فكان وهو منكب على تدوين كتابه ذاهلاً حتى طعامه فلا يتنبه إلى نداء معدته إلا حين يطرق عليه بابه بعض الضيوف ، وقد يلزم هؤلاء الضيوف ضيفن أو ضيافن . فكنت أشهد صوراً تبعث على الإعجاب والعجب حين لا يحنو على معدته بالطعام إلا تابعاً لمن نزل في ضيافته ، وقد تضيق به الحال ، فيتحمل من أجل رواده ما فوق طاقته حين يرجونه على ما به من إقلال ، فيجدونه من كل شيء وكأنما صورة هذه الحالة تنطبق على ما قرأته في كتاب « البخلاء » لشاعر يقول :

إذا جاء ضيف جاء للضيف ضيفن

فأودى بما يقرى الضيوف الضيافن (١)

وكثير من هؤلاء ما كانوا يترفقون بصاحبنا « صالح » ففهم من يأتيه طالباً رفده ، ومنهم من يأتيه طامعاً في ملابسه — وهى ثروته فيلصّها — إن لم ينلها اختياراً — ومنهم من يطمع في كتبه ، ومنهم من يسرق حتى أوراقه البيضاء وهى بضاعة عمله ... بل هناك ما هو أعجب في ابتلاء القدر لصاحبنا صالح ، فقد أصيب بحجارة مصابة بالهستيريا النسائية ، لاتنى عن تعكير صفوه كلها التمس أداء عمله أو اختلاس فرصة للراحة . وهو صابر على هذا البلاء يجتاز في ضجيجيه سيله في أداء واجبه الذى عكف عليه في سبيل محبوب . وصالح المحب إلى قلوب من فهموا نفسيته ، قد أحدث اختفاؤه في « كتاب محبوب » فراغاً يباباً في نفوسهم ، فتعقبوا خطواته مشتاقين وتطلعوا لحديثه ظامئين ...

وقد لمح أحمد عاصم بك المربي « صالحاً » مرة في « الكنتننتال » وهو حائر في تنقله بين المقاعد والأركان ، شارد الخطى عابث الانتباه إلى من حوله من البشر ، حال الفلاسفة الزاهدين ... فأشار عاصم بك إلى خادم الفندق للحاق بصاحبنا « صالح » ولكنه كان قد هبط من « الكنتننتال » إلى سيله الذى لا يعلمه من التمس أوبته ، واختفى طلباً للاختلاء بنفسه . فكتب إليه عاصم بك في دعاية ظريفة مستمحة يقول :

(١) الضيفن هو رجل يجيء مع الضيف الاصيل دون أن يكون له بالمضيف معرفة وهو فيما تطابق صفته شبيه بالطفيلي أو هو الطفيلي .

رأيتك من بُعد فقلت لخادمي عليّ به من قبل أن يتهربا
فصالح عندي مثل زئبق متجر تناثر فوق الأرض يطلب مسربا
وأذكر ما كان لهذا الاعتكاف الكادح من أثر في نفس أستاذنا
الشاعر المحجب حسن حمدي بك ، حين غاب عنه الأستاذ صالح
السوداني ، وانقطع عن لقائه بما شغله في وضع هذا الكتاب فأرسل
إليه يستدعيه للقاءه بهذا الرجز :

إلى (عزيزنا) صالح السوداني يا صالح يا أبيض السواد
ويا نقيض الفاسد الوداد متى أرى شخصك في سهادي
كما أرى طيفك في رقادي عدني ولا تنم عن الميعاد
أنام عنك ربك العوادي ودام فيك خلق الأجداد
ولكن « صالحاً ، ذاهل في وضع « كتاب محجوب ، وشاعرنا
الفيلسوف مشوق إلى السмир الوفي ، والخليل الصادق ، والنديم
الأمين يلتمسه في صديقنا الأستاذ صالح السوداني . فانتظره وارتجاه
والتمسه وناداه ... وأخيراً ... بعث إليه معاتباً ومداعباً يقول :

أصالح يا شبيه الليث بأسا ويا من كان يشبهه حياء
أراك جفوتني حيناً طويلاً بلا ذنب يميز لك الجفاء
أهذا ما تسميه إخاء أهذا ما تسميه وفاء ؟
فسمّ طلاح فرعون صلاحاً وسمّ غباء مروان ذكاء
وهكذا يضيق بالمؤلف وقته عن أداء حقوق الصحبة لأصدقائه
ولإخوانه ، فإذا التمس فسحة من الوقت يستجم فيها لمواصلة عمله في
« تاريخ محجوب » ، تراه ينطلق متموج المسير بين « لونا بارك ، وبار اللواء

والكتنتنتال، والنيوبار، والانجلو، ونادى المحفل الماسونى، وهو يتأبط بضاعته، أكداً من الورق تحوى كل خفى ومستور، أو منسى ومنكور من ذكريات لمحبوب فى تاريخ حياته، وأيام الحركة الوطنية. وكم اعترضه بعض الذين حملتهم الدنيا لمعات يعيشون فى غمرة من الحظ المقبل، والدنيا المواتية، أعداءً للسكريم، ولو فى عداد الموق، وحساداً لكل عظيم ولو فى الراحين.

ولانى لأذكر يوماً كنت فيه جالساً بيار اللواء عن كشب من صاحبنا «صالح السودانى» وهو منهمك فى استيحاء ذكريات محجوب وتاريخ جهاده. وإذا به يجالس رجلاً يهش له ويبش لحديثه، وهو الكاتب العبقري، والأديب العميق، المحجب السرى، محمد الصادق حسين بك. وأخذ «صالح» يتلو عليه بعض فصول الكتاب، فإذا بطبيب انبرى متحاملاً فى حسد اللئيم يريد أن ينتقص من قدر «محجوب» ويزرى بذكراه محاولاً - فى زعمه الخاسر - أن يثنى المؤلف عن المضى فى سبيله. وإذا بصالح المتشبع برأيه وفكرته، وصواب ما هو متجه إلى أدائه، يشور فى وجه ذلك الطبيب صائحاً بقوله: «خسنت أيها المجرم! أين أنت من محجوب!! أين الميوعة من الرجولة، وأين النفاق من الصراحة، وأين التجسس من الوطنية العفة الطاهرة...! إن شسع نعل محجوب ليساوى آلافاً من أمثالك...» (١)

وأراد ذلك الطبيب أن يتفادى الصدمة القاسية فحاول أن يقول

(١) هذه عبارات صاحبنا الأستاذ صالح كما سمعتها نصاً فى هذه المعركة التى قام بها فى وجه ذلك الطبيب المهاجم المخدول.

لصاحبنا « صالح » : « إن الدكتور محجوباً كان أستاذي » ، فإذا هو دفاع اللثيم ، ضاعف من ضخامة الجرم ، إذ يعطى ذلك الطبيب دليلاً على لؤم النفس والعقوق ، ونكران فضل الأستاذية ، وجميل التربية . وهنا يوغل « صالح » الشجاع في إعطاء ذلك الطبيب درساً في الأدب والتهذيب الاجتماعي لطلاب العبرة والعظة ، فيقول له : « إن مجرد المقارنة بينك وبين محجوب ، بمثابة خدش لعظمته . فأنت أيها الطبيب تستقبل كل وزارة آتية بالمدح والثناء في المجالس بصوت عالٍ رغبة في أن ينالك خير منها لذاتك أو لأولادك . فإذا لم تتل مأرباً ، تنقلب طاعناً في همس المضطغنين وطعن الجبناء الخائفين ... أما محجوب الذي كان يواجه أصدقاءه من الزعماء بما فيهم من ضعف وبما يراه موضعاً للانتقاد ومحلاً للمؤاخذه ، فإنه كان يحفظ غيبتهم . » ويحاول الطبيب أن يفلت من الموقف الذي تورط فيه ، فيكرر عبارته قائلاً : « إنه كان أستاذي » . . . ولكن صالحاً يضيق عليه الحناق للنهية إذ يرد عليه بقوله : « أبعد أن غلبت على أمرك وألجنت وهجنت وأزريت وسجنت في محبس لؤمك ونكرانك للجميل تزعم أنك تليد محجوب لتسكتني ١٩ لا ... لست بتليذه ، ولكنك ناكر للجميل » .

وأخيراً ... كان المؤلف في هذه المعركة الدفاعية النيلية هو الشجاع الجريء ، يدفع بالحزم تندر هؤلاء الذين يحسدون « محجوباً » ميتاً كما حسدوه حياً ، وأنكروه وتكروا له وهو في أشد مواقفه الفدائية الباسلة .

وبعد - - - - - فيها قد أدى الأستاذ د صالح على عيسى السوداني ،
واجبه ، وأرضى روح د محبوب ، ، بل أضاف إلى التاريخ د سفرأ ،
جديداً ، فيه للقارئ ثروة من ذكريات الوطنية العفة والجهاد الصابر
والكفاح الكريم الذي كان يتخلل د حياة محبوب ، العامة بالمجد
الذي احتواه كتاب : د الأسرار السياسية وأبطال الثورة المصرية
وآراء الدكتور محبوب ثابت ، وهو كما يقول المؤلف في مقدمته : إن
تاريخ محبوب هو تاريخ الحركة الوطنية والجهاد المرير ، هو صفحة
الوطنية الناصعة ، هو الكرامة ، هو الرجولة ، هو التضحية . . .
وهو كما يقول :

« كأنه قد فصد عرق الوتين واتخذ من دمه مداداً لليراع ،
وإنى لأراها صورة صادقة في التعبير عن حقيقة هذا الكتاب
وعن الروح المخلصة التي كتب بها ، فقد جاء الكتاب لأبطال
الوطنية لإحياء ولذكراهم إبقاء ، ولأسم د محبوب ثابت ، في عطاء
التاريخ تخليداً راسخ البقاء والوجود »

م . ي . د

استدراك

- ١ -

في أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدما تولت حكومة النحاس الحكم بموجب تبليغات بريطانية، وظلت بناء على انذارات قابضة على أزمة الأمور، كان السكرتير الإداري لحكومة السودان قد أدلى بتصريح جرى نشرته جريدة «الاهرام» بلسان مكاتبا في الخرطوم بعددها الصادر بتاريخ ١٩ يناير سنة ١٩٤٣ وهو التصريح الذي أعلن فيه أن حكومة السودان أنشأت مجلساً استشارياً لشمال السودان فقط دون الجنوب - وقد رد السكرتير مقدماً على من يعترض على إنشاء برلمان أو شبه برلمان للشمال دون الجنوب، أو يقول: إن الإنجليز قد أنشأوا هذا المجلس توطئة لفصل الشمال عن الجنوب (راجع بين لي ستاك ومحجوب) ثم حاول أن ينفي هذه الفكرة، ثم زعم أن حكومة السودان لم تفكر في هذا. وسكتت حكومة النحاس ولم تحرك ساكناً، ولم تكتف بالسكوت بل أصدت أمراً إلى مراقبي الجرائد بعدم السماح بنشر أي نقد يوجه إلى حكومة السودان. . . عندئذ أرسل المؤلف تلغراف احتجاج إلى النحاس باشا، وصورة أخرى إلى معالي كبير الأمناء وإلى جميع الزعماء وفيه احتجاج على سكوت النحاس على ذلك التصريح، وقد قابل الزعماء وطالهم بعدم السكوت.

وإليك نص هذا التلغراف :

إن تصريح السكرتير الإداري لحكومة السودان المنشور بأهرام ١٩ يناير سنة ١٩٤٣ الذى يخاطب فيه السودانيون كأنهم يدينون بالولاء للتاج البريطانى هو اعتداء صريح على مصر مصحوب بالقحة والاستهتار والتبجح فى وقت يتغنون فيه بميثاق الإطلا نطى كما ترنموا فى الحرب الماضية بمبادئ ولسون .

إن إنشاء مجلس استشارى لشمال السودان دون الجنوب مقصود به فصل الشمال عن الجنوب لتسهيل مهمة المبشرين فى الجنوب تنفيذاً لوصايا رئيس مؤتمر المبشرين الذى عقد فى لندن سنة ١٩٠٩ وبما أنكم تدافعون عن لبنان فطالبكم بالدفاع عن السودان الشطر المتمم لمصر .

إنى كمجاهد قديم أحتج بشدة على التصريح البغيض وأطالبكم بالقيام بعمل جدى لدفع هذا العدوان .

ألا إن برلمان مصر هو برلمان السودان ولو كان مزيفاً ؟

صالح على عيسى السودانى

عندئذ قال الدكتور : إذا لم تتدارك انجلترا الأمر بعد هذه الحرب مباشرة وتسلم بحقوق مصر طواعية فإنها ستسلم بها مكرهة بحجرة مضطرة .

إنها لا تستطيع أن تخدع مصر أو تخضعها فى حرب ثالثة .. لقد أنجبت مصر شباباً لن تستطيع الأحزاب أن تؤثر على وطنيتهم أو تكبت مشاعرهم فى حرب ثالثة .

أما حزب الأمة في السودان فلن يستطيع أعضاؤه الوقوف أمام هذا التيار الذي سيجرفهم .
 إن أعضاء هذا الحزب هم صنائع الإنجليز، وهم نوع لا تخلو من أمثالهم أمة تنسكب بالنفوذ الأجنبي في أي بلد بالغلة ما بلغت من الوطنية والرقى . ألكم تصب ألمانيا بأمثال هؤلاء عقب انهزامها في حرب سنة ١٩١٤ فاستخدمتهم فرنسا ضد الألمان ؟
 وفي هذه الحرب ألم تجد ألمانيا في فرنسا بعد أن ضعفت مقاومتها فرنسيين نظروا إلى الدنيا بعيون ألمانيا المحتلة ؟

* * *

ألم تصب مصرنا في عهد كرومر بأمثال الشيخ الدمرداش والبكرى وعبدالكريم سلمان وأمثالهم ، وهم من رجال التصوف المزيف ؟
 وقال : أنا لست باليائس .

* * *

- ٢ -

لقد دونت رأي الدكتور محبوب في التراجم حسب سياق الحديث الذي دار بينه وبينى في فترات شتى ومناسبات مختلفة ، وحرصت على أن لا أقدم أو أؤخر في الأسماء والسرود . ولم يدر في خلدى أن أضع ترجمة أي شخص في الصدارة أو المؤخرة للقبه أو مكاتته .

* * *

— ٣ —

قد يختلف رأي مع رأى الدكتور فى كثير من الشخصيات
التي ذكرها الدكتور فى أحاديثي معه فى كثير أو قليل ، على أنى قد
تحرّيت الأمانة فى النقل ، والدقة فى السرد .

ولربما يختلف رأي مع رأى الدكتور فى على الشمسى أو مكرم
عبيد وغيرهما ، إذأ فلاذكر رأى الدكتور مصحوباً بالاحترام
ولأضف رأي فى كتابي: الحوادث السياسية الكبرى والأسرار
المطوية « تحت الطبع » .
تلك هى أمانة القلم .

* * *

ولعلى بعد كتاب حوادث مصر السياسية ، والأسرار المطوية .
قد أطلق القلم ، ولكن بعد أن أبين للناس مدى عبث الزعماء ،
والمتصدرين للسياسة ، وقيادة الفكر .

ولعلى بعد ذلك أعيش ساخراً ومتزهاً — ولكن وطنياً .
هل أستطيع ؟

أبتهل إلى الله أن يوفقنى وأن يمنّينى مواطن الذلل ومواقف الغرض .



كلمة من تقدير

كاتب هذه الكلمة الأستاذ محمود فتحى عمر
هو أحد الشبان الذين عاصروا النهضة المصرية ،
واشتغل عاملا مع الرجل الصريح الجريء الشهيد
الوطنى أحمد ماهر .
وهو من الذين عملوا لهذا الوطن فى خفاء
وبلا إعلان عن النفس .
المؤلف



هذا كتاب طابعه الصدق والصراحة . بدأ كتابه فى تسجيل حياة
رجل عاش للوطن ، ومات فى سبيل الوطن . لكن هذه السيرة
ما كانت لتتم صورتها الكاملة فى ذهن الشباب من القراء لولا أن
اختلطت بصورة الوطن المجاهد فى سبيل حريته واستقلاله .
من أجل ذلك رأيت من واجبى أن أوجه زملائي الشباب
- شباب الجيل الجديد - أن يكون فى قراءتهم لهذا السفر الجليل
بعث لهذه الروح النبيلة العالية التى عاشت فيها مصر منذ عام ١٩١٩
إلى عام ١٩٢٢ .

إن مصر فى هذه الفترة العصيبة من حياتها تحتاج إلى مثل هذه
الروح الذى استطاع أن يصورها المؤلف فى كتابه ، فأدى بذلك
واجبه نحو الشباب : جند الوطن .

ولعل لا أعدو الحقيقة حين أقول: إن أخى المؤلف قد استطاع
أن يزع شعوره الشخصى ، وأن يتقمص روح المؤلف المنصف
عند وصفه للحوادث ، وعند ذكره للأشخاص .
من أجل هذا فإنى أشكر باسم الشباب هذا المجهود وأباركه ، ومن أجل
هذا أيضاً فإنى أدعو الشباب إلى دراسته وإلى العمل الصامت الدائم
من أجل مصر ، وإنى أعلم أن « صافى » يجمع بين الشجاعة الأدبية
والجرأة فى الحق .

محمد فنى عمر



الأسرار السياسية !!

لا يسعني بعد اطلاعي على كتاب « الأسرار السياسية » ، إلا أن أدون ما أملاه عليّ زميري ، لأظهر ما قام به زميلنا الأستاذ « صالح السوداني » من تضحية في الوقت ، وهو في منأى عن أصدقائه وخلافه ، أثناء جمعه تلك المعلومات الهامة التي حواها كتابه القيم ، الفريد من نوعه .

جاء في أول فصوله ما قام به الدكتور محبوب ثابت من تضحية في سبيل الحركة الوطنية ، داعياً مع الزعماء والأقطاب إلى النهضة المباركة التي نهض بها الشعب المصري الكريم سنة ١٩١٩ ، فكان خطيباً لبقاً ، وكان وطنياً حقاً ، وكان داعياً للنشاط والحركة دون الخمول والجمود . بل شارك من قاموا بتلك الدعوة بالجد والمال . فكان عضداً هاماً ، وكان سنداً ضليعاً .

وجاء في فصل ثانٍ مادعا إليه الدكتور محبوب من رفع مستوى العمال ، وتشريع القوانين الخاصة بمستقبلهم ، فكان العامل بين العمال ، الخطيب بين الخطباء ، الداعي إلى اتحادهم وجمع صفوفهم ، فتلك مفخرة تفخر بها العمال ، ودعوة حقة للذين جاءوا من بعده .

ولا يسعني أن أصف ما قام به الدكتور محبوب من دعوة وطنية وإصلاح وغيره . وإنما يجب أن أسجل ما قام به زميلنا الأستاذ « صالح السوداني » من جهد ومشاق ومتاعب في جمع تلك الوثائق

المكبوتة ، والدرر الغالية ، ينشرها بين الناس ، ليقتدوا بمن هم أولى بالاعتناء ، ولينسجوا على منوال ما نسج عليه السلف .
 وإنى أذكر : أن الأستاذ « صالح السوداني » ، السوداني المنبت ، المصرى الإقامة ، الصحفي الجرىء ، البرىء ، الذى لا يتراجع أمام المعضلات .. خدم الصحافة فى أوجها ، فدبج يراعه المقالات الحماسية أيام الحركة الوطنية فى الجرائد التى كانت تصدر وقتئذ ، نذكر منها : الكشكول ، والثغر ، والسياسة ، والأخبار .. فكانت مقالاته هذه نارا حامية متأججة ، تبعث فى النفوس حمية الوطنية ، وتدعوهم إلى التضامن والأخاء .

لقد جاء هذا الكتاب سجلا للحركة الوطنية التى قام بها محبوب ثابت ، وتاريخ لأبطالها الزعماء الذين ضحوا بالنفيسين : الجهد والمال .
 فإلى الأستاذ الجليل أتقدم بالقليل عما أعرفه عنه ، فهو الفريد الأوحد ، الذى قام بهذا المجهود المصنى ، وكشف الستار عن خبايا الأسرار السياسية .

وإليه كذلك تقديرى الذى يفوق كل تقدير ، وأدعو الله أن يمد حياته ، حتى يخرج لنا الخبايا التى فى مجاهل النسيان .. أكثر الله من أمثال ذلك الوطنى الغيور ، وجعله قدوة لغيره ..

ع ١٠٠

الختام

أما بعد فقد وجدتني في أثناء وضع كتاب (الأسرار السياسية ، وأبطال الثورة المصرية ، وآراء الدكتور محبوب ثابت) - قد توغلت في ذكريات الماضي بجلوه ومره ، ولم يفتني مواضع العبر والعظات . وإلى هنا أستطيع أن أقول : إن هذا الكتاب قد جاء سجلاً للحركة الوطنية ، وتسجيلاً دقيقاً للعصر الذى عاش فيه محبوب ، وإنصافاً للذين أخلصوا لله وللوطن المقدس من رجالات مصر ، ونقداً بريئاً وجريئاً للذين انحرفوا عن الجادة في صراحة كاملة ، ووضوح شامل ، وقلت لنفسي : فليغضب من يغضب ، وليرض من يرضى .

لقد بدأت في وضع هذا الكتاب في نفس اليوم الذى غادريه الدكتور محبوب ، الطبيب ، الأديب ، الوطنى ، المؤرخ ، العالم : رحاب الدنيا وموكب الحياة .

ولما كنت من أكثر الناس معرفة مصحوبة بالإيمان أنه عاش مغبوناً في هذا الوطن ، أردت ألا يطارده الغبن والجحود إلى رسمه ، وكذلك غيره من الذين ذكرتهم منصفاً ، فإذا بالكتاب يصبح وصفاً دقيقاً للعصر ولكل ما مر فيه من حوادث جسام . وإذا الكتاب تاريخ مصر والتطور الوطنى والاجتماعى والثقافى والخلقى . وأستطيع أن أقول : إن الحركة الوطنية المصرية لم تجد قبل كتابى هذا كتاباً جامعاً لتاريخها من حيث الصدق في الرواية ، والدقة في العرض ، والنزاهة في الغرض ، وشرف القصد والهدف ، وفي وصف الرجال مقروناً بآثارهم ، مصحوباً بحسناتهم وسيئاتهم .

فهرس

الإهداء ٣

الجزء الأول

٧	تقديم للأستاذ العلامة محمد كرد على بك
١٤	مقدمة المؤلف
١٧	الدكتور محجوب ثابت: المجاهد الكبير
٢٠	صور من أخلاقه
٢٢	صورة من تسامحه
٢٣	د جهاده
٢٨	محجوب: رسول سلام
٣١	الدكتور محجوب ثابت ولجنة ملنر
٣٢	البطل عبد الرحمن فهمي وأمين الراجحي
٤٩	مواقف وطنية
٥٠	الدكتور محجوب وإضراب الموظفين
٦٤	ذكريات وطنية بين ثروت باشا والدكتور محجوب
٦٨	بين محجوب ونسيم باشا
٦٩	بين محجوب ويحيى إبراهيم باشا
٧٢	بين محجوب وستاك باشا حاكم السودان
٧٣	النوبيون وتاريخ النوبة
٧٦	لا برابرة على ضفاف النيل
٧٧	إن تقطع أوصال وادي النيل
٧٨	سياسة الإنجليز في فصل السودان عن مصر وفصل شماله عن جنوبه
٧٩	إحياء رئيس مؤتمر المبشرين

١٥١	غضبة الكرامة وثورة الإباء
١٦٢	الجهاد الشاق
١٦٥	طراز من الذين يلتفون حول رؤساء الأحزاب
١٦٧	محبوب يلقي الدرس
١٧١	مواسم ظهور حملة ألوية الفتنة - طراز من نوعهم
١٨٢	مشروعات مختلصة
١٨٥	انصاف وطنية الأقباط
١٩٥	... {	الوكيل الأمين - بين مستر جريفز والدكتور محبوب - صفحة من صفحات الأمانة والزهد والقناعة في أشد أيام الضيق المادى
٢٠٦	الدكتور محبوب ثابت : المصلح الجامعى
٢٠٩	من قبيل إعطاء الفكرة لا الحصر
٢١٢	أريحية
٢١٣	منشئ التدريب العسكرى
٢١٤	موجد الوحدات العلاجية
٢١٤	المتنحن الجامعى
٢١٥	المناظرات الجامعية
٢١٥	المعلم المربى
٢١٧	العالم اللغوى
٢١٨	القضاء والفصل بين قطبين فى مساجلة لغوية
٢٢٣	... {	الدكتور محبوب : الوطنى . . السياسى . . الكاتب - أنموذج مما دبحه يراعه فى السياسة الانجليزية فى السودان
٢٢٤	من المهيمن على مياه النيل - ١ -
٢٢٩	منطقة تجمع المياه الحبشية
٢٣١	من المهيمن على مياه النيل - ٢ -
٢٣٩	... {	الدكتور محبوب يقدم الشيخ عبد العزيز جاويش إلى مصطفى كامل باشا
٢٤٠	عطف الدكتور على عبد الفتاح عنايت فى سجنه

٣٠٩	الاستاذ سليمان فوزى
٣١٠	الاستاذ جورج طنوس
٣١٠	الاستاذ محمد الهياوى
٣١٢	اللورد كرومر
٣١٦	من سيئات كرومر
٣٢٢	مايلز لمبسون (اللورد كليرن)
٣٢٤	الى الامام ياروميل
٣٢٨	اين دبر ء فبراير
٣٣١	السفير البريطانى وعلى ماهر
٣٣٥	مع اسماعيل صدق
٣٣٨	إنقاذ الموقف
٣٣٩	محضر جلسى اجتماع ء فبراير
٣٤٩	موقف النحاس بعد اعتقال على ماهر
٣٥٨	مداعبات أمير الشعراء
٣٦٢	نار بشار
٣٦٣	بعثة من البراغيث
٣٦٨	سرور وحيد بك
٣٦٩	لا بد من المقابل
٣٧٠	الشار
٣٧١	لماذا لم يتزوج محبوب ؟
٣٧٥	قصيدة للاستاذ محمد احمد الحناوى
٣٧٧	وفاء وتقدير
٣٨٥	استدراك
٣٨٩	كلمة حق وتقدير للاستاذ محمود فتحى عمر
٣٩١	الاسرار السياسية
٣٩٣	الختام

شكر واجب

إلى أتقدم إلى حضرات رؤساء وعمال شركة فن الطباعة بجزيل
الشكر وعلى رأسهم الأستاذ الفاضل « أمين الجزيري » مدير القسم
العربي، على معاونتهم إياي في طبع وترقيم هذا الكتاب وإخراجه في
هذه الصورة .

كما وأني أعترف كذلك أنها أعظم دار في الشرق العربي
كله من حيث الإتقان في الطبع ، والسرعة في إنجاز العمل .
المؤلف

٩٦.٢.٥٤

مكتبة دار الكتب والخطوط العامة - الإسكندرية - مصر

١٩٥١

شركة تفتت الطباعة
صندوق بريسته ١ شبراخية - تلخون ٥٨١٤٩

مصر - تاريخ : ١٩٥٢



وقعت أخطاء طفيفة سيذكرها القارئ

General Organization of the Alexandria Library

مكتبة دار الكتب والخطوط العامة - الإسكندرية - مصر

السياسة (١٩٥٢)

١٩٥١

١٩٥٢

١٩٥٢

